الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الجزء الخامس والعشرون
غافر - الزخرف

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الخامس والعشرون

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

٤٠

تتمة

سُورَةِ غَافِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ
إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ
﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ
لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا
كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ
ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا
شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟
نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن

يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم
مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا
يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ
﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ
بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا
سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ
ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ
مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم
بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ
يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ
لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ
مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ
عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ
ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ

ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ
سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى
لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى
ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ
فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿هُوَ﴾ الله الواحد ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته الحسنى، والكون كله آياته من آفاقية وأنفسية ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مادية ومعنوية ﴿رِزْقًا﴾ لأبدانكم وأرواحكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ آياته البينات ورزقه النازل ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إليه ويرجع عن غفوته وغفلته إلى فطرته وفكرته.

فـ «لو كان لربك شريك لأتتك رسله»[1] وأراك آياته، والآيات كلها

(١) عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

مجمعة عليه، دالة إليه، حيث الكون مكرَّس جامع، وكتاب بارع، يدل على مكوِّنه دلالة ناصحة ناصعة، دونما مناورة، ولا منازعة، أو مضادة ومناقضة ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾(١) في ذوات ودلالات.

وإذ كان واحداً تدل عليه آياته في كافة الجهات والجنبات ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إخلاصاً له في طاعته وعبادته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(٢) وكراهتهم منفية في الفطرة وحسب ما تهدي إليه الأدلة، كما تلمح إليها «لو» الامتناعية، إلَّا أن غشاوات الفطرة تجعل من المحبوب مكروهاً، ومن النور ظلمات.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾:

مواصفات ثلاث لله تعالى تقتضي أن ندعوه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، وهي من صفات الأفعال دون الذات المقدسة المتعالية عن هذه الصفات.

أترى أن له درجات تُرفع ويتدرج إليها؟ وله درجة واحدة دائبة لا زائدة ولا ناقصة هي الألوهية!.

هذه الدرجات الرفيعة هي التي يُدرج إليها أهليها كمن يلقي عليه الروح من أمره: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾(٣) إذ ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾(٤) ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٥) ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(٦) ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٧).

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٧٦.
(٧) سورة المجادلة، الآية: ١١.

فلأنه ذو العرش علماً وتربية وتدبيراً أمّا هيه، فهنالك درجات إلى عرشه لكلٍّ على حدِّه ومدِّه دونما فوضى جزاف، فمنازل العز ومراتب الفضل التي يخص بها عباده الصالحين وأوليائه المخلصين رفيعة الأقدار، مشرقة المنار، فهي الدرجات التي يرفع عباده إليها، لا التي يرتفع هو بها! تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وتأويل الرفيع إلى معنى الرافع تأويل عليلٌ، فإنما هو الرفيع، يملك الدرجات الرفيعة، فيرفع بها من يشاء من عباده ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فله عرش الربوبية بكافة جنباتها لا سواه، تجتمع في عرشه أزمة الأمور، ويتنزل منه كل أمر برفيع الدرجات حسب القابليات.

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ إلقاء من أمره لا سواه، وروحاً من أمره لا سواه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[(١)] ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[(٢)] تنزيلاً من أمره بالروح من أمره لا أمر في أيٍّ من أمره لسواه.

ترى الروح هنا هو الروح القدس، روح العصمة والتسديد المستكن في قلوب المعصومين[(٣)] أم هو الروح الأمين ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ...﴾[(٤)] ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[(٥)] وهما جبريل الأمين[(٦)]؟ أم هو روح الوحي: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى...﴾[(٧)] فالكل ملقىً ومنزَّل على من يشاء من عباده، مهما كان روح

---

(١) فـ ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] حال أم صفة للإلقاء والروح فكلاهما من أمره.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢.

(٣) تفسير البرهان ٤: ٩٤ ح ١ علي بن إبراهيم قال قال: روح القدس وهو خاص لرسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤. (٥) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٦) البرهان ٤: ٩٤ ح ٢ القمي بسند عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عن قول الله عز وجل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ فقال: جبرائيل.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

الوحي هو الأصل، وروح العصمة ظرف لنزوله، والروح الأمين سبب لإنزاله؟

قد يعني الروح الملقى من أمره هذه الثلاثة متأصلة روحَ الوحي، وهو أحق أن يسمى روحاً وأحرى من سائر الأرواح، لأن المكلفين يحيون به من موت الضلالة وينشرون به من مدافن الغفلة والمتاهة.

و﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ ليست مشية فوضى جزاف، بل هي اصطفاء ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[١] ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إنذاراً لائقاً برب العالمين لكل العالمين، ثم تبشيراً لمن آمن منهم، فالإنذار هو حجر الأساس الذي ترتكن عليه دعوة الرسالات ومن ثم التبشير ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[٢] و﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ هو القيامة التي تتلاقى فيها الأرواح بأجسادها بعد فصال، ويتلاقى أهل الحشر عن آخرهم «يلتقي أهل السماوات والأرض»[٣] فهو يوم بروز الكل للكل فهل يخفون على الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ ثم تلاق في وئام تام لأهل الإيمان، وفي محاجة وصدام بين سواهم، وتلاق رابع بين المكلفين وأعمالهم، وخامس تلاقي جزاءهم، وهل يعم التلاق لقاء الله في يوم الله؟

علَّه نعم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾[٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[٥] وعلَّه لا، حيث التلاق لقاء من الجانبين وهو من الله حاصل منذ خلق الخلق، وقد تختلف الملاقاة عن التلاق، حيث الثانية تفاعل بين

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٧.
(٣) نور الثقلين ٤ : ٥١٤ ح ٢٤ في معاني الأخبار بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٥) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

اثنين على سواء، والأولى فعل من الملاقي بتقبل من الملاقى، فما هما على سواء، اللهم إلَّا أن تعنيه ضمن ما عنته من تلاقي أهل الحشر وسواه، فكما أنه يوم الفصل كذلك هو يوم التلاق، كل في موقفه وعلى حده.

ولأن الإنذار هادف يوم التلاق، فلتعنِ التلاق لقاءَ الله في يوم الحساب حتى يتحقق حق الإنذار، إذ لا خوف من سائر التلاق لولا لقاء الله، مهما عنت سائر التلاق.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾:

أتراهم لم يكونوا يوم الدنيا الفراق بارزين لله حتى يبرزوا له يوم التلاق؟ أجل ولكنهم لم يكونوا بارزين لأنفسهم ولا لمن سواهم إلَّا مَن شهد، فخُيِّل إليهم أنهم مستورون حتى من ربهم، وأما اليوم فقد كُشف الغطاء فبرزوا عن مثلث الغطاء، فزال الخيال أنهم مستورون عن الله ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ﴾ عندهم، كما لم يخف على أية حال! ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾[1] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2] لأنه ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[3] ويوم ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[4] كما وكان لهم الملك يوم الدنيا ابتلاءً وامتحاناً مهما كان حقه لله، ويوم التلاق ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾! حيث يتضاءل المستكبرون وينزوي المتجبرون، ويقف الكون كله خاشعاً لله في ذل إعلاناً وإسراراً، مهما خشعت له يوم الدنيا إسراراً.

في يوم التلاق هو المَلِك لا سواه، وهو السائل والمجيب لا سواه،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

(٣) سورة الطارق، الآية: ٩.

(٤) سورة العاديات، الآية: ١٠.

اللّهم إلَّا إجابة الأنبياء والرسل والحجج(١) ومن ثم إجابة أهل الحشر كلهم إذ تبين لهم أنه الحق(٢).

أم إنه في موقف لا مجيب فلا جواب إلَّا لله حيث «يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها، بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات فلا شيء إلّا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها»(٣).

أم إنه يعني الموقفين، فيهما الملك لله الواحد القهار، وعلى أية الحالين فـ«من شاء الله» هم أحياء عند الصعقة لا يُصعقون مهما أجابوا أم سكتوا، فرد هو سؤاله على نفسه ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أين الجبارون؟ وأين المتكبرون؟ وأين الذين ادعوا معي إلهاً آخر؟ أين المتكبرون ونخوتهم؟(٤).

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾:

«ما كسبت كل نفس» هو السبب للجزاء على حدِّه عدلاً في العقاب وفضلاً في الثواب، والسبب هو المسبب فـ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٥) إذ

---

(١) راجع ج ٢٧ من الفرقان ففيه تفصيل البحث عن الآزفة.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥١٤ ح ٢٥ في كتاب التوحيد بسند عن الإمام الرضا عليه السلام قال حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليه السلام في ا ب ت ث أنه قال: الألف آلاء الله - إلى قوله -: فالميم ملك الله يوم لا مالك غيره ويقول الله عز وجل :لمن الملك اليوم ثم تنطق أرواح أنبيائه ورسله وحججه فيقولون لله الواحد القهار.

(٣) نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(٤) نور الثقلين ٤ : ٥١٤ ح ٢٧ - القمي بسنده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حديث طويل يستعرض فيه موت الكون كله، أقول ويستثنى منه «من شاء الله» حسب التصريح القرآني.

(٥) سورة الطور، الآية: ١٦.

يظهر العمل بملكوته فهو هو الجزاء، فـ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ حيث العمل لا يزيد على نفسه ولا تختلط عليه الحسابات ولا تطول فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

فالزيادة على العمل ظلم، والخروج عن حدِّ العمل عقاباً ظلم، ولأن كل عمل محدود زماناً وأثراً أياً كان، فالعقاب اللاّمحدود ظلم، بل لا يعقل حينما يكون العمل هو الجزاء، إلّا أن يجعل من العمل المحدود اللاّمحدود من نفسه أو من ملكوته ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

وأما اللاّمحدود من جزاء الصالحات فهو قضية الفضل، لا - فقط - ظهورها بملكوتها، فإنها محدودة في أصلها وفي جزائها بملكوتها عدلاً، ولا محدودة بفضل الله ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2]!

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾:

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾[3] [4].

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ أهوال يوم القيامة ﴿ٱلْـَٔازِفَةِ﴾: القريبة، فإن كل آت قريب وقد مضى من عمر الدنيا كثيره البعيد، فلم يبق إلّا الآزف القريب، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ لأن الأنفاس خنقتها من الهائلة، فأنفسهم - إذاً - آزفة الزهوق عند الآزفة، وكما في الحرب يوم الأحزاب ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[5]، ﴿كَٰظِمِينَ﴾ في شدة الاغتمام، ويزيد كظماً من ظلم فـ ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ إذا ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب بحميهم بحِمَّة القرابة

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٢) سورة هود، الآية: ١٠٨.
(٣) سورة النجم، الآيتان: ٥٧، ٥٨.
(٤) راجع ج ٢٧ من الفرقان ففيه تفصيل البحث عن الآزفة.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

وهمتها ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾[(١)] ﴿وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ مهما كانت هنالك شفعاء لا تطاع!.

إن القيامة الهائلة بنفسها منذرة، فكيف إذا كانت آزفة زاحفة، فالأنفاس يومئذٍ لاهثة، والقلوب لدى الحناجر زاهقة، وما لهم من حِمَّة ولا شافعة.

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾:

هنالك أنفس أمينة وأخرى خائنة ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ...﴾[(٢)] ثم ولكل جارحة وجانحة أمانة وخيانة والله ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ مثالاً لجارحة ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ مثالاً لجانحة.

فلقد «قسم أرزاقهم وأحصى آثارهم وأعمالهم وعدد أنفاسهم وخائنة أعينهم وما تخفي صدورهم من الضمير»[(٣)].

﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ صفة مضافة إلى موصوفها، وكونها مصدراً وصريحه الخيانة خلاف الصحيح والفصيح، ثم ليست لكل الأعين خيانة وهي قضية المصدر!

للجوارح خيانات و﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ أسرَّها تدليلاً وأسرعها نفاذاً، وأخطرها نفوذاً، ولذلك تختص من بينها، ثم الخيانة قد تكون جهرة، فيعلمها غير الله كما يعلمها الله، وقد تكون خفية رئاء الناس، وهي المناسبة هنا لـ ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ حيث المراؤون يغتنمونها كأنها الله كما الناس لا يعلمها... ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر فذلك ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾[(٤)] فهي

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٣.
(٣) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.
(٤) نور الثقلين ٤: ٥١٧ ح ٣٣ في معاني الأخبار بإسناده إلى عبد الرحمن بن سلمة الحريري قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية فقال: ألم تر...

- إذاً - سارقة النظرة، لا كل نظرة عاصية مهما كانت خائنة لمكان ﴿يَعْلَمُ. . . وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ نظرة تخفيها كما تخفي الصدور، وأن يعلم الله كل خيانات النظرة وسواها بيِّن لا يحتاج إلى بيان فإنه عيان.

وهلّا تجوز خيانة الأعين حتى فيما يجوز كأن تشير غمضاً إلى شخص فيعاقب باستحقاق؟ علّها لا إلا فيما لزم الأمر دون مندوحة، ولكنها تقية لا تليق بالرسول ﷺ فكل أمره صُراح وقد يروى عنه أنه «لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين»(١) ولو لم تنبغ لأي مكلف فيما يجوز لم يخصه «لنبي»!

فـ «لخائنة الأعين» مصاديق ثلاثة أنحسها سارقة النظرة المحرمة ممن يراؤون الناس ولا يراعون الله، وي كأن الناس أحرى بالرعاية، وأقلها فيما يجوز إلّا لنبي أمّن ذا، وأوسطها كل نظرة محرمة غير سارقة، وسواءٌ في هذه الثلاث أكانت النظرة إلى شخص أو شيء أو أمر، فإنها على أية حال خائنة، مهما اختلفت دركات الخيانة لحد الكراهية لغير الرسول ﷺ.

وعلَّ ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ تعم السر وأخفى ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾(٢) ما تخفيه اختياراً عمن سواها، وما تخفيه اضطراراً إذ لا تعلمها في حالها ماذا تكنُّ في استقبالها؟

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٤٩ - أخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة أنفار وامرأتين وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به فقال: يا رسول الله ﷺ بايع عبد الله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى يبايعه ثم بايعه ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ﷺ ما في نفسك هلّا أومأت إلينا بعينك قال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين.

(٢) سورة طه، الآية: ٧.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾:

وقضاء الله بالحق دون سواه، دليل آخر على ألّا إله سواه، قضاءً في التكوين ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١) أو في التشريع ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(٢) أم في خلافات خاصة، كلها في الأولى، وما سوى الوسطى في الأخرى، فهو - فقط - يقضي بالحق في الدنيا والآخرة بمثلث القضاء، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيءٍ.

أترى الشيء هنا يعم الشيءَ الحق والباطل، ودعاة الحق يقضون بالحق، ودعاة الباطل يقضون بالباطل فكيف ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍۗ﴾ مهما لا قضاء لمن دونه تكوينياً؟ أم هو الشيء الباطل والقضاة به كثيرٌ؟

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعم الدعاة والمدعو إليهم، لمكان ﴿يَدْعُونَ﴾ دون يدعونهم، فقضاء دعاة الباطل ليس بشيء في التشريع والقضاء فإنه باطل، ولا في التكوين لأنه من أصله زائل، ثم المدعو إليهم بين من لا قضاء له أصلاً كالأصنام والأوثان، فحقاً إنهم لا يقضون بشيء! وبين من يقضون بالحق فلم يقضوا بشيء يهواه دعاتهم كالملائكة والنبيين، ومن يقضون بالباطل وليس الباطل بشيءٍ! طالما الشيء المقضي به فيمن دونه لا يعم التكوين.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾(٣)

فمن لا يقضي بشيء بين العباد كيف يكون إلهاً أو شريكاً لله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؟

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٣) سورة غافر، الآية: ٤٣.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾:

ألم يرجعوا إلى فِطَرهم وعقولهم، ولم يسمعوا إلى رسلهم، وبعدَ هذين إذ تركوهما ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سيراً تاريخياً في أحوال الغابرين وأهوالهم ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيعتبروا ممن قبلهم ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ فلم تمنع قوتهم وآثارهم الأشد عن أخذ الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ﴾ أخذ ﴿اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ فيا لمصارع الغابرين من معتَبَر وهم واقفون موقفهم فهل من مدَّكر؟.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾:

وهكذا تكون عاقبة الكفر بآيات الله البينات، أخذاً في الأولى قبل الأخرى، تدليلاً على مدى الأخذ في الأخرى.

ومن أنحس النماذج للذين كانوا من قبلهم ثالوث فرعون وهامان وقارون، كلٌّ يمثل جانباً من الكفر والمجموع جملة الكفر، تتجاوب في ضخامة الصراع بين الكفر والإيمان في ذلك المقطع من التاريخ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾:

فرعون وهامان وملأهما لم يكونوا من بني إسرائيل وقد أرسل إليهم موسى رسالة قاصدة، مما يدل على أن هذه الرسالة السامية غير محصورة في بني إسرائيل مهما كانوا هم المحور الأصيل فيها ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ

بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ...﴾[١] [٢].

فرعون هو الضلع الأكبر من ذلك الثالوث، ويذكر في سائر القرآن (٧٤) مرة، وهامان ممثله ووزيره (٦) مرات وقارون ابن عم موسى (٤) مرات، وتجمعهم أجمع هذه وآية العنكبوت ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[٣].

ولأن هؤلاء الثلاثة هم المحور الأصيل في السلطة الفرعونية استكباراً واستحماراً واستثماراً، تتجاوب مع بعض في السلطة التامة على المستضعفين، لذلك أصبحوا أصول المرسل إليهم من المستكبرين، كما وبنو إسرائيل هم أصول المرسل إليهم من المستضعفين، ثم الفروع للأولين ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وللآخرين سائر المستضعفين في الرسالة الموسوية.

ترى ما هو الفارق هنا بين ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ وهي مكرورة في هود والمؤمنين[٤] وآيات أخرى تخص السلطان ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[٥] ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾[٦] ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٧].

السلطان هو السلطة عقلياً أمّا ذا ببرهان، أم واقعياً، فهو - على أية حال - أمرٌ لا يُغلب، بل ويَغلب، فهل هو فقط آية الثعبان إذ كانت أمَّ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠٣.

(٢) ينضم ملأ فرعون إليه في الرسالة الموسوية في الآيات التالية: ١٠: ٧٥ و١١: ٩٧ و٢٣: ٤٦ و٢٨: ٣٢ و٤٣: ٤٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣٩.

(٤) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٩٦] ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥].

(٥) سورة الذاريات، الآية: ٣٨.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٧) سورة القصص، الآية: ٣٥.

الآيات الموسوية، أفردت بالذكر بعد الآيات أم دونها لأنها هامَّتها، وقد غلبت كل سحر من السحرة مما برهنت لهم أنها آية خارقة إلهية؟

أجل إنها سلطان من هذه الناحية، ولكن ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ برهان لا مردَّ له أنها ليست آية الثعبان، فإنها مهما كانت سلطاناً عقلياً وحسياً لم تك لتمنع السلطة الفرعونية الكافرة بالآيات عن القضاء على موسى وهارون.

إذاً فهو الهيبة المستمدة من الله، والسلطة القاهرة الإلهية التي حالت دون المكائد الفرعونية أن تفتك بموسى، إضافة إلى سلطان الآيات بما فيها سلطان الثعبان ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بحجة قارعة ﴿بِآيَاتِنَا﴾ و﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستئصال «بسلطان مبين» سلطاناً يجمع بين السلطة العقلية والواقعية، والنتيجةُ الحاسمة: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

هذا موسى ومعه آيات وسلطان مبين، وهؤلاء ﴿فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ ومعهم شهوات وحيوَنات وسلطان مهين، لا يملكون حجة وجاه موسى إلَّا داحضة ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ سنة دائبة في قرية جاهلة خائبة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾:

لقد كان فرعون قبل «أن جاءهم الحق» ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾[١] لكيلا يظهر بينهم موسى، أما الآن وقد ظهر بخارقة إلهية وجاءه بآيات وسلطان مبين وآمن معه من آمن، فلماذا يجدد مع هامان وقارون قتل الأبناء واستحياء النساء، دون أن يأمروا بقتل الجميع، أم يأمروا كما أمر بعد ردح بقتل موسى لكي يجتث جذور الرسالة؟.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٤.

علَّه لأنهم لم يسطعوا على قتلهم جميعاً وقد تحزبوا بمن معهم من السحرة المؤمنين وفي ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ بدل «آمنوا به» لمحة لامعة بذلك التحزب، فإن في معية الإيمان تناصراً في أصله، فتعاضلاً في فصله، وبأحرى لم يسطع على قتل موسى كما تلمح له ﴿ذَرُونِىٓ﴾ وفي قتل أبنائهم واستحياء نسائهم مُنعة صادّة عن تداومهم في إيمانهم، وصدٌّ عن بقاء الإيمان بهذه الرسالة، حيث الناشئة المتربية في حجر الإيمان تحمله كأفواه إلى الأنسال الآتية، ولماذا أبناءهم دون بناتهم لأنهن لسن ليحملن الإيمان بعد قتل الأبناء تخوفاً، وفي بقائهن مآرب لهم: ﴿وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ﴾ من الحياة إبقاءً لهن خادمات لهم، ومن الحياء سلباً له منهن مُتَعاً جنسية(١) ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(٢) لمن آمن حتى يرجعوا كفاراً، وللنساء حتى لا يؤمنَّ ولا يؤمِّنَّ رجالهن في إيمانهم، وقد فعل فرعون هذه الفعلة وكاد هذه الكيدة ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ تلمح أنه ما نُفِّذ أمرهم كما أمروا، أم لم يهدهِم إلى مرادهم كما قرروا، فأصبح كيدهم في ضلال، وخاب سعيهم على أية حال، فإنهم ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ فتحول فرعون إلى استئصال محور الإيمان ومنبعه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾:

هنا يتفرد فرعون - الطاغية: رأس الزاوية - برأيه الخاص: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وهو بين من لا يرتئي رأيه كما يلمح من ﴿ذَرُونِىٓ﴾ وبين من يرتئيه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ فقتل الأبناء واستحياء النساء كمتفق عليه حيث ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ﴾ وقتل موسى مختلف فيه ﴿ذَرُونِىٓ﴾ و﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ

(١) وعلى الثاني الاستفعال هنا للسلب كما في موارد عدة.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

﴿وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[١] وذلك قبل إيمان السحرة، فأحرى بمنعهم بعد إيمانهم حيث الإرجاء هادف تبيُّنَ أمره وقد تبين، فقويت المعارضة في قتله.

وقد يختلف منعه قبل الحشر وبعده، فقبل تبيُّن أمره لا يُنهي قتلُه مشاكلَه أو يزيدها، إذ قد يوحي للجماهير بتقديسه والحماس له برسالته، وبعده إذ آمن به جماهير، ويتحذر الآخرون أن يستفحل أمره بقتله وقد آمن به السحرة، فقتله إذاً يزيد في حياته، وعلى أية حال «منعته رَشَدته»[٢] سياسياً أو مذهبياً.

واحتمال آخر في ﴿ذَرُونِىٓ﴾ أن لم يكن هناك من يمنعه إلا تأجيلاً ليتضح أمره، فإنما كان يَخاف مِن قتله بما رأى من آيات صدقه، ومن عدم قتله أنه يفشِّله في قومه كيف لا يسطع على سلطته أن يقتل موسى، فجمع بين الأمرين في قولته الماكرة ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ حتى لا يقال إنه ما تجرأ على قتله، وإنما منعه مانعٌ، وردَعه رادع من أهل نصحه وحاشيته!

وقد يلمح تلاحُق «اقتلوا وذروني» أن فرعون كان يرى قتل موسى والذين آمنوا معه جميعاً، فتكا بالرسول والمؤمنين استئصالاً لجذور هذه الرسالة، واستهزاءً بربه ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فإن كان ربه قوياً فلينْجِه في ذلك الصراع، ولماذا ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لأنه يسعى في الأرض فساداً فـ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ إلى دينه وهو أصل الفساد ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ تشكيكاً في دينكم، واختلافاً بينكم وتخلفاً فيكم.

ومن الطريف جداً حجة فرعون في ذلك التصميم الفاتك، وهو مكرور عبر الأجيال المتفرعنة أمام المصلحين على توالي الزمان ومختلف المكان،

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣٦.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥١٨ في كتاب علل الشرايع بإسناده إلى إسماعيل بن منصور أبي زياد عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول فرعون: ذروني أقتل موسى «ما كان يمنعه»؟ قال: منعته رشدته، ولا يقتل الأنبياء ولا أولاد الأنبياء إلا أولاد الزنا.

أن يُظهر الباطل الكالح في مظهر الحق الصالح، ويُظهر الحق في مَظهر المفسد الطالح، ليستجيش مشاعر الشعب المستضعفين ضد الداعية المصلحة، المطالِبة بحقهم من المستكبرين.

ترى بماذا يواجه موسى هذه الطاغية؟ إنه يواجه شعبه المحطمين المستغفلين بكلمة الحكمة:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾:

يستبدل قولة فرعون ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ بـ ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لكيلا يخيَّل إليهم أن ربه غير ربهم بل هو واحد لا شريك له رغم مزاعم المشركين، ولكي يعطف بهم إلى العوذ بربهم ممن عاذ به موسى ثم يعمم الاستعاذة ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ حيث لا تختص من فرعون، وهناك فراعنة عدة! ودرْجاً لفرعون إدراج سائر المتكبرين دون أن يحسب له حسابه الخاص، تذليلاً لسطوته، وكسراً لنخوته، يُظهر كأنه لم يسمع قولته، ولم يأهله للمخاطبة، ولا التحدث عنه بشخصه أمام الشعب، وما ألطفه حجاجاً صارماً أمام الفرعنة الجبارة، وما أعطفه للشعوب المستضعفة!. فـ ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لبس رداء الكبرياء من دون حق، ويزيده كبرياءً وعتواً أنه ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أنه لا حساب في قولته وفعلته، فهو يعيش الفوضى اللّاحساب، على حساب الكبرياء والجبروت.

ثم المُضِيُّ في ﴿عُذْتُ﴾ مؤكداً بالتأكيد الخاص «إني» مما يُطمئنُهم أن ربه وربهم يعيذه من كل طاغية، كما أعاذه منذ ولادته، ثم تَرعرعه في حجر فرعون، ثم قيامه برسالته، فذلك منه - إذاً - ملحمة غيبية تُعدُّ في عداد آياته البينات وكما قال الله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا

وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[(١)] ولحد الآن نرى غَلَبه على فرعون دون أن يصل إليه، حتى أصبح ملأ فرعون يمنعونه عن قتله وهم تحت سلطته وجبروته!

فيا لداعية الحق من سلطان لا يُغلب أمام فرعون الطاغية، وهو صفر اليد عن كل عِدَّة مادية وعُدَّة، ولا يملك إلَّا عوذة بالله أن ينصره على عدوه كما وعده ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

ولقد جرأ موسى بحجته الصراح مؤمناً يكتم إيمانه حتى أبرزه مناصراً صارماً لموسى الرسول عليه السلام:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)﴾:

هذا الرجل نعم الرجل كل الرجل، وقد يحق له أن تُسمَّى السورة به «المؤمن» إذ أصبح ركن الدعوة المناصرة للرسالة الموسوية، حيث انتدب في هذه المعركة الصاخبة الدموية، انتدب يدفع عن موسى ويحاج فرعون وملأه بحجج ناصحة ناصعة، سالكاً فيه مسالك ومعرِّضاً نفسه لمهالك.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ﴾ لا يسمِّيه حيث الأصل في تبنِّي الشخصيات هو الرجولات بِسماتها وبَصماتها دون الأسماء، فسواءٌ أكان الرجل نبياً[(٢)] أم سواه، . . . . .

(١) سورة القصص، الآية: ٣٥.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥١٩ ح ٤٢ في أمالي الصدوق بإسناده إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى رفعه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي قال ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]. . . وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلي بن أبي طالب عليه السلام وهو أفضلهم.

أقول: حزقيل كان نبياً إسرائيلياً فلم يكن من آل فرعون، ولو كان هذا الرجل نبياً أياً كان لكان مذكوراً بسمة النبوة فإنها أعلى درجات الإيمان، والنبي لا يكتم إيمانه إذ لا تقية للأنبياء، ثم حزقيل ولد بعد موسى بقرون، فمن المستحيل إذاً كونه ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨]!

قبطياً[(١)] أم سواه، فالمحور الرئيسي هنا رجولته بإيمانه: ﴿مُؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ أتراه إسرائيلياً يكتم إيمانه من آل فرعون؟ وصحيح التعبير عنه «يكتم إيمانه من آل فرعون»! فقد كان من آل فرعون وقومه وكما يخاطبهم «يا قوم» وكان ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ دون آل موسى، فالمعنيان معنيّان: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ حتى رأى ضرورة التقية المعاكسة أن حفظ الإيمان تناصراً للرسول برسالته أوجب من حفظ النفس، وقد كان حفظ نفسه أوجب من إظهار إيمانه حين لم يكن بهذه المثابة، فلكل حال مقال، ولكل مقال حال[(٢)].

﴿وَقَالَ﴾ مستنكراً تصميمهم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ لا لشيء إلّا ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وأنتم لا تنكرون الله مهما كنتم به مشركين، فقد يعترف بربوبيّة الإله الأصل الذي يصدقه كل المتألهين، ثم لا يفتري عليه بشركاء، ﴿يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم﴾ على قوله ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فإن ربه هو ربكم مهما

(١) المصدر ح ٤٠ في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام مع المأمون في الفرق بين العترة والأمة وفيه قالت العلماء فأخبرنا هل فسر الله الاصطفاء في الكتاب؟
فقال الرضا عليه السلام: فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موطناً وموضعاً...
وأما الحادي عشر فقول الله عزّ وجلّ في سورة المؤمن حكاية عن قول رجل من آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ...﴾ [غافر: ٢٨] فكان ابن خال فرعون فنسبه إلى فرعون بنسبه ولم يضفه إليه بدينه وكذلك خصصنا نحن إذ كنا من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بولادتنا منه وعممنا الناس بالدين فهذه فرق بين الآل والأمة فهذه الحادية عشرة، وفي تفسير البرهان ٤: ٩٥ ح ١ القمي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال كان خازن فرعون مؤمناً بموسى قد كتم إيمانه ستمائة سنة وهو الذي قال الله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ...﴾ [غافر: ٢٨].

(٢) المصدر ح ٣٨ في بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام قال له رجل: إن الحسن البصري يروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من كتم علماً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار؟ فقال: كذب ويحه فأين قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾؟ [غافر: ٢٨] ثم مد بها صوته فقال: فليذهبوا حيث شاؤوا أما والله لا يجدون العلم إلا هاهنا ثم سكت ثم قال: عند آل محمد، وفي المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام: التقية من ديني ودين آبائي ولا دين لمن لا تقية له والتقية ترس الله في الأرض لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل.

أشركتم به ما لم يشركه هو، فقوله يوافقكم في أصل الربوبية، وتوافقه الفطرة وقد جاءكم بالبينات، فكيف تقتلونه، وما له من ذنب إلا مقالة حق ثابتة بالبينات!

وما يروى عن الإمام علي عليه السلام أن أبا بكر أشجع الناس وأفضل من مؤمن آل فرعون(١) تخالف كتاب الله، فآية الشراء تفضِّل علياً على الإطلاق: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾(٢) وهذه الآية تمدح مؤمن آل فرعون على كتمان إيمانه من قبل تقيةً وعلى إبرازه هنا تقية معاكسة للحفاظ على أهمَّ من نفسه.

ثم وعلى أسوأ الاحتمالات - لو شككتم في أمره رغم بيناته - ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ﴾ فقط ﴿كَذِبُهُۥ﴾ لا وعليكم ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم﴾ لأقل تقدير ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

أترى مدعي النبوة يجب أو يجوز تصديقه ولا يصلح قتله أو تكذيبه لأنه

---

(١) «الدر المنثور ٥: ٣٥٠ - أخرج البزاز وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي عليه السلام قال: «أيها الناس أخبروني بأشجع الناس قالوا: أنت؟ قال: لا قالوا: فمن؟ قال: أبو بكر، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخذته قريش هذا يحثه وهذا يبلبله وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال: فوالله ما دنا منا أحد إلّا أبو بكر يضرب هذا ويجاهد هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ثم رفع علي عليه السلام بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال: أنشدكم بالله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر خير من مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه».
أقول: لا تخفى المواقف البطولية الأفضل والأحرج من هذا بكثير لعلي عليه السلام ثم لعبد المطلب وأبي طالب وغيرهم في مناصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآية الشراء تكفي تكذيباً لهذه الرواية، وكفاها كذباً ذيلها «وهذا رجل أعلن إيمانه» أفمؤمن آل فرعون لم يعلن إيمانه حين قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] فليكن مثل أبي بكر، بل أفضل منه حيث الفرعنة الجبارة في عهده أخطر من المشركين زمن الرسول، ثم ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٨] كان تقية منه قبل هذا الموقف وكانت لزاماً عليه حفاظاً على نفسه، فلما انعكست التقية أبرز إيمانه مناصراً لموسى في موقف أحرج من موقف أبي بكر إن صدق حديثه!

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ والكذب في هذه الدعوة ينال المصدقين ويضلُّهم عن السبيل أكثر من الداعية، بل وله حظوته من الرئاسة الباطلة، وعليهم شقوتهم تحت نير الضلالة، ثم وعلى هذا الأساس لا يجوز تكذيب مدعي الرسالة حين لم يثبت صدقه ولا كذبه؟

كلا! حيث المورد هنا قطعي الصدق بيناته ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ تنازل في احتمال في فرض المحال، فالكذب هنا ليس في دعوى النبوة، بل هو في توحيد الإله وأهوال القيامة، فإن يكن الداعية كاذباً في أنباءٍ من النبوة وهو صادق في نبوته ببيناته، فكان لله شريك، ولم يكن هنالك حساب يوم القيامة، فلا يضركم بقاءه في دعواه، ولا تصديقه، فإنما هو لا سواه يحمل عبءَ كذبه، فلا عليكم قتله فإنَّ ﴿فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ حيث يفضحه ربه: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[(١)]! وموردها محمد ﷺ بعد ثبوت نبوته.

﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا﴾ حيث يجوز - لأقل تقدير - صدقه، تنازلاً عن واجب صدقه ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ في الأولى والآخرة، فطريقة الاحتياط - إذاً - ألَّا يُقتل ولا يكذَّب فإنَّ في تصديقه نفعاً بلا ضرر إلَّا عليه ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾!

وبهذه الحجة الباهرة يحتج الإمام الرضا عليه السلام على الزنديق الناكر للحساب، إذا لم يكن حساب فنحن وإياكم شرع سواء، لم يضرنا ما عبدنا، وإن كان هناك حساب فنحن الناجون وأنتم الهالكون، وهذه حجة أخيرة على من لا يصدق البينات.

ثم المشكوك في دعوى النبوة - إذا لا يملك حجة على صدقه وأنت لا تملك حجة على كذبه - لم يصح تكذيبه والفتك به إلَّا في أصل النبوة إذ لا

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦.

تصدِّق إلَّا ببيناتها، وقد ملكها موسى بتسع آيات، وأما فيما يخبر به من أخطار مترقبة فالحائطة العقلية تقتضي ترتيب آثار صدقه، وهكذا تكون أنباء الأنبياء إنذاراً عما يعدون.

فكيف يجوز قتل موسى الرسول ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ثم كيف يجوز قتله ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ - ومن ثم فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ سواء أكان مدعي النبوة وأنباءها الغيبية فـ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أم مكذب النبوة على بيناتها الصادقة فـ «إن أخذَ ربك لشديد»! ومن طريف هذا الحجاج تقديم احتمال الكذب للنبي سداً لعُجالة التكذيب إن قدَّم احتمال الصدق، وكما يقدّم الترديد لداعية الحق ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] دون «أنتم أو نحن...» وهذا منتهى النصفة في الحجاج أن يقدم المحاور لنفسه أسوأ الاحتمالات ثم يردها بلطف دون عنف.

وهذا منتهى المطاف في حجاج النبوات لمن لا يصدق أيّة بينات، أننا نفرض - على استحالةٍ - كذب صادق النبوة فيما يعد للأخرى، وحتى مع التغامض عن نبوته، فقضية الاحتياط - إذاً - ألّا يكذّب فضلاً عن قتله، حجة يقبلها كل ذي مسكة وحتى ذي جنة، ولكن حماقى الطغيان ليسوا ليصدقوا أية حجة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾:

خير حجاج من مؤمن آل فرعون وِجاه شر لجاجٍ من فرعون، يقول الداعية: ﴿يَٰقَوْمِ...﴾ كحجاج ثالث لا مردّ له لنصرة الحق ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ لأطول الزمن وعلى أية حال ﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ غالبين فيها

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

مستعبِدين، هذا يومكم ردحَ الامتحان ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ أنا وإياكم سواء ﴿مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ في يوم الله؟ ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ فهل ينصركم مُلككم اليوم ولا يأتي يومئذ إلّا بأساً على بأس حيث ارتكن على بؤس! ويقول الطاغية كلمتيه اللّاغيتين دون أن تحملا أية حجة إلّا لجاج استكبار، إنني حق وفوق الحق، فما أراه هو الحق لا سواه ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ دون ما يراه غيري أو تراه حجة وبرهنة وإنما ﴿مَآ أَرَىٰ﴾ ليس إلّا فـ«إني أنا ربكم الأعلى»! حيث ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾(١) فالرأي الحاسم الرشيد هو قتله سداً عن تغيير الدين وصداً عن الفساد.

إن الفرعنة الطاغية بأية صورة وعلى أية حال، تحاول ولا تزال أن تحمل الشعوب على ما تراه، فلا تسمح لأحد سواه في رأي سواه، ولا مصدراً ووليّاً في أمر إلّا إياه، والله الذي خلق السماوات والأرض يتبنّى أحكامه وأوامره على أوضح البراهين ما أمكن تفهُّمه للعالمين، ثم ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾(٢)!

داعية الحق يحمل الشوب على التدبر والتفكير وانتخاب الأصلح ابتداءً من نفسه، إن كان حقاً ببيناته فاقبلوه وإن كان باطلاً فارفضوه.

وداعية الباطل الطاغية ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ولا حق لأحدٍ أن يفكر فيما يرى إذ ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فكل ما يراه ويعمل هو هدىً ورشاد، وكل ما يراه ويعمله غيره هو ضلالة وفي غير سداد، لا يَسمحون لأحد - أياً كان - أن يظن أنهم خاطئون، ولا أن يرتئي إلى جوار رأيهم رأياً! وهذا هو معنى الطاغوت أن يجمع بين طغواه على الله وعلى عباد الله!

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

ذلك الاستبداد الأحمق باطل أينما كان، وفيمن لبس ملابس الإيمان وظهر بمظهر الإمام للمؤمنين، يستبد برأيه ويأخذ هو برهانه دون بُرهانه، سناداً إلى اجتهاده، سداً لباب العلم، وصداً عن أي حوار قد يخالفه فيما يرى، وهكذا استبداد طريق الجحيم.

لا يحق تأصيل الرأي واستئصال ما سواه من رأي، إلَّا - أولاً - لله وبرهانه معه، وكل قوله وفعله برهان، ثم لرسل الله صدوراً عن الله، ومن ثم للمعصومين من خلفائهم حيث يصدرون عنهم، ونراهم كيف يواجهون الشعوب بكل تواضع، وقد يُظهرون أنفسهم معهم مظهر المشاورين، وليوجهوهم إلى ما هم عليه من حق الوحي ببرهان لا قبل له.

نرى الداعية ينتقل إلى بيان مثال لبأس الله بعد أصل التحذير، دون أن يرد على شخص الطاغية كأنه عديم الوجود، ولأنه لم يأت ببرهان حتى يرد عليه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

هناك ﴿إِن جَآءَنَا﴾ يدخل نفسه فيما يجوز مجيئه، وهنا ﴿أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ حيث المؤمنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولأنه أمر واقع لا مردَّ له عن الكافرين وأن المتقين في مقام أمين، والأحزاب المتحزبة ضد الرسالات هم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من المكذبين، «إني أخاف عليكم مثل دأب» هم: عادتهم في تكذيبهم آيات الله، وعادتهم في جزائهم بما كذبوا[1] دأباً بدأب، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فإنه جزاء وفاق ما له من فراق، ويا له من دأب يخاف عليهم أصبح فيهم ركناً يمثَّل به سائر الدأب في

(١) في الدأب الأول إضافة المصدر إلى الفاعل وفي الثاني إضافته إلى المفعول أي دأب الله إياهم.

تـاريـخ الـكـذابـات: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[(١)]: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾[(٢)]!

ولماذا ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ﴾ واحداً لأنهم واحد بطبيعتهم وكيانهم، مهما كانوا أقواماً حسب واقعهم وكونهم، فكما الكفر ملة واحدة فقومه كذلك واحد هو الذي يتجلى فيه بأس الله، وهذا من بأس يوم الأولى، وإلى تطرُّق ليوم آخر من أيام الله وهو يوم التناد:

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾:

وما ألطفه ترتيباً رتيباً لإنذارهم من ﴿بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ وهو أقل تقديراً بأساً واحتمالاً، فـ«إن» تُشكِّك، والدنيا تخفِّف، وهو أقل الاحتمالات من «إن يك صادقاً فعليه كذبه» ثم يوم الأحزاب وهو أوسط تقديراً محققاً ثابتاً للأحزاب، ومن ثم اليوم الآخر يوم التناد! «يوم ينادي أهل النار أهل الجنة»[(٣)]، كما نتنادى نحن وإياكم هنا وأين تنادٍ من تنادٍ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٤)] والتناد بينهم وبين ربهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾[(٥)] ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾[(٦)] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٤.

(٣) نور الثقلين ٤: ٥١٩ ح ٤٤ في معاني الأخبار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يوم التناد يوم ينادي أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا﴾ [الأعراف: ٥٠].

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٠.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٦) سورة غافر، الآية: ١٠.

شَهِيدٍ﴾[١] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٢] ثم محاجة وتنادٍ بينهم ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ فهم في مثلث من التناد، بعد إذ رفضوا هنا صالح التناد ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

إنهم يتنادون قبل دخولهم الجحيم وبعده، عائشين هناك تصايحاً وتناوحاً لأصوات في زحام وخصام، يوليهم ويدبرهم خوفة وفراراً.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ عن شركائكم وعقائدكم وأعمالكم «مدبرين» عن ثالوثها فرأوا ولات حين فرار، مولِّين مدبرين عما كنتم له متولين وإليه مقبلين ﴿مَا لَكُم مِّنَ﴾ بأس ﴿ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ فإنه المنتقم هناك لا سواه، وله الملك لا سواه، فإنه الديان لا سواه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٣] إضلالاً يوم الدنيا بعدما ضلوا ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٤] وآخر يوم الآخر بعدما ضلوا عن صراط الجنة، ضلالاً عن ضلال، ينتهيان إلى ما ضلوا يوم الدنيا ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾!

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿يُوسُفُ﴾ هذا هو المعروف المسماة به سورته، اللامعة نُورته، وهذه الآية هي الفريدة تدليلاً على رسالته السامية قبل موسى وكأنه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[٥] رفيع المنزلة في رسالته، يتلو تلو مَن دارت عليهم الرحى وعلّها

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٧. (٢) سورة القصص، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٣. (٤) سورة الصف، الآية: ٥.

(٥) «المصدر ح ٤٥ المجمع عن كتاب النبوة بالإسناد عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت: فكان يوسف رسولاً نبيا؟ قال: نعم أما تسمع قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤].

قريبة إلى موسى زمناً كما تلمح له ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ وقد عرفنا من سورته أنه بلغ في ثورته مبلغ الملك أم كبير وزرائه، وعلى أية حال حصل على مكانة عظيمة في مصر حد كان له عرش ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾(١) وهو - على جمعه بين السلطة الروحية والزمنية - ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ ومعه بيناته في سلطتيه، واستمر التشكُّك ﴿مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ مات عن رسالته على حالته ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ استراحة لموتته وارتياحة لهلكته، فانطلاقة عن الشك في رسالته إلى تأكُّدٍ من انقطاع الرسالة: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ فـ «لن» هذه كانت كامنة في قلوبكم متحولة إلى شك لردح السلطة الكائنة، ثم تحولت إلى ما كانت، فأنتم أولاء الحماقى الصَّلِتين الصَّلِدين في الكفر و﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ يرتاب في البينات ويسرف في ارتياب، ومن خلفياته أن يضله الله ختماً على قلبه.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إبطالاً لها وإخماداً لنائرتها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أياً كان وأيان «كبر» ذلك الجدال الإبطال ﴿مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لبينات آياته حين تكذَّب بغير سلطان ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حين تُكذَّب على علمهم وبمحضرهم ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فلا فسحة لقلبه ولا مجال لنور المعرفة ولا شطراً قليلاً ليصبح منفذاً لرؤية الحق حيث الطبع ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ طبعاً شاملاً لا يبقي على أثر، وسداً كاملاً لا يرجى معه أي مفر، فواويلاه إذا ختم الله على كلِّ القلب ولات حين مناص ولا منفذ لخلاص!

وهذه الآية اليتيمة بين آيات الختم، حيث تعممه على كل القلب، ولأنه في أسفل دركات الكفر والنكران من الإنس والجان! فالقلوب ثلاثة، قلوبٌ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

طامة بالنور، تامة في كمال النور، فكلها نورٌ دون ظلام فهي في أفضل الدرجات، وقلوب مختومة بظلمة لا مجال فيها لنور، فهي في أسفل الدركات، وقلوب هي عوان بين ذلك مهما اختلفت درجاتها بين مؤمن ومن يفتش عن إيمان.

أترى فرعون الطاغية يغيِّر رأيه بعد هذه الجولة الضخمة التي تأخذ بأزمة القلوب غير المختومة؟ كلَّا! ولكنه لا يرى بداً من ردة فعل غير التي أبداها لحدّ الآن، ولكي يغتر المتأثرون بدعوة الداعية، تظاهراً هو تظاهرة أمام المستضعفين بلون غير الذي كان حتى الآن أمام الداعية:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

الصرح هو العرش فقد يكون للجلوس عليه كـ ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾(١) وأخرى للصعود عليه تطلُّعاً إلى عالٍ وكما يطلبه فرعون من هامان، وهو برج عال كأعلى ما يمكن، خروجاً عن الأسباب الأرضية إلى أسباب سماوية، فكما في الأرض مَرْكَبات موصلة إلى أخرى هي أسباب للتنقلات الأرضية، كذلك للسماء، فهنا صرح يطّلع عليه على أسباب السماوات، ثم الركوب على مركبة سماوية، اطلاعاً على ما فيها من كائنات كامنة!

ولا يمكن الارتقاء في الأسباب إلَّا لمن يملكها علماً واقتداراً وكما يتحداه القرآن: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾(٢) أسباباً يقصر عنها العلم مهما جال جولته في السماوات والأرض، فهي إذاً

(١) سورة النمل، الآية: ٤٤.
(٢) سورة ص، الآية: ١٠.

أسباب خارقة للعادة، خفية إلّا لمن أطلعه الله، وكما أوتي ذو القرنين من كل شيء سبباً ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ... ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ... ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ...﴾[١] مهما كانت لنا أسباب تعمنا أم تخص الخصوص من علماء الأسباب روحياً ومادياً ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[٢].

فالعالم بأسره يعيش مثلث الأسباب وإنْ كان لكلٍّ أهلٌ، ولقد تسمَّع فرعون أن هناك أسباباً لارتقاء السماوات واشتهى أن يبلغ الأسباب ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ وقد خُيِّل إليه أنه ربُّ الأرض وبيده أسبابها: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ثم لم يجد في الأرض إله موسى فيبني صرحاً يُطلعه ليبلغ أسباب السماوات فيطلّع إلى إله موسى، كأنه كائن في السماء.

وقيلة القائل إن الله في السماء، فما كان يعرف فرعون مكانة إله موسى ولا مكانه إلّا تعريفاً من موسى فأخذ يطّلع إلى إله موسى في السماء؟ إنها قولة زائفة تزيفها تصاريح موسى حول الإله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٣].

فهذه سخافة الرأي من فرعون أن لو كان لموسى إله فلا بد أنه في السماء، إذ لا أرى في الأرض من إله غيري فـ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أن له إلهاً.

(١) سورة الكهف، الآيات: ٨٥-٩٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٢٣-٢٩.

وهكذا يموِّه الطاغية فيداور ويحاور علّه يجد مفراً من لُجَّة الحجة، ولكيلا يواجه الحق جهرة وصراحاً، ولا يعترف بوجوده فضلاً عن وحدانيته التي تهز عرشه وجبروته، فليس فرعون بالذي يفتش عن إله موسى، وعلى هذا الوجه المادي الساخر، اللهم إلَّا استخفافاً واستهتاراً من ناحية، وتظاهراً بالاطلاع إليه بأسباب السماوات من أخرى، فلذلك يخرف ويهرف فيما يحرِّف ويحرف، تطرقا بالمحال «أبلغ أسباب السماوات» وإلى محال آكد ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ ومَن ذا الذي يتساءله في تطلُّعه وتضلُّعه واطلاعه إلى ماذا؟ حيث الجواب سوف يكون: لم أطلع إليه، أم لم يكن فيما اطلعت، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ أن له إلهاً غيري، أم وجدت في السماء من يدعي أنه إله موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ إله موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ فتنتهي الحوار في كيده إلى ميده ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أن زينه الشيطان وعلّه أصبح أشطن من الشيطان! ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بما صدَّها عن نفسه فانسدت عليه ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ فقد كاد كيدَه كلَّه في الأرض وإلى السماء ولكي يدحض حجة الحق، ولكنه أصبح في تباب بعدما آمن السحرة كلهم أجمعون، وأغرق فرعون بجنوده أجمعين، غرقاً بكيده مرتين و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾(١)!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

هنا - وقد بلغ من كيد فرعون التوصل إلى أسباب السماوات - يستمر الذي آمن بحجته، كأن لم يتكلم فرعون بشيءٍ، استخفافاً به ولأنه لا جواب لهُرائِه، فإنما يعاكس قولة فرعون من قبل ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وأين رشاد من رشاد؟ هكذا يتحداه بكلمة الحق دون أن يهاب سلطانه والمتآمرين معه.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿إِنَّمَا﴾ تحصر ﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بأنها ﴿مَتَٰعٌ﴾ متاع المتعة الفانية، ومتاع التجارة الباقية(١) ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ فخذوا من ممركم لمقركم، ومن المتعة الفانية تجارة باقية لن تبور.

يبرهن هكذا مرشداً لهم بعد ما أثبت لهم بما أثبت وحدانية الله وحقانية اليوم الآخر، حيث النصيحة دون برهان لا تفيد الناكر.

ومن عدل الله تعالى يوم الحساب ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فإنها هي بملكوتها دون زيادة أو نقيصة، اللهم إلَّا بتوبة أو شفاعة أمّاهِيَه، وقضية المماثلة بين السيئة وجزائها أنه محدود كما هي فهو متناه كما هي متناهية! ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أياً كان ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ دون فارق بينهما إلَّا بصالح العمل، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حيث الإيمان ركن لصلاح العمل فهو دونه حابط ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾(٢) وإذا كان جزاء السيئة بحساب فثواب الحسنة بغير حساب، مهما كان لكل حسنة حساب في ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حيث الجنة من فضل الله ورحمته(٣) والنار من عدل الله ونقمته.

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣٥١ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: إن الحياة الدنيا متاع وليس من متاعها شيء خيراً من المرأة الصالحة التي إذا نظرت إليها سرتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٣) نور الثقلين ٤: ٥٢٠ ح ٤٨ في كتاب التوحيد حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات وأما قوله عز وجل: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: لقد حقت كرامتي - أو قال -: مودتي لمن يراقبني ويتحاب بجلالي أن وجوههم يوم القيامة من نور على منابر من نور=

وهذا هو سبيل الرشاد إيماناً وعملاً وعقيدة في صيغة موجزة سائغة لائقة بالداعية، تعريفاً بالدارين، وصورة جامعة من خلفيَّة الأولى للأخرى.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢﴾:

ولماذا ﴿مَا لِيٓ﴾ وليس العجاب إلَّا مما لهم من دعوة زائفة؟ لأن «ما لهم» واضح وضْحَ الشمس أنهم عاشوا هوامش الضلالة، مرتزقين وفي الإضلال، فليوجِّه السؤال إلى نفسه «ما لي» استحضاراً لحاله وما لَه من بيئة، فهل فيه ضلال كامن يدفعهم لدعوته إلى النار؟ وهو معلن بالحق في أشد الأخطار! فلا مطمع إذاً ولا مطمح في دعوته إلى النار، فليس إلَّا أنهم هم الضالون إلى ذلك الحد العجاب، أنهم يدعون داعية الحق إلى الباطل فإلى نار، وهذه الحالة البئيسة هي من خلفيات الطبع ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ ألَّا يحصر ضلاله في نفسه، بل ويُضل من يَضل ويحاول في إضلال من لا يَضل فهو في ثالوث الضلال المنحوس!

وكيف ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ ويعلم الذي آمن ألَّا شريكَ له؟ وهو مجاراة مع المشركين أنني وإياكم لا نعلم - لأقل تقدير - أن لله شريكاً، حيث الآيات آفاقية وأنفسية ليست لتدل له على شريك، ولا أنه أوحى إلى نبي من أنبيائه أن له شريكاً، واتِّباع غير العلم محظور في كافة الحقول لدى أصحاب العقول، وأنا أدعوكم إلى ما تقتضيه العقول، وأنتم تدعونني إلى ما ترفضه العقول، أنتم تدعونني ﴿لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ به وبتوحيده ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ وأين دعوة من دعوة!

= عليهم ثياب خضر قيل: من هم يا رسول الله ﷺ؟ قال: قوم ليسوا أنبياء ولا شهداء ولكنهم تحابوا بجلال الله ويدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب نسأل الله أن يجعلنا منهم برحمته.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: لا بدَّ حقاً دون ريب ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ من طواغيت وأوثان ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أترى كيف لا دعوة للطاغية في الدنيا وقد وصلت لحد تدعو دعاتُه الذي آمن وهو في قمة الإيمان، والدعوات والدعايات الطائلة المزخرفة للطغاة تملك من كل وسائل الإعلان ما لا تملكه دعاة الحق، مهما لا يملكون دعوة في الآخرة.

علَّ ﴿دَعْوَةٌ﴾ تعم دعوة منه كهذه ولا تُحسب بحساب إذ لا تملك أية برهنة، فليست هي حقاً بدعوة فـ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ...﴾[1] لا سواه.

ثم دعوة من أنبياء، ولم يعهد دعوة من صاحب رسالة ببيناته لطاغوت أو وثن، بل وهم مجمعون على توحيده ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[2].

فهم - إذاً - آلهة دون رسل داعية! ومن ثم ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ تستجاب أن تنفَّذ أوامرهم كما الله، إذ لا يملكون في الكون تغييراً ولا تحويراً في كلمة نافذة ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3] وأخيراً لا يقدرون على إجابة دعوة ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾[4] ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[5].

ففي مربع الدعوة لا تجد لهم ضلعاً ضليعاً إلّا ضئيلاً من دعوة باطلة لا

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.
(٣) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٤) سورة فاطر، الآية: ١٤.
(٥) سورة الرعد، الآية: ١٤.

تملك أي برهان، فليست هي أيضاً بدعوة، فهل تجد إلهاً دون دعوة في الدنيا وهي تجواله، وبأحرى ﴿وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ فالمُلك يومئذ لله ولا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن وقال صواباً، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ دون الآلهة التي ليس لها دعوة ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في نكران الحق ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لا سواهم مهما دخلوا النار بكبيرة موبقة ثم يخرجون، فأصحاب النار هم الآبدون في النار.

وهذه جولة أخيرة في حجاج الذي آمن وجاه اللجاج العارم من آل فرعون فأصبحوا في ارتجاج، ولا سيما في ختامها حيث يخبرهم عن مستقبلهم أسفاً على ماضيهم وحالهم ولات حين مناص:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤)﴾:

لم يبق عليّ بعد هذه الحوار من شيء ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ هنا وفي الأخرى ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ولا تنفعكم الذكرى ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ﴾ في مكرهم عليّ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ فلا قوة إلّا بالله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ بصير بمن يدعو إليه ما أمكنه لحدِّ الخطر على نفسه ونفيسه، وبصير بمن يصر في إنكار واستكبار، فلا بد وأن ينصره عليهم وكما فعل، فقد كان هناك تخاوف، إخافة من آل فرعون وإجابة عنها بـ﴿فَسَتَذْكُرُونَ . . . وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ. . .﴾.

وترى ما هو الأمر الذي يفوِّض إلى الله، ولا تحمله إلّا هذه الآية في سائر القرآن؟

﴿أَمْرِيٓ﴾ لا تعني كلَّ أمر، فإنما هو أمر الحياة في خطورتها عقيب هذه الدعوة الصارمة وليس بيده، وأمر الدعوة حيث بلغت إلى آخر المطاف فلا حول له ولا قوة إلّا كما فعل، فليس هو أمر التكليف أن ينسحب المكلف عن أمره وهو في استطاعته فيفوضه إلى الله، ولا الأمر الذي ليس

منه ولا إليه مما يختص بالله فإنه كله لله ليس لأحد فيه أمر سواه، إذاً فهو أمرٌ بين أمرين، أن يواصل في تحقيق ما حمِّل كما يستطيع، ويفوض أمره إلى الله فيما لا يستطيع، اقتساماً لأمره بين أمرين، مهما كان متوكلاً عليه في كلا الأمرين، فليس التفويض - وهو الرد - إلَّا بعد تقويض، دون الأمور المستطاعة المحولة إليك، ولا غير المستطاعة المستحيلة عليك، فلا رد فيهما إلى الله، إلَّا فيما لا قوة فيه إلَّا بالله وقد حول إليك.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ﴾ هذا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا سواه ولا فوضى جزاف فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ حيث يأمرهم بما لا يستطيعون إنهاءه وإكماله، فأنا قد عملت بواجبي كما أُمرت، ثم الله يكفيه فإنه الكافي لا كافي سواه.

فقد يريد الله أن أُقتل دون دعوتي ولكي أفوز أنا وتفوز دعوتي، كما قُتل الكثير من دعاة الحق دون دعوتهم إلى الحق، أم يريد الإبقاء عليَّ تعجيزاً لعدوي، أم وإفناء عدوي بعدي وهم ينظرون، وأنا فائز على أية حال ما لم يمسوا من كرامتي إضلالاً لي أو انتقاصاً من إيماني.

إذاً فليس كل من يفوض أمره إلى الله، في دعوته إلى الله، يضمن بقاءه فيها، وإنما المضمون - إذاً - الحفاظ على إيمانه، والإبقاء على دعوته مهما قضي عليه في شخصه وكثيرٌ ما هم، وهناك قلة قليلة كإبراهيم ويوسف وآل موسى وجاه آل فرعون: «والمفوِّض أمره إلى الله في راحة الأبد والعيش الدائم الرغد، والمفوض حقاً هو الفاني عن كل همة دون الله تعالى كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: رضيت بما قسم الله لي، وفوَّضت أمري إلى خالقي كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي...»(١) «والمفوض لا

---

(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: المفوض... كذلك يحسن فيما بقي قال الله عزّ وجلّ في المؤمن من آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: ٤٤-٤٥] والتفويض خمسة=

يصبح إلا سالماً من جميع الآفات ولا يمسي إلّا معافاً بدينه»[١].

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾:

ظاهر إطلاق الوقاية هنا خلاف الرواية[٢] أنه قتل، حيث الحَوْق بآل فرعون هو غرقهم لمَّا لاحقوا آل موسى، والتفويض إلى الله وقاية لكل مَن مُكرَ به في سبيل الحق[٣].

إن ﴿مَا مَكَرُوا۟﴾ تشمل ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فضلاً عمن معه، وإضلال الذين آمنوا معه، ومن سيئاته قتله وإضلاله إذ خاض في حواره الصارم مع موسى بين الجماهير المحتشدة ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ تشمل من السيئات هذه وتلك - إذاً - فما قتلوه رغم ما مكروا ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ بدلاً أن يحيق به سيئات ما مكروا!

= أحرف (ت ف و ي ض) لكل حرف منها حكم فمن أتى بأحكامه فقد أتى به «التاء» من تركه التدبير في الدنيا و«الفاء» من فناء كل همة غير الله تعالى و«الواو» من وفاء العهد.

(١) المصدر.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٢١ ح ٥٢ محاسن البرقي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥] قال: أما لقد سطوا عليه وقتلوه ولكن أتدرون ما وقاه وقاه أن يفتنوه في دينه ورواه مثله في الكافي، والقمي: فقال أبو عبد الله عليه السلام: والله لقد قطعوه إرباً إرباً ولكن وقاه الله عزّ وجلّ أن يفتنوه عن دينه.

(٣) المصدر عن كتاب الخصال عن الصادق عليه السلام قال: عجبت لمن يفزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع - إلى قوله -: وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤] فإني سمعت الله تعالى يقول بعقبها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾.

وتصديق الوعد و«الياء» اليأس من نفسك واليقين من ربك و«الضاد» من الضمير الصافي لله والضرورة إليه... أقول: و(٣) الثانية ذيل الحديث.

وقد لا يكون قتله في سبيل دعوته من سيئات ما مكروا، فإنه من حسناته في حساب الله حيث الشهادة في سبيل الله كرامة ما فوقها كرامة!

وسوء العذاب هو العذاب السوء، وكل عذاب سوء، ولكنه كان سوء على سوء إذ غرقوا حينما تراءى الجمعان فأدخلوا ناراً فور غرقهم وهذا من سوء العذاب.

﴿وَحَاقَ﴾ نزل وأصاب ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون ومن معه ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ حرق بعد غرق، فـ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ترى أنه عرض دون دخول؟ ولماذا ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ولا رياحة في النار ولا تخفيف؟

العرض عبارة أخرى عن الدخول كحالة خاصة منه كما يعرض اللحم على النار لنضجه ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾(١) وقد يلمح أنهم متاع يعرض على النار وهي تشريهم كما شروها أنفسهم من قبل، فهم متاع النار، ثم ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ دليل أنها نار البرزخ، لا لأن القيامة ليس لها غدو وعشي، فإنما لاختصاص العذاب بهما، ورياحة بينهما، ولا راحة ولا مهلة لأهل النار الأخرى في النار، ودليل ثان ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ فهذا - إذاً - شديد العذاب، ومن ثم أشده، ولأن الأشد هناك مطلق بين أهل النار - فهم - إذاً - في الدرك الأسفل من النار فـ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾(٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾(٣) وتخفيفه بين كل غُدوٌ وعشي هو تخفيف العذاب أياماً فوق يوم! ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٤) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾(٥) لا تخفيفاً عن نفس العذاب ولا عن خلوده ولا عن فواصل بينه وإن كانت ساعة وأدنى

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠.
(٣) سورة غافر، الآية: ٤٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٢.

وكله تخفيف للعذاب، و﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(١) وكفت نار الخلد نضجاً للجلود لآنٍ مّا، فإذا نضجت غدواً ثم ظلت ناضجة دون تبديل إلى العشي نقض العموم المستغرق للأزمان في «كلما»... إذاً فهي نار البرزخ دون ريب إذ لا توافقها مواصفات نار الخلود.

ولو أن عرض الغدو والعشي هو في نار الآخرة إذاً «فهم من السعداء»(٢) ولولا أن عرضهم هو دخولهم فما تعني ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾(٣) وهي نار البرزخ لغرقى نوح كما تلك ناره لغرقى موسى(٤)!.

فهذه الآية - إذاً - هي في عداد الآيات البرزخية، وهي مع آية نوح (٢١) تعذِّب آل فرعون كآل نوح في نار البرزخ الكامنة في الماء، وكيف بالإمكان وجود نار في الماء تُحرق؟ لأنها نار برزخية وهي في أعماق المواد

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٢٢ ح ٥٦ القمي قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام ما تقول في قول الله عزّ وجلّ : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾؟[غافر: ٤٦] فقال أبو عبد الله عليه السلام : ما يقول الناس؟ فقال: يقولون إنها في نار الخلد وهم لا يعذبون فيما بين ذلك فقال عليه السلام : فهم من السعداء فقيل له جعلت فداك فكيف هذا؟ فقال: إنما هذا في الدنيا فأما في نار الخلد فهو قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

(٣) سورة نوح، الآية: ٢٥.

(٤) المصدر ح ٥٨ في الكافي بإسناده عن محمد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن أرواح المشركين فقال: في النار يعذبون يقولون ربنا لا تقم لنا الساعة ولا تنجز لنا ما وعدتنا ولا تلحق آخرنا بأولنا ورواه مثله عنه عليه السلام عن أبي بصير.

أقول: لعل عرضهم على النار إدخال في نار البرزخ وعرض الاراءة من بعيد على نار الآخرة وكما في الدر المنثور ٥ : ٣٥٤ أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده من الغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة، وزاد ابن مردويه ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ثم المقصود من الدنيا قبل القيامة حيث البرزخ في موازاة الدنيا.

الدنيوية كامنة، فكما أن البدن البرزخي يختلف عن الدنيوي، كذلك ناره وجنته، فهما كامنتان في مكامنهما من مواد دنيوية، يظهرهما الله لأهليهما في البرزخ دون أن تظهرا لأهل الدنيا إلَّا لمن «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

فالبرزخ بناره وجنته عالَم كامن في عالمنا، لا يراه إلا أهلوه، وكما النار كامنة في كافة الذرات لا يحرِّرها إلا كاشفو الذرة لحدٍّ مَّا، ونحن نعيشها في موادنا كلها، من ماء وثلج أمّاذا؟

وهل إنَّ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ في البرزخ تعنيهما فيما نعيشهما هنا؟ أم فيه غدوٌّ وعشي كما يناسبه وكما في الحياة الأخرى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ . . . وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(١) تقرر للأخرى غدواً وعشياً كما للأولى مهما اختلفتا.

إنهما للبرزخ ليسا قطعاً ما للأخرى ولمَّا تأت، فقد يكونان وفقاً لما للأولى وهو الأولى، إذ لا شمس للبرزخ تخصه، اللهم إلَّا أن يعنيا طرفين لواحد الزمن في البرزخ حيث يختلف عما للأولى، اللهم إنا لا نعلم إلَّا ما علمتنا، وما هو هاهنا إلَّا ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أو أنهما ما يوافق الأولى في البرزخ حتى إن لم يكن فيه غدوٌّ وعشي.

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٦١، ٦٢.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ
(٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا
مِّنَ ٱلۡعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ
بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنصُرُ
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ (٥١) يَوۡمَ لَا
يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٥٢) وَلَقَدۡ
ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ (٥٣) هُدٗى
وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٥٤) فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ
لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (٥٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا
كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ
(٥٦) لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨)
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ
(٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ
عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾

محاجة أهل النار عذاب فوق العذاب، إذ لا تبوء إلّا إلى تباب، حسرة على حسرة وبواراً فوق بوار في النار: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ الضعفاء والذين استكبروا ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ القاصرون عن تقصير، المقصرون في حياة التبعية حيث تناسوا استقلالهم، فاستُغِلُّوا لمَّا لم يستقلوا فعاشوا أرذل حياة وأعضله وهي حياة التبعية الهامشية للمستكبرين، فأصبحوا أداةً لافتعالاتهم، آلاتٍ لتحقيق شهواتهم، دونما حظوة لهم أنفسهم إلّا قليلة متبقيَّة على هوامشهم، عبيد مرتزقة، في حياة العِمالة الجهالة، وهم يحسبونهم معذورين حيث استُضعفوا ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ كما أغنينا عنكم نصيباً من حياة العار والدمار، نصيباً بنصيب والله من ورائنا حسيب، فيسمعون الجواب الحاسم الجازم ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ فلا حكم لسواه إذ لا حاكم هنا سواه؟ حاكم عدل في ذلك العِدل.

وهل ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾ هنا يخص آل فرعون لسابقة حالهم؟ علَّه نعم فإنهم المخصوصون بذكرهم، أو يعم سائر الكفار حيث المحاجة بين الضعفاء والذين استكبروا وهم أعم من آل فرعون مهما كانوا أنحس مصاديقهم، فالمورد لا يخصِّص حتى لو كانوا هم المورد؟ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ. . .﴾ بعدها يؤيد العموم، ومنطق الآية نفسها منطق العموم! فهي - إذاً - محاجة بين ضعفاء التاريخ ومستكبريهم: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[(١)].

و﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ هنا لا تعني كل الضعفاء، وإنما المقصِّرون في قصورهم وأتباعهم، دون المستضعفين ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ...﴾[١] فضلاً عن مستضعفي المؤمنين فإنهم ليسوا ضعفاء في ذوات أنفسهم وأفكارهم مهما استُضعفوا في حركاتهم وسكناتهم وبظاهر حياتهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ...﴾[٢].

بل هم الضعفاء المستضعفون ﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٣]. فما لم يكن ضعيفاً في نفسه لا يُستضعف في دينه، بل يتبلور إيمانه مهما استضعف إلّا الضعيف القاصر غير المقصر.

إن الضعفاء المقصرين تنازلوا عن كرامات الله وتغافلوا عن كرامة الإنسانية المستقلة الحرة المختارة، وانساقوا انسياق الشياه وراء المستكبرين والطغاة، ولم يسمحوا لأنفسهم أن يقولوا «لا» اللّهم إلّا بلى في كل بلاءٍ لعناء أوردوهم فيها، ولا سمحوا أن يفكروا في هذه الحياة الرذيلة الهزيلة، زاعمين أن المستكبرين يُغنون عنهم في الأخرى كما أغنوا - فيما خيِّل إليهم - في الأولى، فجاء الجواب حاسماً لأوهامهم ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾[٤] لامحين إلى استحالة في هدى الله إذ لم يكونوا من أهلها، ولكن أضلنا الله فأضللناكم!.

وفي محاجة أخرى ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٥] فقد كنتم ضعفاء في أصل الإيمان فاستغللناكم باستضعاف على ضعفكم ظلمات بعضها فوق بعض.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.
(٥) سورة الصافات، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ فانّ كلنا ضعاف لا نقدر على شيء، فلا نجد لنا نصيراً ولا مصيراً إلَّا النار ولا يغنينا عنها شيءٌ إلَّا البوار، هنا ييأس الضعفاء عن الكبراء فينعطفون إلى خزنة جهنم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ في نفسها تعم الخالدين والآبدين وغيرهما، وتخفيف يوم من العذاب، يعني المستحق الذي لا يقبل العفو، مهما كان من الذين يخرجون عن النار بعد ردْح بعيد أو قريب من الزمن، ولكن الآية التالية تختصُّهم بالكافرين الناكرين للرسالات وللمبدأ والمعاد، فهم الآبدون في النار دون من يخرج فإنهم يستحقون تخفيف يوم وأيام من العذاب حيث مصيرهم الجنة والثواب.

ولماذا ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ لمكان البعد البعيد عن الرب وألَّا جواب لهم منه، ولذلك ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ دون ربنا أو رب العالمين، حيث انقطع عنهم عطف الربوبية بكفرهم.

و﴿يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ قد يعني زماناً مَّا ملموساً من العذاب، حيث المتقاضى في ذلك السعير الحارق البالغ، ومن أهل النار عالمين أنهم يستحقونها جزاءً وفاقاً، إنه ليس بطبيعة الحال إلَّا أقل زمان، فعلَّه واحدٌ من الزمن الأخروي أيّاً كان، فاليوم في القيامة بين أدنى الزمان وطائلها وبينهما عوان، ويعرف كلٌّ حسب القرائن، كمثل اليوم في الدنيا وبينهما البرزخ العوان.

وهنا لا جواب لأهل النار من خزنتها إلَّا التأنيب العتاب، تذكيراً بسبب الدخول في النار:

﴿قَالُوٓاْ﴾ ألم تك عندكم آيات من الأنفس والآفاق لكم فيها عبرة، فإن لم تكن أو لم تعتبروا ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ وترى معاصرو الرسل أتتهم رسلهم بالبينات فما بال الغُيَّب يعاتَبون بعتْبهم فيعذَّبون عذابهم؟ القصد من إتيان الرسل إتيان الرسالات ببلاغها وبلوغها، فما عاشت الرسالة بحَمَلتها رسولاً وكتاباً أمَّن ذا، فالحجة بالغة دامغة وإن كان الرسول قضى نحبه، كما قد لا تبلغ الرسالة والرسول حي يرزق، فالمدار على بلوغ الرسالة الحجة ببيناتها، وكلما كانت أقوى فناكرها أخزى في حياته أم بعد مماته - ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ قد أتتنا رسلنا بالبينات ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾ تعجيزاً في دعائهم ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ فكما عاشوا في حياة التكليف ضُلّالاً، فسوف يعيشون حياة الجزاء ضُلّالاً في دعائهم أمّاذا!.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾:

وعلَّ هذه هي سابق وعد الله وسابغه: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾[1] الذين آمنوا هم منصورون كما المرسلون، فهم جميعاً جند الله الغالبون! قاعدة صارمة مطردة طول التاريخ الرسالي دونما استثناء.

هنا تأكيدات أربعة لتحقيق ذلك الوعد «إنّ - نا - لـ - ننصر» اثنتان لجمعية الصفات وهي أقوى تأكيداً، والأخريان من أداة التأكيد.

وذلك تعقيب جاسم جازم يناسب الموقف الحاسم الباصم، أن جند الله غالبون ومنصورون من رسل ومؤمنين، لا فقط ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ بل و﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بينما نشاهد في تاريخ الرسالات أنهم بين شريد وجريح ومهتوك وقتيل ومكذوب من الأكثرية الساحقة بين المرسل إليهم، فأين - إذاً

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.

- وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ومن هنا يدخل الشيطان في النفوس ويتدسس ضعاف النفوس، ليحملهم إلى التشكك في صدق الوعد أو التكذيب بصادق الوعد.

ولكن المناسبة بين الحكم والموضوع تقضي أن النصرة هنا تدور حول موضوع الرسالة والإيمان، وهما أمران معنويان، والناس يقيسون بظواهر الأمور، وفي فترة قصيرة من الزمان وحيِّزة محدودة من المكان، ولكن فسيح الزمان ووسيع المكان بما فيهما زمن دولة القائم المهدي من آل محمد ﷺ يجعل الانتصار في المجموعة لـ ﴿رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في السلطة الزمنية إلى السلطة الروحية(١) مهما اختصت قبل ذلك الزمن بالأخيرة.

ولو نظرنا إلى بُعدي الرسالة والإيمان معها وبها، لرأيناهما تنتصران دون ريب، فأول ما تتطلبه منهم الرسالة ويطلبه صارم الإيمان أن يفنوا في سبيل تحقيقها حتى يُبرزوها بصورة أسمى وأقوى، ولكي يعلم الناكرون أنها أثمن عند أصحابها من كل قِيَم الحياة، فإنها كلها زهيدة ضئيلة أمام قضية الرسالة والإيمان!

إبراهيم يُلقى في النار ليلقي العقيدة ويلغيها، ولكنه لا يرجع عنها إلَّا في هزيمة قصيرة وانتصار كبير ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾(٢) فحتى لو أنه احترق كما الكثرة الكثيرة

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٢٦ القمي بإسناده عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا...﴾ [غافر: ٥١] قال: ذلك والله في الرجعة أما علمت أن أنبياء كثيرة لم ينصروا في الدنيا وقتلوا وأئمة من بعدهم قتلوا ولم ينصروا وذلك في الرجعة أقول: يعني مجموع النصرين وهو تفسير بأكمل المصاديق، وإلا فالنصر الروحي حاصل لهم على طول الزمن.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

من حملة الرسالات قُتلوا في هذه السبيل، فالمنتصر في سبيلها هو أصحابها، حيث لا يُقتل إلّا الرسل دون الرسالات، وهي تزدهر وتنمو بهذه التضحيات.

وسيد الشهداء الحسين بن علي صلوات الله عليهما يستشهد في تلك الصورة المفجعة، أتراه منهزماً في هذه المعركة؟ في الحق إنه منتصر على يزيد الطاغية، فإنه أبرز للأجيال مدى صمود الإيمان أمام أنحس الطغاة حيث لا يرحم رضيعاً، وأصبحت معركة العاشور مدرسة عالية في القمة لمواصلة الفداء والتضحية في سبيل الله، فقد نُصر هو والمؤمنون معه في سبيل هذه الرسالة السامية.

هنالك النصر على اللذات والشهوات والرغبات في طريق تطبيق الرسالات، صموداً صارماً حتى التضحية بالنفس والنفيس، وتقديم كل غال ورخيص، ولكي تبقى العقيدة، ويبقى الحق ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

أذلك هو النصر أم أن يبيع إيمانه بالثمن الأرخص الأركس: الحياة الدنيا بزهرتها وزهوتها؟

وفي كلمة قصيرة غير حصيرة إن نصر الله يُرى ﴿رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ في غَلَب الحجة حيث تغلبُ الباطلَ ولا تُغلب، والغَلَب في بينات الحق وزهوق الباطل، والغَلَب الكامل في العاقبة فإن ﴿الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وهي الدولة الأخيرة زمن القائم المهدي (عجل الله تعالى فرجه) حيث يرجع المرسلون والذين آمنوا إلى محض الإيمان.

ليس النصر للذين آمنوا في الحياة الدنيا إلّا إذا نصروا الله وهو محض

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾(١) و﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾(٢) ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٣) ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٤).

وأما الرسل فهم منصورون على أية حال مهما اختلفت صور النصر، فإن سِيَرها واحد هو انتصار الرسالة روحياً، وقد تنتصر زمنياً، حتى يتم لها الانتصار في الدولة الاخيرة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ...﴾(٥) انتصاراً لتداوم حياة الرسول، تكملةً للرسالة في القدر الذي قدره الله، وكما نصره الله بفتح مكة نصراً عزيزاً ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾(٦).

ولقد نُصر نوح بعد ردح بعيد من الزمن زمنياً بعد نصره على طول خط الرسالة روحياً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ...﴾(٧).

وفي إبراهيم ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾(٨).

وفي موسى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ

---

(١) سورة محمد، الآية: ٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٦) سورة الفتح، الآيات: ١-٣.
(٧) سورة المؤمنون، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٨) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٨-٧١.

ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾[1].

وفي عيسى ابن مريم: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ...﴾ ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ...﴾[2] ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[3].

ثم ولمن قَبلهم وبينهم وبعدهم من النبيين انتصارات توحِّدها غلبة الحجة بنصوع المحجة، وزيادات في سلطات زمنية ما قل منها أو كثر وحتى يأتي صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فهناك يتم الانتصار ويعم البسيطة وكل العالمين.

هنالك انتصار لهم في الحياة الدنيا ومن ثم ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ وهذا تعبير فريد في القرآن تسمى فيه القيامة بـ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ وما هي الصلة الوطيدة بينه وبين نصر الرسل؟ إنه سمة لجانب من القيامة وهو قيامة الأشهاد، حيث الأشهاد ينصرون الرسل والذين آمنوا في شهاداتهم في مربع الشهادة، وهي انتصار لهم فوق انتصار:

(١) سورة الصافات، الآيات: ١١٤-١١٩.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٥٤، ٥٥.
(٣) سورة النساء، الآيات: ١٥٧ - ١٥٩.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾:

حيث الأشهاد يشهدون عليهم دون إبقاءٍ فلا تنفعهم معذرتهم بل ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾(1) وترى إذا لا يؤذن لهم فيعتذرون، فكيف لا تنفعهم معذرتهم وهي تلمح أنهم يعتذرون؟.

لا يؤذن لهم نهي عن الاعتذار إذ لا ينفع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾(2) فعدم نفع الاعتذار على فرضه مهانة، وعدم الإذن فيه مهانة أخرى، خلاف جند الله إذ كان لهم انتصار فوق انتصار! ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ من الله والملائكة والنبيين والمؤمنين، وبالنتيجة ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ بما قدمت أيديهم، لعنة بما يقوم الأشهاد، وسوء الدار بما تقبل شهاداتهم عليهم، قدر ما أساؤوا في هذه الدار.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾:

وهذه جماع الرسالة الموسوية على طولها حيث ختمت بانتصارها، نموذجاً من نماذج الانتصار الرسالي، بعد صبر وانتظار:

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾:

يا حامل الرسالة الأخيرة وهي أثقل وأطول وأكمل من كافة الرسالات، عليك بالصبر الجميل الطويل ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أن ينصرك الله نصراً عزيزاً ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ وعليك في هذا السبيل الشاق الطويل المليء بالأشلاء والدماء، أن تستغفر لذنبك، لذنب الرسالة التي

(1) سورة المرسلات، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

(2) سورة التحريم، الآية: ٧.

تعيشها بأخطارها، والدوائر المتربصة بها حتى يغفرها ويسترها عما يمسها بسوء وكما غفر الله بما فتح مكة نصراً زمنياً إلى روحي، ومن قبل منذ الرسالة من الناحية الروحية.

وإن تستغفر لذنبك: السيئات التي تعترضك قضيةَ السلطة الزمنية، وكذلك الروحية، أن تدفعها عن ساحتك قبل أن تدنِّسها، بكل ما تملك من إمكانيات، وتفوض أمرك إلى الله فيما لا تسطع على دفعه حين تُقوِّض ظهرك، فتصبح في مثلث الاستغفار عن ذنبك، في العصمة المطلقة الإلهية وقمتها، ولا رابع له من ذنب مقترف وعصيان حيث الساحة الرسالية بريئة عن كل عصيان، فضلاً عن رسول الرسل وسيدهم ﷺ!

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لا تسبيحاً فقط ولا حمداً فحسب، وإنما تسبيح بالحمد، أن تصفه كما وصف به نفسه، وتنزهه عن صفات المخلوقين، وعن زيادة الذاتية منها على ذاته أو تركُّبها، ومماثلة غير الذاتية منها لسواه تعالى، فقولك «عالم» تعني منه «لا يجهل» - ولا أن «علمه كسائر الخلق» فلا نحيط بعلمه شيئاً ولا ندرك منه كما هو شيئاً. وهذا تسبيح بحمده، وأما حمده دون تسبيح به فقد ينجرف إلى إثبات صفات تشبه صفات المخلوقين أمّا ذا مما لا يليق بساحة رب العالمين.

﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ وهل إنهما فريضة الفجر والعصر[1] حيث السورة مكية والفرض في ردح من العهد المكي كان لهما؟ ﴿وَسَبِّحْ...﴾ أمر باستمرار الفرضين حتى يأتي أمر الله لا أنه بدايتهما؟ حيث الصلاة بادئة بدء النبوة والآية بسورتها نازلة ردحاً بعد النبوة!

أم إن العشي والإبكار كليل نهار تعني الوقت كله، وقد ذكر طرفاه

(١) الدر المنثور ٥: ٣٥٢ - أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: صلاة الفجر والعصر.

لأنهما أهم الأوقات للذكر والذكرى في مجموع الليل والنهار، نيامة في العشي وإفاقة في الإبكار، ففي إفاقة الإبكار مثال للحياة بعد الموت، وفي نيامة العشي مثال للموت بعد الحياة، فهما وقتان لهما أهميتهما للذكرى؟

أم إنهما تعنيان أوقات الصلاة كلها[(١)] وقد ذكرا بينها كأهم الصلوات والأوقات، والقصد إلى الصلوات المفروضات في مجموعة الليل والنهار؟

التسبيح بالعشي والإبكار مكرور في آيات مدنية: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[(٢)] ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾[(٣)] وكما في أخرى - مثل هذه - مكية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾[(٤)] اثنتان باثنتين، في إبكار مرتين وغداة مرتين والعشي في الأربع كلها، فلا نحتمل أنهما الفرضان حيث الخمس فرضت قبل المدنية بردح من الزمن.

ثم للاحتمالين الآخرين مجالٌ، والخمس المفروضات تشترك فيهما، فإما أن تعنيها الآية بخصوصها، أم في عموم التسبيح وهي أهمه![(٥)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾:

ليس جدال هؤلاء الحماقى انتصاراً لهم على الرسالة الإلهية، فإنه ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ وهو يعم نفي أي سلطان، كالذي يجادل دون أي

---

(١) المصدر أخرج ابن المنذر عن الضحاك في الآية قال: صل لربك بالعشي والإبكار قال: الصلوات المكتوبات.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

(٥) راجع تفسير الآيات الثلاث الأخرى في محالها.

برهان، أم بسلطان الباطل: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[1] وكلاهما سيان في أنهما ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾.

هؤلاء الطغاة لا يجادلون في آيات الله بسلطان قاطع ولا ريبة أو شك هما في سبيل تحقيق الحق وإبطال الباطل، حيث الشك في هذا السبيل شك مقدس، فليس في صدورهم واحدة من هذه العاذرة ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ متناسين أنفسهم ومتجاهلين أنهم مهازيل ضعاف، لا حول لهم ولا قوة إلّا بالله، لذلك فهم يتنفخون ويتنفجون في تشامخ وتعالٍ وحتى على الله وآياته و﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ كبر في صدورهم خُيِّلَ إليهم، يهدفون إلى بلوغه في واقعهم أمام آيات الله و﴿مَّا هُم﴾ على أيَّة حال، وفي أي حِلٍّ وترحال وبأية وسيلة وإدغال ﴿بِبَٰلِغِيهِ﴾ فإنهم داحضون بكبرهم وبحجتهم أمام حجج الله، ومتى رأيت في تاريخ الرسالات أن يبلغ مناوئوها بكبر في صدورهم، يبلغوا دحضها وإيحائها إلّا دحض أنفسهم وفضحها ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من كيد هؤلاء ومَيْدهم حين يحاولون تضليل المستضعفين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ مقالَكم ومقالَهم ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأحوالكم وأحوالهم، فإنه ينصر حقه ويهدر باطلهم.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾[2]؟ بل هي أكبر وأشد من خلقهم مهما كان الإنسان أحسن تقويماً! وليس الأكبر والأشد في الخلق في ميزان الله، فكل خلق له هين، إنما هو في ميزاننا، ولمَّا يقيس الإنسان نفسه إلى السماوات والأرض وهما مجموعة الكون، يطامن من كبريائه متصاغراً متضائلاً، إلّا أن

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٧.

يذكر خلقه ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[1] وليس إلَّا في استعداده القمة للإيمان القمة حيث الكافر في أسفل سافلين! ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهم الأكثرية الكافرة بالله، المكذبة بآيات الله، فلأنهم ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ متجاهلين متغافلين فـ ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ ولكن ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾:

الأعمى والبصير مثلٌ للجاهل والعالم، والآخران للمؤمن الصالح وسواه، ولماذا ﴿وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ بدلاً عن «ولا الذين آمنوا» علّه يعني نفي المساواة بين أفراد ﴿ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ بعد نفيها بينه وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بحذف اللّا فيهم عطفاً على ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ...﴾ فقرينة العطف ونفي الاستواء بين المسيء تكفيان دلالة على حذف اللّا عن الذين آمنوا.

فهناك سلوب ثلاثة في الاستواء ثالثها بين أفراد المسيءِ المنقسم إلى المسيء إيماناً وعملاً فأسواهم، والمسيء إيماناً لا عملاً حيث يمكن فسيِّئهم، والمسيءِ عملاً لا إيماناً فأقل سوءاً، هم لا يستوون عند الله، كما لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع مثلث المسيء، وتشبهها ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾[2] وقد مضت، واللّااستواء في مطلق الحسنة يعني حسنة الإيمان والعمل الصالح مفرداً وجمعاً، وهنا جمع بينهما، فالاستواء حاصل بينهم لحدٍّ ما مهما اختلفت درجاتهم ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٩﴾:

وهذه الأكثرية بين من يعلم ثم يجحد ولا يؤمن ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ

(١) سورة التين، الآية: ٤.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

﴿أَنفُسُهُمْ﴾[١] ومن لا يعلم متجاهلاً حتى يجهل رغم توفر البراهين على أنها آتية لا ريب فيها، فلأن ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعم «لا يعملون» و«لا يعلمون»، لذلك يؤتى به دون «لا يعلمون» إضافة إلى أن توفُّر البراهين عليه لا تفسح مجالاً لـ«لا يعلمون» إلَّا تجاهلاً مهما بلغ حد الجهل، فإنه جهلُ مَن يعلم! ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢] الجهلُ ولا سيما المركبُ منه - مصدر البليات كلها، فالجاهل يسيءُ إلى نفسه وإلى ذويه، ويحسب أنه يحسن صنعاً فهو من الأخسرين أعمالاً.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

ترى ومتى قال ربكم... فهل هو قاله هنا ﴿ادْعُونِي...﴾؟ وهذا مستقبل و«قال» ماض! أم هو قاله في آية المضطر: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾[٣] ولكنها مكية كما هي، إلّا أنها علَّها نازلة قبلها، لكنها تعد إجابة المضطر دون أمر بالدعاء! أم إنه آية الفرقان المكية: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[٤]؟ وحقاً إنها هيه إذ تحوي ما تحويه، وتعني ما تعنيه، ولكنها ليست دلالة المطابقة، إلا تضامنية بدقة!

أو أنه قالُه في أم الكتاب ومحكمه، يقوله هنا في تفصيل الكتاب؟ أم إنه جماع آيات الدعاء مكية ومدنية؟ وعلى أية حال ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ لا ريب أنها قول ربكم!

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٦.
(٣) سورة النمل، الآية: ٦٢.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

و﴿رَبُّكُمُ﴾ هنا دون صيغة أخرى: الله - ربي - رب العالمين، لمناسبة الدعاء عبادةً واستدعاءً فإنه أمر تربوي يعم عباد الله المؤمنين.

وهل أن ﴿ادْعُونِي﴾ أمر بدعاء الاستدعاء حين الحاجة والبلاء؟ لمكان ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وشطر من آيات الدعاء: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[1]؟

أو أنه أمر بدعاء العبادة لمكان ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ وشطر آخر من آيات الدعاء: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[2] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[3] ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾[4].

أم إنه يعنيهما لشطري الآية ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... عَنْ عِبَادَتِي﴾ وشطري آيات الدعاء، وأن دعاء الاستدعاء لِزامه دعاء العبادة من قبل فـ«الدعاء تلو العبادة»[5] فلا يُستدعى إلّا من يُعبد ولا يُعبد إلّا من يُستدعى، والثانية شرط أصيل للأولى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[6] و«عهدي» هو عهد العبادة ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[7] و«عهدكم» هو الاستجابة! فـ«لو وفيتم لله لوفى لكم»[8] وكما أن دعاء العبادة عبادة كذلك

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الجن، الآية: ١٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٦.

(٥) الدر المنثور ٥ : ٣٥٥ بإسناد عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله ﷺ: الدعاء تلو العبادة ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ...﴾ [غافر: ٦٠] هل تدرون ما عبادة الله؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: هو إخلاص الله مما سواه.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(٧) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٨) نور الثقلين ٤ : ٥٢٧ القمي حدثني أبي عن محمد بن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله قال=

«الدعاء هو العبادة»[١] بل هي مخ العبادة، وكما الاستكبار عن عبادته كفر، كذلك الاستكبار عن دعائه فإنه مخ الكفر، وعلّ ﴿عِبَادَتِي﴾ تعني دعاء الاستدعاء كأصل بعد دعاء العبادة، وكأنها هي العبادة لا سواه، فإن حقيقة الدعاء هي حقيقة التعلق بالله والزلفى إلى الله وهي حصيلة العبادة، فهي - إذاً - مخ العبادة: يا رب «سميت دعاءك عبادة وتركه استكباراً وتوعَّدت على تركه دخول جهنم داخرين»[٢] صاغرين، «فلا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

وكما أن الدعاء تلو العبادة، كذلك العبادة والدعاء تلو المعرفة[٣] وكما تلمح له ﴿إِذَا دَعَانِّ﴾[٤].

«ادعوني» في دعاء الاستدعاء هنا ركن لمكان «أستجب» ولكنها تستصحب شرطها الأصيل: دعاء العبادة، ثم تتلوها «عبادتي» أنها دعاء الاستدعاء والافتقار، فالأخرس عن هذا الدعاء على حاجته على أية حال، ناكر لفقره وافتقاره إليه، وكافر بغناه.

وهل تعني «ادعوني» بلسان القال؟ وكثيرون يدعون ولا يستجاب لهم، وقليلٌ يدعون بلسان الحال وهم مستجاب لهم! أم تعني لسان الحال دون قال؟ والمقربون من عباد الله يدعونه بمقال مع حالٍ!

أم تعني لسان الحال ويبرزه المقال والأعمال، فالعناية إلى مثلث الدعاء

= له رجل: جعلت فداك إن الله يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وإنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم لا توفون بعهده وإن الله يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ. . .﴾ [البَقَرَة: ٤٠].

(١) المصدر أخرج ابن مردويه والخطيب عن البراء أن رسول الله ﷺ قال: إن الدعاء هو العبادة وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ. . .﴾ [غافر: ٦٠].

(٢) المصدر من أدعية الصحيفة السجادية وقلت ﴿ادْعُونِي. . .﴾ [غافر: ٦٠] فسميت. . .

(٣) المصدر ح ١٠٤ في كتاب التوحيد بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام قال: قال قوم للصادق عليه السلام: ندعوه فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

كأكمل درجات الدعاء، وهو الذي يضمن الاستجابة؟ وقد تعنيه آية البقرة ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾[1] فإن ﴿دَعَانِ﴾ بعد ﴿دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ لا يعني تكرار الدعاء، بل هو حقيقة الدعاء دونما شائبة، ظاهرة ناطقة عن الباطنة بلسان العمل والقال.

وإذا كانت الاستجابة مضمونة بعد الدعاء فما لنا - في الأكثر - لا يستجاب لنا؟[2]

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ و﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ وهما من وعده الصدق: لا يتحقق إلَّا على شروطه وفي زمنه الصالح، فإذا توفرت الشروط في دعائك فالاستجابة كائنة على أية حال، في حال أم استقبال: هنا أم في البرزخ أو الأخرى وهي أحرى وقد «يتمنى المؤمن أنه لم يستجب له دعوة في الدنيا مما يرى من حسن الثواب»[3] ولكنك قد تدعو غير صالحك، فالله أجل أن يغرك بجهلك صالحَك عن طالحك، وقد يعوِّضك صالحاً بدل ما دعوت من غير صالح وأنت لا تدري.

وقد تدعو وأنت غير صالح للاستجابة فكيف ترجو الإجابة؟

وقد تدعو ربك فيما خوَّله إليك أو ألزمه عليك، وليس الدعاء إلَّا فيما لا تسطَع أم لا تكفيه!.

وعلى أية حال ليس عدم الإجابة إلَّا لنقص فيك أو في دعائك أم هي مستقبلة قريبة أم غريبة، في دنياك أم أخراك، فثِق بما وعدك ربك واتَّهم نفسك في غير إجابة، أو انتظر مستقبلاً فيه الإجابة[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) المصدر ح ٩٢ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن المؤمن ليدعو الله عزّ وجلّ في حاجته فيقول الله عزّ وجلّ: أخروا إجابته شوقاً إلى صوته ودعائه فإذا كان يوم القيامة قال الله عزّ وجلّ: عبدي! دعوتني فأخرت إجابتك وثوابك كذا وكذا دعوتني في كذا أو كذا فأخرت إجابتك وثوابك كذا أو كذا قال فيتمنى المؤمن...

(٣) نور الثقلين ٤: ٥٣١ عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٤) نور الثقلين ٤: ٥٢٧ ح ٧٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث =

خُلف الوعد من خَلفيات الجهل أو العجز أو البخل أو الخوف أمّاذا من نقصٍ في الواعد يقتضي نقضاً في وعده، وكل ذلك بعيد عن ساحته تعالى مستحيل، فإذا لا تستجاب دعوتك فتّش نقصاً فيك أو نقضاً في شروط الدعاء.

من الحاجيات ما يعطيها ربنا دون دعاء، ومنها ما يعطيها بدعاء فإنها شرط الإعطاء، ليس لأن الله بحاجة إلى أن يُدعى ليعَلم عن جهل أو يحظو حظوة الاستدعاء، وإنما حظوة القرب للعبد وليعلم أنه بحاجة دائبة إلى الله، فيعيش الافتقار إليه في أحواله كلها، بقلبه ولسانه وكافة وجهاته فـ«ادع ولا تقل قد فرغ من الأمر فإن الدعاء هو العبادة»(١).

ادع ربك على كل حال، واطلب منه ما تحتاجه غير مصر ولا جازم علّه لا يصلح لك وأنت جاهل، وحتى إذا كان من صالحك ولا تستجاب فإن نفس الدعاء عبادة لا تضاحى، كيف وربك يدعوك لدعائه ويعدك الاستجابة! و«من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة»(٢) وعطاء الدعاء هو حالها واستعدادها بشرائطها.

وللدعاء شروط عِدَّة هي العُدَّة للاستجابة، منها الوفاء بعهد الله العبادة، ومنها حالة التضرع والخفية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

= طويل وفيه قال السائل: ألست تقول يقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقد نرى المضطر يدعوه فلا يجاب له، والمطيع يستنصره على عدوه فلا ينصره؟
قال: ويحك ما يدعوه أحد إلا استجاب له أما الظالم فدعاؤه مردود إلى أن يتوب اليه، وأما المحق فإنه إذا دعاه استجاب له وصرف عنه البلاء من حيث لا يعلم أو ادخر له ثواباً جزيلاً: ليوم حاجته إليه وإن لم يكن الأمر الذي سأل العبد خيراً له إن أعطاه أمسك عنه والمؤمن العارف بالله ربما عز عليه أن يدعوه فيما لا يدري أصواب ذلك أم خطأ؟

(١) المصدر ح ٨٣ القمي عن أبيه عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: ادع... إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

(٢) نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام مستشهداً بالآية.

﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[(١)] ومنها ترك الإصرار الجازم علَّه لا يصلح له فـ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ. . .﴾[(٢)] ومن «الذنوب التي ترد الدعاء سوء النية وخبث السريرة والنفاق مع الإخوان وترك التصديق بالإجابة وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها وترك التقرب إلى الله عز وجل بالبر والصدقة واستعمال البذاء والفحش في القول»[(٣)].

إن هناك أموراً تتقدر فتقضى بحولك وقوتك، وأمور أخرى لا تطيقها وقد أمرت فيها بدعاء ربك، فلا تقل «قد فرغ من الأمر» فإنه قول اليهود فكيف قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟[(٤)].

ويا له من رحمة واسعة سابغة، يأمرنا بدعائه، ثم يتهددنا إن تركناها: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين، وإذ تعلم أنك فقير ضائق والله غني واسع، يعطيك سؤلك إذا دعوته، فما يمنعك من دعائه إلّا استكبارك، أم سوء ظنك به كأنه مخْلِفٌ وعدَه عبادَه أمَّاذا من خطإٍ عارم؟!

كل سائل عبدٌ لمن يسأله مفتقراً، فهل أنت تسأل سؤلك عباده، ثم تستكبر أن تسأله تعالى وهو رب السائل والمسؤول؟ ضعف الطالب والمطلوب!.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٥. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٣) المصدر ح ١٠٦ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى أبي خالد الكابلي قال سمعت زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقول: الذنوب التي ترد الدعاء. . .

(٤) المصدر ح ٩٦ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام مع سليمان المروزي حديث طويل وفيه قال الرضا عليه السلام: يا جاهل! فإذا علم الشيء فقد أراده، قال سليمان: أجل، قال: فإذا لم يرده لم يعلمه؟ قال سليمان: أجل، قال: من أين قلت ذاك وما الدليل على أن إرادته علمه؟ وقد يعلم ما لا يريده أبداً وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] فهو يعلم كيف يذهب به ولا يذهب به أبداً، قال سليمان: لأنه قد فرغ من الأمر فليس يزيد فيه شيئاً قال الرضا عليه السلام: هذا قول اليهود فكيف قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال سليمان: إنما عنى بذلك أنه قادر عليه، قال: أفيعد ما لا يفي به فكيف قال: يزيد في الخلق ما يشاء، وقال عز وجل: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] وقد فرغ من الأمر؟ فلم يحر جواباً.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ
﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ
لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم
مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ
ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾:

تعريف بـ «ربكم» الذي ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ أنه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ...﴾ نعمتان هامتان لم

يسألهما الإنسان ربه وقد أعطاهما إياه قبل خلقه، فكيف إذا سأل نعمة؟ أتراه يبخل فيما يُسأل وهو كريم فيما لم يُسأل!

الليل هنا وفي سائر القرآن لباس[1] وسكن لتسكنوا فيه عن حركات التعب ونهضات النصب: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2].

صحيح أن في شغل الليل وراحة النهار سماحاً شرعياً وإمكانية كونية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[3] ولكنه تبصرة على ضوء قانون، وسماح إذا لزم الأمر، والأصل هو ﴿ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإنَّ سَكَنَ الليل بنومه ضرورة حَيَوِيَّة تسكن فيه الخلايا الحية لتستمد حياتها ونشاطها في النهار، ومجرد النوم لا يكفيها توفيراً لهذا النشاط، فالخلية الحية المتعرضة لضوء مستمر ونهار سرمد تصل إلى حد الإجهاد، فتتلف أنسِجتها إذ لم تتمتع بقسطها اللازم من سَكَن الظلام.

كما وأن في سرمد الليل أو شغله بدل النهار إجهاداً في صورة أخرى لهذه الخليات، فلكلٍّ ضرورة حيوية على حدِّه في جَذره ومدِّه.

وهذه القاعدة تنحو نحو الأكثرية الساحقة في أمكنة هذه المعمورة، ففي المناطق التي يقل الليل أو النهار لساعة ونصف ساعة، أم يطولان لستة أشهر، لا تمشي هذه القاعدة إلَّا بديلاً عنها بالمنام في ظلام مصطنع أو ضياء مصطنع، وعلى أية حال فراحة الظلام وإبصار الضياء أياً كان هما

(١) راجع تفسير آية النبأ في النوم وفي لباس الليل ومعاش النهار، إلى ج (٣٠) من الفرقان.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٢.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٣.

فضل من الله ورحمة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ كافرين بفضله أم غافلين!

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ البعيد المحتد، الكبير المتعال ﴿رَبُّكُمْ﴾ إذ خلقكم و﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(١) لا أنتم فحسب بل و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جملة وتفصيلاً، فلا شيء إلَّا وهو خالقه إلَّا شيء ذاته فليس مخلوقاً حتى يخلقه هو أو سواه، فالكون إما شيءٌ خالق أو شيءٌ مخلوق ثم لا شيءَ، مستحيلاً ذاتياً أو مصلحياً وهو الممكن الذاتي، فهما «لا شيء» على طول الخط، مهما استحق الممكن اسم الشيء وجاه المستحيل الذاتي، فإنهما لا شيء في الواقع.

ولأنه ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو إذا رب كل شيء ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ حيث الخالق أقوى وأعلم فأحرى أن يكون رباً لما هو خالقه، ولا يأتي غيره إلَّا بالخسار والدمار ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا خالق ولا رب ولا معبود ولا ملجأ ولا منجى إلَّا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون إفكاً وزوراً عن دعوته عبادة واستدعاءً أمَّاذا؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد، الرذيل الرذيل ﴿يُؤْفَكُ﴾ عنه تعالى إلى سواه ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟﴾ بزمن بعيد ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ إذ أبصروا إليها ولم يُبصروا بها حتى يستبصروا فعُميَّت عليهم الأنباء فعموا وصموا فلا يفقهون حديثاً!

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

أترى الأرض قراراً ساكنةً لا حِراك لها؟ فماذا نصنع بآيات حِراكها كالدحو والطحو والذلول والكفات والراجفة ويسبحون وأضرابها؟!

القرار من القَرِّ: البرد، ما يلمح أن الأرض كانت حارة سريعة الحراك ومجنونة، لا تقر ولا تحنُّ لراكب كما دلت آية الذلول، ثم ذلت بعد شِماس وقرَّت بعد ارتكاس.

فالأرض القرار هي الباردة نسبياً بعد حرارتها البالغة، دون برودة مطلقة يسكن فيها الجسم عن أي حراك وهو موته وانعدامه، إذ لا بد للمادة - على أية حال - من حركةٍ مَّا، ذَرِّية وفوق الذرية أم دونها، حيث المادة هي الحركة، فقرار الأرض وغيرها نسبية جانبية، وهو هنا في بعدين، قرُّ البرودة وقرُّ الاستقرار الراحة لساكنيها، ومجرد جعل الأرض قراراً دليل أنها كانت غير قرار، حارة شموساً ثم قرَّت وذلَّت بعد شماس ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾[1] فأنهار الأرض هي مجعولة بعد قرارها، فلم يكن قبله ماءٌ أو كلأٌ لشدة الحرِّ الشِّماس.

ثم و«لكم» تدلنا على قرارها النسبي لساكنيها، دون سكون أصلي لها، وعلى حد المروي عن الإمام علي عليه السلام في شأنها «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها...» «وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشُّمِّ من صياخيدها فسكنت من المَيدان برسوب الجبال في قطع أديمها»[2]... فقد عبر عن حركتها المعدَّلة بالسكون، سكوناً عن المَيدان والاضطراب لحد لا يحس ساكنوها حركاتها! ثم وفي بناء السماء بعد قرار الأرض لمحة ثالثة لمعنى القرار، أنه السكن الراحة، وكما يستريح الإنسان في الطائرة دون صوت ولا

(١) سورة النمل، الآية: ٦١.
(٢) نهج البلاغة عنه عليه السلام في خطبتين.

اضطراب، يعلم حِراكها ولا يلمسه إلّا أن ينظر إلى السحاب حولها والأرض تحتها! وليس قرار الأرض لاستقرار الحياة - فقط - من خلفيات البرودة وتعديل الحركات، فهنالك موافقات كثيرة خلّفت ذلك القرار الراحة، المُمكّن للحياة الناضجة المرتاحة.

«فلو دارت الأرض حول نفسها أو شمسها أسرع ما تدور الآن لاندثرت هي، وتناثر ما عليها، وقضت نحبها بمن عليها!

ولو دارت أبطأ مما هي لبطلت الحياة عليها أو صعبت، ولولا دورانها حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها، وتحولت الفصول إلى فصل واحد.

ولو كان الأوكسجين بدلاً عن ٢١٪ خمسين بالمائة تعرضت كافة المواد القابلة للاشتعال لحرقها، ولو هبطت عن قدرها كعشرة بالمائة أو أقل لابتليت الحياة بقلة الحرارة اللازمة لتداومها ونضجها.

وهناك آلاف الموافقات المتشابكة لا نعلمها، خلفت قرار الأرض كما نعيشها، لولاها لبطلت الحياة أم صعبت على ظهرها»[١].

ونعمة ثالثة بعد قرار الأرض وبناء السماء ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لا كسائر الحسن في سائر الخلق، بل الأحسن المطلق الذي ليس فوقه حسن ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢] مهما كان يساوى ويسامى في حسن: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٣] حيث يبقى القليل غير المفضّل ولا المفضَّل عليه، ولو وقفنا أمام صورة الإنسان: الجسمية - فضلاً عن

---

(١) مقتطفات عن كتاب «مع الله في السماء» للدكتور أحمد زكي وكتاب «العلم يدعو للإيمان» ترجمة محمود صالح الفلكي.

(٢) سورة التين، الآية: ٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

صورته الروحية - وقفة دقيقة، بل وأمام كل عضو من أعضائه أو خليَّة من خليَّاته لقضينا عجباً على عجب، حيث يرجع إلينا البصر خاسئاً وهو حسير!

نضرب لذلك مثلاً العين مقيسة على الذبذبات الضوئية في جوه، وأذنه مقيسة على الذبذبات الصوتية، وكل حاسة له أو جارحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته، لولا الموافقات بين هذه الذبذبات أو تلك وبين قُدُرات العيون والسمع لاختلَّ مصلحة السمع والإبصار ولم يكن للإنسان على وجه الأرض قرار!.

ورابعة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ ما تستطيبه النفس السليمة مأكلاً وملبساً ومسكناً ومنكحاً ومنظراً أماذا من رزق مادي، وفوق ذلك كله الطيبات الروحية والنفسية، طيبات فوق طيبات!

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ﴾ لا سـواه ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دون سواه الذي ليس رب نفسه فضلاً عن العالمين!.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ
الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ
الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا
كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي
نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا
مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي
صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ
آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

استفهام تقرير للرسول ﷺ أم أيٍّ من الذين آمنوا على الأبدال، ثم تنكير لمن يجادلون في آيات الله، وآيات الله من أدل الآيات على الله دون إبقاء لأيَّة ريبة إلَّا يقيناً لا شك فيه، فكيف يجادلون فيها و﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ حيث يصرفهم الشيطان وتصرفهم أهواؤهم، وما هو إلَّا كبر به ينصرفون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾[1] - ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[2]؟!.

فالصرف من الحق إلى الباطل قد يكون قصوراً من المصروفين ببُلهٍ أو جنون، أم تقصيراً يضرب إلى قصور، كأن يصوَّر لهم الحق باطلاً والباطل حقاً وهم غافلون، وثالثة عن بالغ التقصير كمن يجادل في آيات الله دون أيِّ سلطان إلَّا لتصديقه فـ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

وعلَّ الكتاب هنا جنس الكتاب السماوي وكما تلمح إليه ﴿رُسُلَنَا﴾ دون «رسولنا» أم هو القرآن لأنه - في الحق - هو الكتب كلها كما أن رسوله الرسل كلهم، ثم التكذيب بكتاب ورسول واحدٍ تكذيب للكتب والرسل كلهم، حيث المصدر واحد.

(١) سورة غافر، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٦.

هم أولاء الحماقى وإن كانوا هنا لا يعلمون عن تعنُّت وتقصير، ولكنهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هناك علم اليقين وعين اليقين:

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

و﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ هناك هي هي الأغلال هنا حيث ظهرت بسيرتها في الأخرى، فأغلال العبودية للطواغيت، وأغلال الشهوات والحَيْوَنات والإنِّيات، هي هي التي تظهر بحقائقها يوم يقوم الأشهاد، وكل يحمل غُلَّه معه كما يحمل عداءه وغِلَّه فـ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] كما ويحملون سلاسلهم المسلسلة بينهم وبين أحِمَّتهم ونيران شهواتهم.

ولأن السَّجر هو تهييج النار وإضرامها، فإسجارهم إذاً في النار قد يعني أنهم حطب النار ووَقودها، فهم أولاء بعد ما يُسحبون في الحميم جراً على الأرض إليه، يُضرمون في النار حيث يزيدونها تهيُّجاً واضطراماً، فيزدادون هم أنفسهم بأنفسهم تشنُّجاً واضطراباً:

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ هنا في صفة الألوهية إذ تبين لنا أنهم ليسوا بآلهة، أم ضلت ذواتهم رغم أنه الظهور تأثيراً إلى مدى دناءتها ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ إذ لم يكن هناك واقع للدعوة كما للمدعوين، وهذا ضلال لأهل الضلال فوق ضلال لمكان التلبُّك والتلكُّع الجارف حين الإجابة عن سؤال.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

الفرَح بالحق حقٌّ لا سؤال عليه، ولكنه بغير الحق فرحة باطلة وضحكة على الحق، كمن يضحكون على المذنبين ويفرحون بدمارهم وأضرارهم، ثم المرح هو شدة الفرح والتوسع فيه.

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

أبواب جهنم هي مداخلها السبع لأصحابها، وليس ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ تعنيها حيث لا خلود في المدخل وإنما هي جهنم يخلد الداخل فيها مهاناً ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

عليك واجب التصبُّر لحق الوعد عليهم، فسواء أريناك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ ما دمت فيهم يوم الدنيا ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ إن العذاب لا محالة واقع، فحتى لو لم نعذبهم في الدنيا ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فليس أمرهم إلّا إلينا، فما دمت حققت واجبك الرسالي فقف عنده، فأما النتائج فليست لك ولا عليك وحتى شفاء صدرك أن تشهد فيهم بعض الوعيد، فلا تعلق قلبك بشيء إلّا بلاغ الرسالة، ثم الأمر كله لله، ولله الأمر من قبل ومن بعد وما أنت إلّا رسول!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

إن مَن قُصَّ عليه من الرسل قليل(١) من كثير منهم، ولكنهم على قلتهم عَدَداً يحلِّقون على من سواهم عُدَداً، فإنهم عظماء الرسل بين من دارت

---

(١) حيث المذكور منهم في القرآن (٢٦) رسولاً بين الألوف المشار إليهم في أحاديثنا.

عليهم الرحى أو من ينحو نحوهم، وعلى أية حال فالسنة الرسالية هي ما تصرح به الآية أن الآيات الرسالية عذاباً ورحمة إنما هي بإذن الله ومهما كانت آية الرحمة لإثبات الرسالة تأتي زمن الرسول، فآية العذاب قد تأتي بعد الرسول، فلا تك في ضيق من تأخير آية، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾(١) فإذا جاء أمر الله في آية ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ على ناكريه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

وها هي آيات من الله لصالح المجموعة في الحقول المعيشية المادية، ليست تأتي إلَّا بإذن الله، فبأحرى الآيات الرسالية أن ترتبط - فقط - بإذن الله دون سواه.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾:

فالعالمون يعيشون آيات الله في كل حِلٍّ وترحال وعلى أية حال، دون أن يملكوا منها آية فيأتوا - هم - بآية، فإنما هي من الله وبإذن اللّه ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؟

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

ذلك سير الأرض في الطول التأريخي والعرض الجغرافي، حصولاً على عاقبة الماضين، ما تبقَّى من آثارهم في أماكنهم أو تهدَّم، وما جاء في الأثر الصحيح عنهم مهما تأخر أو تقدم، فذلك سيرٌ يبشر المؤمنين وينذر الكافرين، عبرة من الغابر هي تذكرة للحاضر.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

فتراهم «كانوا أشد منهم قُوَّةً وآثاراً فِي الأرضِ» في الحياة الظاهرة الحاضرة، ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فأنتم بِأحرى، وعذاب الله عليكم - إذاً - أشجى.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

اعتزوا بعلومهم التي كلها حلوم وظنوا أنها العلم لا سواه، وحياتهم هي الحياة لا سواها.

﴿فَرِحُواْ﴾ به ومرحوا واستهزؤوا بعلوم الرسالات، واعتبروها تأخراً عن الحياة، فالحياة التقدمية هي العلم بالدنيا وطاقاتها وحالاتها والعمل لها ليس إلَّا، فإنها هي التي تَصلح للحياة حيث تُصلحها، دون العلوم الروحية التي لا تأتي إلَّا بأسر الإنسان وحصره عن حريته في الحياة، ولكنما العلم دون إيمان فتنة أياً كان وحتى العلوم الروحية، فإنه يوحي بغرور، ويبعث إلى شرور، حيث يستخفه علمه وينسى جهله، فلا يطامن من كبريائه وعليائه، إلَّا إذا تبنَّاه الإيمان، أم هو تبنَّى الإيمان، وما العلم الظاهر إلا وسيلة لظاهر الحياة، ولا العلم الروحي إلَّا وسيلة لحقها الباطن، فلولا الإيمان لم يلي في العلم إلَّا خسران ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾[1] ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[2].

ولكنهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ وأحاط ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

كانوا يستهزئون بمواعيد الله عليهم فحاقت بهم:

(١) سورة النجم، الآيتان: ٢٩، ٣٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

وترى إيمانهم عند رؤية البأس ينفعهم وما هو بإيمان؟

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

سنة سنية دائبة ﴿فِى عِبَادِهِۦ﴾ ألّا تُقبل التوبة عند البأس وحضور العذاب لأنها لا تحن إلى واقع، وليست إلَّا خوفة من عذاب واقع!

اللهم إلَّا إذا كان إيماناً بصدق وحق، دون مماراة ومجاراة نَظِرةَ زوال العذاب ثم العودة، فقد يكون الأخذ بالبأساء عذاباً لا مرد له إذ لا يضَّرَّعون مهما قالوا آمنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾(١).

هذا - فإذا تضرعوا عند البأس وآمنوا صدقاً نفعهم إيمانهم كما في قوم يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾(٢).

ف «آمنوا» هو حق الإيمان فليقبل، و﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾ ليس إلَّا قولة الإيمان خوفةً عن البأس فلا يقبل.

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٤٢-٤٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٩٨.

٤١

سُورَةُ فُصِّلَتْ

سُورَةُ فُصِّلَتْ

مكيّة وآياتها أربع وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ
﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ
﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ
بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ
وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ
تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

حم فصلت: السجدة هي ثانية الحواميم السبع المكية، وهنا ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وفي المؤمن الغافر قبلها وهي أولاها: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[١] وفي الشورى ثالثة الحواميم ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٢] وفي رابعتها الزخرف ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[٣] وفي خامستها الدخان ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾[٤] وفي سادستها الجاثية ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[٥] وفي سابعتها الأحقاف: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[٦].

فثلاث منها تشرك في ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قد يشركها في أن آيها تحمل عزة من الله وحكمة أم ولسائر القرآن ككلٍّ، وواحدة ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فهكذا الأمر، واثنتان ليس فيها صفة من هذه أو تلك أمّاذا، وهذه السجدة تنفرد في ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قد تلمحان أن آيها تحمل الوصفين وكما في سائر القرآن، فهذه مواصفات خمس في هذه الخمس، تصوغ سورها والقرآن كله بعزة الله وعلمه وحكمته ورحمتيه رحمانية ورحيمية، وفي ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٧] نجد جمعية الصفات التي تمتُّ بصلة للكمال القمة في هذا الذكر من العزيز العليم الحكيم الرحمن الرحيم! خمسٌ في المحور وسائرها تحور حولها.

وهذه من العزائم الأربع «اقرأ باسم. . : النجم - آلم تنزيل: السجدة و«حم: السجدة»[٨] حيث تجب السجدة عند استماع أو سماع آية السجدة فيها.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٣.
(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٢، ٣.
(٤) سورة الدخان، الآيتان: ٣، ٤.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢.
(٦) سورة الأحقاف، الآية: ٢.
(٧) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٨) نور الثقلين ٤: ٥٣٨ ح ٣ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام: . . .

وفي هامة حم روايات عدة تقول كلمة واحدة إن رسول الله ﷺ قرأ آياً من أولها إلى ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ أماذا؟ فأعجبت وحيّرت نفراً من الناكرين لرسالته المستهزئين به، المتهددين له، فآمن قوم وكفر آخرون(١).

ولقد فُصلت في فصلت شطرات من الرحمتين ابتداءً بالرحيمية الخاصة ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ . . . لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ومن ثم الرحمانية ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ. . .﴾ وبعدها خليطة من هذه وتلك، دمجاً برباط كامل شامل لكتابي التدوين التشريع والتكوين، وأن كاتبهما واحد هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾!

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾:

---

(١) من ذلك ما في الدر المنثور ٥: ٣٥٩ - أخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال قال أبو جهل والملأ من قريش قد انتشر علينا أمر محمد ﷺ فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فقال عتبة علمت من ذلك علماً وما يخفى علي إن كان كذلك فأتاه فلما أتاه قال له: يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب؟ فلم يجبه قال: فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت: ١-٣] فقرأ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فُصّلَت: ١٣] فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم فقال أبو جهل: يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته انتقلوا بنا إليه فأتوه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمداً أبداً وقال: لقد علمتم أني أكثر قريش مالاً ولكني أتيته فقص عليهم القصة فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة قرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴿حمٓ﴾ حتى بلغ ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم فكيف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب، وفيه أن ممن سمعها سعد بن معاذ فرجع وقد هداه الله.

هنالك إنزال للكتاب في إحكام: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[١] وهنا تنزيل للكتاب في تفصيل تجمعهما ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٢].

في مرحلة الإنزال الإحكام لم يكن قرآناً يقرأ، ولا عربياً يَعْرَب ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إذ كان نازلاً في محطة الوحي: القلب المحمدي، ولما يبرز في تفصيل، فلما فصّل في هذه الآيات المفصلات أصبح قرآناً عربياً: لائحاً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وبطبيعة الحال غير عربي لا يلوح في حقائقه «القوم يجهلون» ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٣] إنه في نفسه بيان للناس، وعربي لا تعقيد فيه ولا خفاء يعتريه، فإنه داعية العالمين ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[٤] ولكنما الواجهة العالمة هي التي تهدي الناس بالقرآن، والجاهلة المتجاهلة لا تزيدهم إلّا خساراً.

هنالك لتنزيل الرحمن الرحيم تفاصيل عدة تلو بعض، تفصيل أوّل عن إحكامه هذا حتى برز آيات مفصلات ﴿قُرْءَانًا﴾ وتفصيل ثان ﴿عَرَبِيًّا﴾ واضحاً حيث ينطق بعضه ببعض ويفسر بعضه بعضاً، في ترتيب التنزيل لبعد واحد-: الآيات المتشابهة ببعض، تفسر بعضها بعضاً، وفي ترتيب التأليف لبعد ثان، الآيات التي تحتف بها من قبل ومن بعد، فإنها تساعد في تفصيل معانيها وتكميل مغازيها، فهما إذاً تفصيلان بعد الأول، ومن ثم تفصيلها بالسنة حيث يفسرها الرسول والأئمة من آل الرسول صلوات الله عليهم أجمعين.

فهذه تفاصيل أربعة للناس، بعد إحكامه الخاص في قلب الرسول، وكما يسبقه إحكام في علم الله قبل إنزاله على الرسول ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[٥] احكامان اثنان ثم تفاصيل أربعة.

---

(١) سورة القدر، الآية: ١.
(٢) سورة هود، الآية: ١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٤.

أترى ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بماذا تتعلق؟ علّه بكلّ من «تنزيل - فصلت - عربياً» فرغم أن الكل مبدئياً كافة لسائر المكلفين، ولكنما التعرف إلى معارفه وتصديقها وتطبيقها ليس إلّا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ على درجاتهم، فالذي يتجاهل حق القرآن وحقيقته ليس هو له عربياً لائحاً فلم يفصّل له، ولم ينزَّل، إنما ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[2].

والذي يؤمن به ولكنه لا يتخطى مداخل تفهمه ومخارجه وهو يهوى تفسيره بغير هدى أو أثارة من علم، ليس له عربياً ولا فصلت له آياته، وقد يصبح القرآن لهؤلاء وهؤلاء ضلالاً ولا يزيد إلّا خساراً وملالاً.

والذي يعرف مفاتح تفسيره ولكنه لا يطبِّقه ليس له عربياً كما يحق، حيث العمل بالقرآن مما يساعد على تفهمه، فلكل من مراتب العلم حظ من درجات القرآن، وللجاهل المتجاهل المتعنت دركات.

ثم وفي ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ استجاشة لكافة القدرات العلمية واستنهاض للعلماء أن يكرسوا طاقاتهم للحصول على الأكثر فالأكثر من معاني آي الذكر الحكيم، مستنبطين متشابهه بمحكمه، ومجملة بمُبيِّنه، فحاصلين على العبارة ثم الإشارة ثم الطائف ومن ثم الحقائق، دونما نظرة بيان في هذه السبيل سوى بيانه، فإنه النور المبين وما بال النور يستنير بنورٍ سواه أم بنورِ سواه، اللهم إلّا استيضاحاً من السنة القاطعة متطرقة طريق الدلالة صريحة وظاهرة.

فلا تعني عربية القرآن إلّا جزالة بيانه ووضوح تبيانه وبرهانه، وإن كانت تزيد في عربيته تفهماً عربيته لغوياً.

---

(١) سورة يس، الآية: ٧٠.
(٢) سورة التكوير، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾:

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿... بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ «كتاب»: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ للعالمين: من يعلمون ومن لا يعلمون ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ وهم الذين لا يعلمون ﴿فَهُمْ﴾ بإعراضهم عن هذا الذكر العظيم جاهلين أو متجاهلين ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[1] ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ بآذانهم مخافة الانتباه، لحد ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾[2] فإذا سمعوه بآذانهم لا يسمعون بعقولهم وقلوبهم، فإنه قولٌ محطِّته الأنفس: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[3].

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾:

أعذار ثلاثة زعم أنها تعذرهم عن سماعه ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ إمعاناً في العناد وتيئيساً للرسول ليذرهم كما هم فيذروه كما هو:

﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ - ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[4]. ترى وهم صادقون في أكنة قلوبهم؟ أجل! ولكنها امتناع باختيارهم إذ كفروا وأصروا واستكبروا ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[5].

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثقل عن الاستماع والسماع، وإذا اعترض أسماعهم فلا يصل إلى قلوبهم لأنها في أكنتها.

﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ نحن لا نفهمك وأنت لا تفهمنا لاختلاف

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٨.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

المبادئ فيما بيننا وبينك، وسدّ المداخل إلى قلوبنا، والأكنة جمع كنان وهو الستر والغطاء كعنان وأعِنَّة وسنان وأسنَّة، وقولتهم هذه خارجة مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه أو يستمعون من قوارع القرآن، وبوارع البيان، فكأنهم من قوة الزهادة فيه وشدة الكراهية له، قد وقرت أسماعهم عن سمعه وأُكنَّت قلوبهم دون علمه، وقد أكنها الله وأوقرها جزاء الاكتنان والتوقر.

إن الأسماع هي مداخل القلوب تعي ما سمعت وتسمع ما وعت، فإذا كانت القلوب في أكنَّة، لا تدخلها الذكرى وإن كانت الآذان تسمع ولكن ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ إذاً - فقلوبنا بعدُ في بعدي الكِنان، ثم ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ يعم كنان القلوب ووقر الآذان إلى عمى الأبصار وتعطل الحواس أمّاذا من مداخل الأعضاء إلى القلوب، وقد تعني «من» أن الحجاب مبتدأً منا ومبتدأً منك، فهو إذاً حجابان ذاتيان، لا حجاب واحد في هذا البين، منفصلاً عنا، فاصلاً بيننا، فالمسافة المفاصلة بيننا وبينك مستوعبة بحجاب، دون إبقاء على جزء هو خِلوٌ من حجاب.

إذاً ففي ثالوث المفاصلات بيننا وبينك لا تفيدك الدعوة ولا إيانا ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ كما تشاء ما تشاء تجاهنا في شأنك ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ تجاهك ما نشاء كما نشاء وفي شؤوننا، أذانٌ منا إليك لحرب شعواء عشواء، وبلاء لأواء ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾!

﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ في حجابك عنا ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ في حجابنا عنك، فكلٌّ يعمل على شاكلته، ثم ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ في إبطال أمرك، ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ كما تستطيع في دعوتك سلباً وإيجاباً ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ كما نستطيع، فقد وقعت المفاصلة التامة ثم لا يرجى تأثير أية دعوة.

أتراهم صادقين فلا يمكنهم الاهتداء بما كفروا وختم الله؟ لقد صدق

البعض وهم الذين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...﴾[1] وكذب الآخرون، فنجى الكاذبون[2] وهلك الصادقون!.

وهذا نموذج مما كان يواجه الرسول ﷺ في دعوته على طول الخط، ولكنه ليس ليكفَّ عن الدعوة أو ييأس من تيئيسهم، وليس ليجيب عن قولتهم الهباء الخواء إلّا بياناً لكيانه بالوحي:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾:

آية لا ثانية لها في سائر القرآن إلّا التي في الكهف إلّا في ذيلها ﴿فَمَن

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) الدر المنثور ٥: ٣٦ - أخرج أبو سهل السري بن سهل الجنديسابوري في حديثه من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ...﴾ قال: أقبلت قريش إلى النبي ﷺ فقال لهم: ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب؟ فقالوا: يا محمد ما نفقه ما تقول ولا نسمعه وإن على قلوبنا لغلفاً وأخذ أبو جهل ثوباً فمد فيما بينه وبين رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ...﴾ [فصلت: ٥] فقال لهم النبي ﷺ: أدعوكم إلى خصلتين أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله فلما سمعوا شهادة أن لا إله إلا الله ولّوا على أدبارهم نفوراً وقالوا اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وقال بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا، وهبط جبرائيل فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول أليس يزعم هؤلاء أن على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر فليس يسمعون قولك، كيف وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً لو كان كما زعموا لم ينفروا ولكنهم كاذبون يسمعون ولا ينتفعون بذلك كراهية له، فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلاً إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد! اعرض علينا الإسلام فلما عرض عليهم الإسلام أسلموا عن آخرهم فتبسم النبي ﷺ قال: الحمد لله ألستم بالأمس تزعمون أن على قلوبكم غلفاً وقلوبكم في أكنة مما ندعوكم إليه وفي آذانكم وقراً وأصبحتم اليوم مسلمين، فقالوا: يا رسول الله ﷺ كذبنا والله بالأمس لو كان كذلك ما اهتدينا أبداً ولكن الله الصادق والعباد الكاذبون عليه وهو الغني ونحن الفقراء إليه.

كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[١] [٢].

إنني لا أحمل من بشريتكم إلّا ظاهر القالب، وأما باطن القلب فإنه ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ دون قلوبكم المقلوبة الخاوية، غير المهدية بهدى الوحي، فأنا وحي في الفطرة والعقل والصدر والقلب والفؤاد واللب أماذا من جنبات الروح، وأنا أكمِّل بالوحي ما قصرتُم أو قصَّرتم!

﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أماثلكم في القلب ومداخله ومخارجه، ولا أفاصلكم تلك المفاصلة التي تجعل من بيني وبينكم حجاباً، وفي قلوبكم أكنة وفي آذانكم وقراً، فلا أفهمكم ولا تفهمونني، لا أتحملكم ولا تتحملونني!

لا! أنا بشر كما أنتم، أسمع وأبصر وأحس كما أنتم، وأعي بقلبي ذاتياً ومن مداخله كما أنتم، إلّا أن قلبي أوعى من قلوبكم إذ ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ دونكم، وليست هذه المفاصلة بفاصليَّ عنكم، وإنما هي مواصلة أخرى فيما لا تنالون بكامله، وإن كنتم تنالونه دون كامله ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[٣] فلا حجاب بيني وبينكم إلّا منكم، ولا كنان عما أذكّركم إلّا على قلوبكم منكم، ولا وقر لما أسمعكم إلّا في أسماعكم منكم، ثم من الله جزاءً وفاقاً: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[٤] ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٥]! ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٦] فأنا بشر كما هم وأنتم، ولا بدعاً فيما أدعو فـ ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[٧] كما الرسل كلهم، وهو قضية الفطرة والعقل وكافة البراهين حسية وعقلية، فلماذا

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) راجع تفسير الآية إلى الكهف تجد تفصيلها فيها فلا نعيدها هنا.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٨.

(٦) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

(٧) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٨.

الحجاب بكنانه ووقره أماذا؟ ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ استقامة على قضية العقل والفطرة، والعدل في القوامة والفضيلة، دونما اعوجاج عنها ولا ارتتاج، ثم الاستقامة ﴿إِلَيْهِ﴾ لا ﴿لَهُۥ﴾ فليس هو المستفيد من تلك الاستقامة، وإنما هو المفيد المستقيمين إليه، القاصدين سبيله ﴿إِلَيْهِ﴾ لا زماناً ولا مكاناً، وإنما مكانة وإمكانية في بعدي التكامل شرعة وتطبيقاً ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ عما يبعدكم عنه ويضلكم عن سبيله -: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ. . .﴾.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾:

المشرك بالله - بطبيعة الحال - لا يدين بدين الله فلا يؤتي الزكاة زيادة مالية على أية حال، فإنها مطلق الزيادة ولا سيما قبل نزول آيات الزكاة الخاصة، والآية من أقدم المكيات، ولمّا تفرض هذه الزكاة، ولا يؤتي الزكاة حالياً أن يزكي نفسه كما تقول شريعة الله، فلا له أموال زاكية ولا أحوال زاكية ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فهم لمثلث الزمان هم خاسرون، وأما حاله الدنيا فلا يزكيها لا مالاً بتعطفه على عباد الله، ولا حالاً في انعطافه بنفسه تقرباً إلى الله، وأما مستقبله فهو كافر بالآخرة، فهو ناكرٌ للمبدأ والمعاد وبينهما يعيش نكران الشرعة الحاكمة بين المبدأ والمعاد فـ ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم﴾ بدءاً وعوداً، ويل لهم في أولاهم وويل لهم في أخراهم!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله واليوم الآخر وبشرعة الله حيث تزكى أحوالهم وأموالهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي تتجاوب وإيمانهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ولا مقطوع عطاء غير مجذوذ، لأنه قضية فضل الله، فليست له نهاية مهما كان الويل للمشركين ممنوناً مقطوعاً حين تخمد النار ومن في النار لأنه قضية عدل الله فله نهاية.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾:

آيات أربع من «فُصِّلت» هي منقطعة النظير في سائر القرآن بما فصَّلت من أيام الخلق بين السماوات والأرض بعد إذ أجملت في آياتها السبع[١] ولكنها تركت إجمالات بعد تفصيلاتها مما حيّرت ألباب الباحثين عنها فأصبحت معترك الآراء المتضاربة، وقد توضحها هي بنفسها عند التأمل اللائق بها فيها، والآيات التي تناظرها فتناصرها في إيضاح ما أجمل منها ما أجملها، دون أن نمشي في تفسيرها مكبين على وجوهنا، لاجئين في دراسة القرآن إلى نظريات العلماء القابلة للتبديل أو التعديل، فلا نحمل على القرآن

---

(١) السبع هي التالية:

١ - ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

٣ - ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . . .﴾ [هود: ٧].

٤ - ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

٥ - ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

٦ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

٧ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السّجدة: ٤].

ما لا يتحمله من توجيهات، أو هو ساكت عنها، وإنما نستنبط من نصوصه وظواهره مشياً على صراط مستقيم، حيث القرآن هو الإمام الذي لا بديل عنه. ولا دليل أوضح وأتقن منه، فهو - فقط - المحور وسائر الأنظار حائرة حوله، نصدق منها ما صادقه نصه دون تمحُّل، ونرجِّح ما يصادق ظاهراً منه ثابتاً متظاهراً بتفسير منه، ونضرب عرض الحائط ما يخالفه نصاً أو ظاهراً جلياً أم لا يوافقه!

هنالك تساؤلات حول أيام الخلق ماهية؟ وما هما اليومان تارة لخلق الأرض، وأخرى لتسبيع السماء، وما هي الأربعة بينهما ولماذا هيه والجمع ثمانية؟ أو قد يزيد عليها يوم لأقل تقدير نصيباً مفروضاً لخلق الدخان. فأين الثمانية أو التسعة أما هيه؟ وأين الستة الثابتة بآياتها السبع؟ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[١]؟.

ثم ومن ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ نتلمح كصراحة أن خلق الأرض كان قبل السماوات بمرحلة، فهو قبل خلق الأنجم في السماء الدنيا بمرحلتين، فهي - إذاً - قبل الشمس المخلوقة مع الأنجم، وقد تنازع ذلك السبق آيات النازعات: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[٢].

وعلى ضوئها النظريات العلمية القائلة إن الأرض هي من مواليد الشمس المنفصلة عنها، المستضيئة منها! ومن ثم فماذا تعني ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ من الاستواء ومن الدخان؟ وما هي المقاولة بين رب العالمين والأرض ودخان السماء؟ وما هو إتيانهما طوعاً أو كرهاً وقولهما: ﴿أَتَيْنَا

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة النازعات، الآيات: ٢٧-٣٣.

طَآئِعِينَ﴾ وإلى مَ يرجع ضمير الجمع في «فسواهن» ولا يسبقه جمع؟ وما هو الوحي في كل سماء، دون إلى كل سماء أم لكل سماء؟

ما هو اليوم؟

اليوم في مطلق ما يعنيه هو واحد الزمان حقيقياً أو نسبياً، فالواحد الحقيقي هو واحد الحركة في المادة الأولية ولا يعلمها إلّا الله أو من علّمها إياه كـ ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[(١)].

والنسبي - فيما نعرف - يعم اليوم الإلكتروني وهو مقطع من الزمان للدور الإلكتروني حول شمسها البروتوني، وسنته ١/ ٥٠,٠٠٠ ثانية أرضيه.. ثم اليوم الأرضي نهاراً أم بليله كما في آيات قد لا تعدو عشرين[(٢)] بين الآي التي تحمل اليوم وهي تذرف أربعمائة وتسعة وأربعين.

ثم أيام عمر الإنسان طفولة وكهولة وشيخوخة، إلى أيام السلطة لآل فلان وفلان، إلى يومي الدهر فـ «الدهر لك يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر» وإلى أيام عمر الكون منذ البداية حتى الآن، وإلى يوم القيامة، وإلى أيام السنة الأربع وهي فصولها التي يتقدر فيها الأرزاق كلها، وإلى الأيام النجومية، ثم الأيام الكونية التي خلقت فيها السماوات والأرض، وقد تعد يوماً واحداً بحساب المجموعة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ...﴾[(٣)] حيث اعتبرت الستة يوماً واحداً، والأيام التكاملية للأرض والسماوات بعد خلقهما، أمّاذا من أيام ابتداء من ﴿كُلَّ يَوۡمٍ

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.
(٢) وهي الآيات ٢: ٢٠٣ و٣: ٤١ وأضرابهما.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وانتهاء إلى يوم الكون كله منذ خلق حتى النهاية، وبينهما متوسطات من هذه وسواها[(١)].

إن الأيام المذكورة في آيات التقسيم ليست هي الوليدة عن دوران الأرض بعد خلقها ودحرها، إذ تسبق الأرض والسماء، بل هي على الترتيب بين أيام الخلق، وتكملة الخلق، والأيام الفصول، وهي مختلفة الزمان وأحياناً بمليارات الأضعاف بنسبة بعضها لبعض.

فليست هي الأيام النجومية العالمية وواحدها، ٤٣٢٠٠، سنة[(٢)] حيث القرآن يخاطب المكلفين أجمعين دون النجوميين حتى يحصر صلاحاته الكونية فيما يصطلحون، ولا الأيام التدبيرية الألف أو المعارجية الخمسين ألفاً، فإنها خاصة بمواردها في آياتها، وإنما هي أدوار الخلق والتكملة أماذا مما يحوم حوم خلق السماوات والأرض. حسب المراحل المختلفة المتدرجة من خلق الكون وتكامله.

هنالك يومان وأربعة ويومان في آياتها الأربع من «فصلت» هذه، وليس ليعني من الكل أيام أصل الخلقة التي هي ستة، مع العلم أنها لا تخرج عن نطاق الخلقة!.

أترى أن ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ تعني تتمة الأربعة[(٣)] فهي مع اليومين الآخرين

---

(١) راجع ج ٢٩: من الفرقان ستجد تفاصيل لليوم على ضوء آية المعارج.

(٢) في تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي ٤: ١٦٥: اعلم أن لفظة (يوم) قد وردت في علوم البابليين والآشوريين التي عثر عليها العلماء في المكتبة الملكية بقصر (آشور بانيبال) ففي هذه الخزانة وجدوا أنهم قسموا منطقة البروج إلى اثني عشر قسماً وهي البروج وقسموا الدائرة ٣٦٠ درجة وهكذا الدقيقة والثانية.. والأسبوع سبعة أيام ويقولون إن تقهقر الاعتدالين في زمان (٤٣٢٠٠) سنة ويسمون هذه المدة يوماً من الأيام العالمية وجعلوا السنة الشمسية التي قدرها ٣٦٥ يوماً وربع يوم ثانية واحدة من السنة العالمية ثم يقسمون اليوم العالمي إلى اثنتي عشرة ساعة، فتدبر تجد أن اليوم جاوزت عشرات الألوف من السنين وهو اليوم العالمي.

(٣) ومما يؤيده من الروايات ما في الدر المنثور ٥: ٣٦٠ - أخرج ابن جرير والنحاس في =

ستة، كما يقال: سرت من البصرة إلى الكوفة في يومين وإلى كربلاء في أربعة أيام، والآيات السبع أن الخلق في ستة أصلح قرينة لهكذا توجيه؟ ولكنه خلاف الفصيح والأدب الصحيح أن يتمحّل في مثل هذه المعاريض الهامة بين معترك الآراء، ولزامها البيان الصريح ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ . . . وَجَعَلَ فِيهَا . . . فِى يَوْمَيْنِ﴾ أمّاذا، والمثال إن صح في نفسه ليس إلّا في استمرارية فعل واحد كالسفر وأمثاله، وهنا أفعال عِدّة مفصولة بعضها عن بعض كما فصل ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، عن ﴿وَجَعَلَ فِيهَا . . . فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾؟.!

ثم اليومان بعد الأربعة المختصان بتسبيع السماء لا يفسحان مجالاً لأصل الدخان السماء، واللائح من ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(١) في آياتها، ومن ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ هنا بعد دخانها -: أن الستة تنقسم - لأقل تقدير - إلى ثلاثة هي خلق الأرض ودخان السماء وتسبيع الدخان.

فجعل الأربعة تتمتها بعد اليومين - على مشاكله العدة - لا يغني عن

= ناسخه وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض فقال ﷺ: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة فقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ . . فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصّلت: ٩، ١٠] وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حين يموت من مات وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء من منتفع به وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة، قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش قالوا: قد أصبت لو أتممت ثم قالوا: استراح فغضب النبي ﷺ غضبا شديداً فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨-٣٩] «ورواه مثله في المجمع عن عكرمة عن ابن عباس عنه ﷺ إلى «خلق يوم الجمعة» بتفاوت يسير.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

المناقضة بين الستة والزائدة، فإن يوم الدخان يجعلها سبعة! أم يزيد يوماً لتزيين السماء الدنيا بمصابيح فرجعت ثمانية!

أم أن الأربعة لا تمتّ بصلة لأيام الخلقة، إذاً فهي الفصول الأربعة لدور السنة حيث تقدر فيها أقواتها كل سنة[1]؟ وفي ذلك التوجيه العضال إهمال أمرين من الثلاثة المتقدمة على الأربعة: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بإشغال الثالث فقط -: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ أنها متعلّق الظرف ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ دونهما، فلا هما ضمن «يومين» كما الثالث إذ ليسا من أصل الخلق ولم يذكرا قبل يومين، ولا ضمن الأربعة إذا اختصت بالثالثة، ولماذا ذلك الاختصاص؟ وذكر أيام بعد أفعال متتالية يقتضي الشمول بطبيعة الحال!

ثم اللفظ الصحيح الصريح لهذا الاختصاص ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾﴿وَجَعَلَ فِيهَا. . .﴾ ﴿وَبَارَكَ﴾ بُعداً عن أي التباس، وكما نراه في تسبيع السماء: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ. . .﴾ حيث خرج الوحي والتزيين عن يومي تسبيع السماء!.

أم إن الأربعة هي الأدوار التكاملية الأرضية بعد خلقها، ذكرت هنا لأفعال ثلاثة، وأجملت في تكملة السماء عن فعليها، فلا هما ضمن اليومين لتسبيع السماء، ولا ذكر لهما يوم؟

إن ذلك لحق تنطق به الآية نفسها، ففيها خلق للأرض، وفيها دون ذلك

---

(١) نور الثقلين ٤: ٥٣٨ تفسير علي بن إبراهيم أخبرنا أحمد بن إدريس عن أحمد بن محمد عن ابن محبوب عن أبي جميلة عن أبان بن تغلب قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام يا أبان - إلى أن قال -: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فُصّلت: ١٠] يعني في أربعة أوقات وهي التي يخرج الله عزّ وجلّ فيما أقوات العالم من البهائم والطير وحشرات الأرض وما في البر والبحر في الخلق من الثمار والنبات والشجر، وما يكون فيه معاش الحيوان كله وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء. . .
أقول: إنها رواية يتيمة في تفسير الأربعة بالفصول الأربعة، فقد تطرح أو تؤول بأنها ضمن المعني من الأربعة.

مما في الأرض، والكل قبل تسبيع السماء: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١) والأيام الستة في آياتها السبع تخص أصل الخلق دون ما فيه!.

وقد تعم ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ الفصول الأربعة دلالة ضمنية تتحملها الآية وتؤيدها الرواية، فـ ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ تتعلق أصالة بالثلاثة تكملة للأرض، وبالأخيرة، الفصول الأربعة بعد التكملة.

إذاً فالمذكورة من الأيام الستة لخلقهما ليست هنا إلّا الأربعة، واليومان الآخران علهما لخلق الدخان، أم يقتسمان بينه وبين خلق الأنجم في السماء الدنيا، أمّاذا من محتملات علّنا نستعرضها.

فالنتيجة الحاسمة المجتثة لجذور المحتملات الدخيلات أن خلق الأرض كان قبل تسبيع السماء، فهو - إذاً - قبل الشمس بمرحلتين إذ خلقت مع سائر الأنجم في السماء الدنيا بعد تسبيعها.

ترى هذه هي الأرض خلقت في أصلها قبل الشمس دون انفصال عنها، فما ترى في تكملتها الثلاث في أربعة أيام، هل هي كما الأرض مدبرة لها بعد يوميها وقبل يومي السماء؟ وآيات النازعات تؤخر ماءها ومرعاها عن بناء السماء!

هنا محكمات في تقديم ما في الأرض كما الأرض، وأخر متشابهات ترجع إلى هذه المحكمات: - فآية البقرة تجمعهما في تقدّمهما على السبع السماوات: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ...﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) نور الثقلين ٢ : ٢٩٢ ح ١٢ تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال قال أمير المؤمنين: إن الله جل ذكره وتقدست أسماؤه خلق الأرض قبل السماء ثم استوى على العرش لتدبير الأمور.

وآية فُصِّلت فَصّلت ما في الأرض ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ... فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ...﴾.

وآيات النازعات هنا متشابهات في جهات محكمات في أخرى، فإنها تصرح أن دحو الأرض فإخراج مائها ومرعاها وإرساء جبالها، هي كلها بعد بناء السماء، دونما تصريحة ولا إشارة أن خلق الأرض بعد بناء السماء، ثم تبقى الأفعال الثلاثة الأخرى المتشابهات بين فصلت والنازعات(١).

فهل إنها كما الأرض قبل تسبيع السماء، أم هي - فقط - بعده وخلقها نفسها قبله.

وهنا تشابه في بناء السماء هل هو تسبيعها؟ فالثلاثة إذاً بعده، أم بناءٌ لها من دخانها قبل سبعها؟ و﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ... فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ قد لا تفسح مجالاً لبناء ثان، فإن القضاء سبعاً مبدؤه - فقط - الدخان، لا شيء ثان! أم أنه بناء الدخان أولاً ثم بناء ثان هو، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾(٢)؟ والدخان ليس فيه ماءٌ ينزل على الأرض، مع العلم أن مياه الأرض كلها من السماء!

أم أن الثلاثة في النازعات متأخرة عن ثلاثة فصلت، تأخر البارز عن الكامن، فقد ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ قبل بناء السماء ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾(٣) بعدها، ثم ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ بنزول تراكيب الماء من دخان السماء ولمّا تصبح بالفعل بركات وأقوات، إذ كانت مخبيّات، ثم ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا

(١) في فصلت ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ...﴾ [فصلت: ١٠] وفي النازعات ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ [النّازعات: ٣١] مهما اختلف الترتيب بين الثلاثة هنا وهناك.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٣) سورة النازعات، الآية: ٣٢.

مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾[١] بعد بطونها وكمونها، إذاً فالثلاثة هي قبل بناء السماء دخاناً أم سبع سماوات، كامنة في الأرض، وهي بعد ذلك ظاهرة، وكما ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[٢] وهي الحركة المعتدلة التي هيأتها لفعلية الحياة، وقد كانت شموساً في حراكات غير معتدلة.

ولأن ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قد تعني - فيما عنت - أقوات الفصول الأربعة، لذلك فمن هذه الثلاث ما هو متأخر عن تسبيع السماء، كما منها المتقدم عليه، ونحتمل أخيراً - بناء على وحدة الثلاثة في فصلت والنازعات ظهوراً وكموناً - أن للسماء بناءين اثنين بعد دخانها، بناءً أوّل أنتج ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾[٣] وهي تعديل لها وتحريك عن حرّ إلى قرٍّ لحدّ إنزال الماء، وبناءً ثانياً هو تسبيعها، فآيات النازعات تعني البناء الأول إذ لم يذكر ضمن أفعالها الثلاثة تسبيعها؟ وآية فصلت تعني البناءين مع بعض، ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها وإرساء جبالها كان بين البناءين!.

إذاً فلا تنازع بين آيات فصلت والنازعات إلا تشابهات ترجع إلى محكمات والله أعلم بما أنزل من محكمات ومتشابهات.

وأمّا نظرات العلماء في انفصال الأرض عن الشمس، فإنها على كونها فرضيات لم تصل لحد القانون العلمي القاطع، ليست لتعارض صراح الآيات أنها خلقت قبل الشمس بمرحلتين، وقد أثبت العلم أخيراً استحالة الواقعية لهذه الفرضية لاختلاف جرمي الأرض والشمس شاسعاً يحيل تولد إحداهما عن الأخرى[٤].

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٣١.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٣٠.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٤) الفرضيات حول تشكيل المنظومة الشمسية كالتالية:

١ - فرضية التصادم لـ : بوفون الفرنسي ١٧٤٩ م. =

هذا - وإلى رجعة تفصيلية بحثاً دقيقاً عن آية التقسيم:

= أنه يذكر في كتاب له بين (٤٤) كتاباً ألفها في التاريخ الطبيعي ويقول حول تشكل المنظومة الشمسية: «الأم الكبرى للعائلة الشمسية كانت تحمل أولادها لزمن مجهول، ثم أخذت في ولادتها، وكلّف كوكب من ذوات الأذناب لإيلادها فضربت بنفسها الشمس في سرعتها الهائلة فتقاطرت منها قطرات، وهذه المواليد الحائرة أصبحت تدور حول أنفسها على أثر هذه الضربة الهائلة فأصبحت عائلة لأمها الشمس.

٢ - الفرضية الحلقوية أو السحابية لـ«كانت» الآلماني ٢٠ - ٣٠ بعد بوفون:

أبطل كانت باستدلالات واستبعادات فرضية التصادم ومنها أن كوكبة صغيرة لا تقدر في صدامها مع الشمس أن تفصل عنها جذوات تصبح كرات، فهذه الفرضية بعيدة في عالم الفرض... وسائر الأدلة المذكورة في محالها - ثم يشرح فرضية الحلقوية بأن الشمس كانت في البداية كتلة وسيعة من الغازات المعتدلة الشاغلة للمنظومة الحالية، وكانت تحول حول نفسها بهدوء فانتقلت مقادير من حرارتها على أثر التشعشعات إلى الأجواء المحيطة بها فانتقصت بذلك حرارتها فانقبضت وتراكمت لحد كثير فزادت حركتها الدورانية فخلقت هذه السرعة زيادة في فرارها عن مركزها وعلى أثرها تسطّح قطبها وانقطعت منها حلقات سقطت على الصفحة الاستوائية ثم تكسرت هذه الحلقات وتراكمت وتحولت عن الحلقات الغازية إلى كرات المنظومة الحالية.

٣ - فرضية «لابلاس» الفرنسي ١٧٩٦ م:

لابلاس يأخذ الفرضية الحلقوية بعين الاعتبار (في كتابه عرض الجهاز العالمي) وعرضها مرة ثانية بشرح أوسع ووجه أبدع ولكنه لم يكن لوقت ما يستدل له بأدلة رياضية -:

ثم - كلارك ماكس ول - بعد ستين سنة من هذه الفرضية - أخذ يجدد النظرية فيها بدقة ووصل إلى النتيجة التالية:

أن تقبل هذه الفرضية يستلزم قبول تناقضات عدة...

ولحد الآن أصبحت الفرضيتان الحلقوية والتصادم مقبورين تلو بعض، ومن ثم أخذ. جمبرلن - مولتون الأمريكي، وسرجس جنس الإنجليزي يجددون حياة فرضية التصادم مرة أخرى، ولأنها لم تكن مثل الحلقوية تشتمل على تناقضات، وفي هذه الرجعة وهي ترث الفرضية السحابية طُرد عنها بعض الاستبعادات التي كانت عليها، فالسيارة ذات الذنب هنا أصبحت ثابتة وجرمها كالشمس لكي تستطيع بصدامها مع الشمس على فصل قطرات منها.

ولكنها رغم هذه الرجعة لم تعد قابلة للقبول، حيث الأصل المفروض فيها وفي زميلتها مظنة المشابهة بين عناصر الشمس وسيارات المنظومة، فماذا بعدُ إذا اختلفت العناصر هنا وهناك اختلافاً شاسعاً.

هنا «ويزيكر» الألماني في كتابه (سر الخلقة) يتبنى تشكل المنظومة على مبنى العناصر التي=

كيف خلقت السماوات والأرض؟ ومم خلقتا؟ ومتى خلقتا؟ أسئلة تطرح نفسها وإليكم إجاباتها:

المادة الأولية لخلق الكون «ماء»؟!

آية يتيمة وحيدة في القرآن تتكفل بياناً مجملاً لأم الكون أجمع: المادة الأولى التي خلقت منها السماوات والأرض وما بينهما: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١) وبيانها الفصل راجع إلى موضعه في «الفرقان».

«كان» هنا تضرب إلى أعماق الماضي البعيد لكينونة «الماء» قبل خلق الأرض والسماء، فليس - إذاً - هو الماء المتولد عنهما وفيهما حيث خلقهما «و» الحال أن ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

= تشكل الشمس وسائر المنظومة قائلاً: إن الفيزيا النجومية كشفت عن اختلاف العناصر بين الشمس وسائر المنظومة.

ثم «شترومكرن» بعد تأمل زائد حول كيفية هذه العناصر حصل على نتيجة: أن ٣٥٪ من جرم الشمس يتشكل من خالص الأوكسيجين، ومن ثم تبين أنه ٥٠٪ وقسم كبير منها هليوم.

ثم «شوارتس شيلد» استمر في تكامل هذا المبنى، وعلى أثر التجزئة الدقيقة الطيفية من سطح الشمس أنتج أن الشمس تشتمل - فقط - على ١٪ من العنصر الأرضي و٩٩٪ منها مركب من نيدروجين بكثرة وهليوم بقلة.

هذا آخر ما أنتجته التحقيقات حول عناصر الشمس وسائر المنظومة، مما يحيل حسب العادة انفصال الأرض وسائر المنظومة من الشمس.

ومن لباب العجاب أن «ويز زيكر» وهو أول كاشف لاختلاف العناصر يرتجع إلى فرضيتي كانت ولابلاس موجهاً ذلك الاستبعاد أن الحلقات المنفصلة عن الشمس علّها من ١٪ من جرمها المشابه لأجرامها، حيث الشمس كانت مائة أضعاف حجمها الفعلي وعلى أثر الحركة الدورانية انفصلت عنها - فقط - العناصر الـ ١٪ التي تشكل الأرض وسائر المنظومة.

هنا نعرف مدى بطلان هذه الفرضيات، وصحة البيان القرآني الناصع، أن لا صلة بين الأرض والشمس إلا في المادة الأم «الماء» وأن الأرض متقدمة على الشمس في أصل تكونها، وإن كانت تستضيء منها حال اعتدالها الحيوي الحالي.

(١) سورة هود، الآية: ٧.

والعرش فيما يعنيه من معانيه هو السلطة والبناء، وقد كانت سلطته التدبيرية قبل خلق الأرض والسماء على الماء إذ لم يكن دونه كائن، وكان بناؤه سائر الخلق على الماء إذ لم يخلقهما دون مادة سابقة.

وقد وردت في بعد هذا الماضي لكينونة الماء رواية ما أرواها وأروعها عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تضرب إلى مليارات من سنّينا والله أعلم[١] وعن سائر العترة الطاهرة كلمة واحدة في متظافر الرواية «كان كل شيء ماءً وكان عرشه على الماء فأمر الله الماء فاضطرم ناراً ثم أمر النار فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الرماد»[٢] مما تتأيد بالقرآن ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ . . .﴾[٣].

«الماء» هو الخلق الأول إذ لا خلق غيره، المادة الأولى إذ لا مادة سواها «ولو كان أوّل ما خلق من خلقه، الشيء من الشيء، إذاً لم يكن له انقطاع أبداً، ولم يزل الله إذاً ومعه شيء ليس هو يتقدمه، ولكنه كان إذ لا شيء وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب

---

(١) في تفسير البرهان ٢: ٢٠٨ عن تفسير العياشي سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن مدة ما كان عرشه على الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء فقال: تحسن أن تحسب؟
فقال - السائل - نعم فقال عليه السلام: لو أن الأرض من المشرق إلى المغرب ومن الأرض إلى السماء حب خردل ثم كلفت على ضعفك أن تحمله حبة حبة من المشرق إلى المغرب حتى أفنيته لكان ربع عشر جزء من سبعين جزءاً من بقاء عرش ربنا على الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء ثم قال: إنما مثلت لك مثالاً.
أقول: هذا الزمن الهائل هو من زمن بقاء العرش مع الماء، ومع النظر إلى بطء الحركة العادية، والسعة الهائلة بين المشرق والمغرب وعدد حبات الخردل ملأ الأرض والسماوات، والزمن الذي يتطلب نقل كل من المشرق إلى المغرب، يفوق عمر المادة الأولية بليارات البليارات من السنين الضوئية، ويا لعلم الإمام حيث يحيط بهذا الزمن دون أن يلفظ بحدة إذ لا يحده القلم!

(٢) رواه الكليني في الكافي بسند عن محمد بن مسلم، قال قال لي أبو جعفر عليه السلام . . .

(٣) سورة فصلت، الآية: ١١.

كلٌ شيءٍ إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إلى شيء»(١).

إذاً فليس هو - قطعاً - مائنا (H_2O) منسوباً إلى أبوين، ولا أي عنصر أو جزئي أو ذرة حتى الإيدروجين حيث النسب يشملها كلها فهي - إذاً - المادة الأولى المعبّر عنها هنا بالماء لمناسبات شتى قدمناها في موضعها.

ذلك أن الماء على أثر تفجّره فوق الذرية اقتسمت إلى زبد الأرض ودخان السماء، وهذه أولى الفتقات بعد رتقات للأرضين والسماوات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾(٢).

فقد كان هنالك رتق أوّل إذ كانتا ماءً ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ في تلك التفجرة عن مادتها الأولى، وفتق ثان اقتسام كلٍّ إلى طبقات سبع، وثالث فتق السماء بالأمطار وفتق الأرض بالإنبات، ورابع فتق السماء بالوحي وفتق أراضي القلوب بتقبل الوحي، أماذا من فتق بعد رتق فصلناها في موضعها.

آية الدخان هنا تشير إلى ما خلّفه الفتق الأوّل ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ ثم الثاني ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ ورابع ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ وبينما الثالث يشار إليه في تكملة الأرض: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ إمطاراً من السماء فإنباتاً من الأرض.

وترى هذه السماوات نرى مادتها المرتوقة «دخان» وفتقها إلى سبعها هنا، فأين المادة الأرضية وأين فتقها إلى سبعها؟ وأين سبعها؟.

---

(١) الكليني في روضة الكافي بإسناده عن محمد بن عطية قال جاء رجل إلى أبي جعفر عليه السلام من أهل الشام من علمائهم - إلى أن قال -: وكان الخالق قبل المخلوق ولو كان..

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٣٠-٣٢.

﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ تشير إلى أصلها مادة كثيفة تناسبها كما السماء في دخانها، ثم ومن ﴿ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[1] تشير إلى انقسامها إلى سبعها، ومن ثــم ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا . . .﴾ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ تشير إلى موازاة انقسامها إلى سبعها مع تسبيع السماء ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ متداخلين لهما لذلك التقسيم الجسيم! فسبع الأرض ومادتها في مراحلها الثلاث غامضة مرموزة دون سبع السماء بمادتها، ونحن نسكت عما سكت الله عنه، ونستلهم ما ألهمه رمزاً كما هنا.

فلولا تسبيع الأرض مع تسبيع السماء في يوميها فلماذا خطاب التكوين لهما «ائتيا. .» ولماذا الجواب تقبّلاً لتكوين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾؟

ولأن الأرضين السبع هي في السماوات، وعلّ كل واحدة منها في كل واحدة منها، لذلك ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ و«هن» جمعاً باعتبار الأول إلى سبع وسبع، فهنّ إذاً أربع عشر طبقات.

هذان يومان من أصل الخلق يختصان بخلق السماء والأرض طباقاً، وقبلهما يومان لخلق الأرض الأمّ إمّا ذا من أرض: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وهل للسماء الأم ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ من نصيب في الباقين من الستة، وهل لـ ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ من نصيب فيهما؟ نعم بطبيعة الحال، فإنهما ضمن خلق السماوات من طباقها وكراتها وقبلهما دخانها، كما الأرض الأم وطباقها، أمور خمسة حصلت في ستة أيام!.

فهل - بعدُ - يبقى نصيب لخلق المادة الأم «الماء»؟ كلّا، لأنه ليس من خلق السماوات والأرض في شيء إذ لم تكن حينها لا سماء ولا أرضاً، ولا يعني خلقهما إلّا الزبد والدخان الحصيلين من التفجرة فوق الذرية في المادة

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

الأم، فلخلق الأرض يومان، ولتسبيع الأرض والسماء يومان، ثم الآخران يقتسمان بين دخان السماء وزينة السماء الدنيا.

أم وكما تداخل السبعان في يومي السماوات، كذلك التداخل للأرض والدخان في يومي الأرض، فيبقى أخيران لزينة السماء الدنيا!

ثم اليومان لخلق الأرض قد يتخللهما اليومان لتسبيع السماء والأرض، فتتأخر الأفعال الثلاثة للأرض في أيامها الأربعة عن استقلال هذه الأرض، مهما شملت هذه الثلاث سائر الأرضين السبع!

وعلى أية حال هنا محكمات في ذلك التقسيم العضال، يومان لخلق الأرض، ويومان لتسبيع السماء، ثم لا ندري كيف التقسيم في الآخرين.

ومن ثم تداخل السبعين ليومي تسبيع السماء، ولا ندري هل تداخل الأرض والدخان في يومي الأرض أم لكلٍّ نصيبه متفاصلاً؟

ولأن خلق الأرض كما السماء يشمل مرحلتي الوحدة الأم والكثرة السبع، فـ ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ قد يعني يوماً لخلق الأرض الأم ويوماً لتسبيعها مع السماء، فتصبح الأربعة - إذاً - ثلاثة، فثلاثة باقية لسائر الخلق!.

هنالك نصوص وظواهر هي بدرجاتها محكمات، وهنا مبهمات مجملات متشابهات، نؤمن بما تشابه منها ونعلن ما أحكم فيها نصاً بنص وظاهراً بظاهر والله أعلم بما قال!

ثم لا بد لنا من تحقيق معمّق أنيق حول ذلك التقسيم في رجعة ثالثة إلى آيات التقسيم:

﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾؟

ترى أنها أرضنا هذه التي نسكنها؟ حيث الأرض في كافة إطلاقاتها في سائر القرآن تعنيها لا سواها.

لكنما الأرض كما السماء تعني جنسها الشامل للسبع إلّا لقرينة تخصها، والخطابات القرآنية تعم كافة المكلفين فلا تخص أهل هذه الأرض، ولو أنها هذه لا سواها فكيف اقتسمت مع السماء إلى سبع؟ أوَليس لسائر السبع نصيب من يومي الخلق وأربعة التكملة، وقد شملتها الأيام الستة في خلق السماوات والأرض!.

أم أنها السبع حيث الإطلاق يشملها، وآيات خلق السماوات والأرض تؤيدها؟ إلّا أن «قضاهن» الشامل لقضاء الأرض سبعاً، تعارض سبعها قبل تسبيعها!

أم أنها الأرض الأم خلقت في يومين، ثم في «قضاهن» اقتسمت سبعاً؟ وكيف تقتسم بعد كمالها الثلاثة في أربعة أيام؟ والظاهر من ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ كل خلق جوهري لها فيشمل تسبيعها!

علّ الثلاثة أوسطها أولاها، أن خلقت سبعاً «في يومين» واستكملت في أربعة، ثم تمكنت في «قضاهن» اقتساماً في السماوات السبع، فالقضاء لدخان السماء تسبيعها، وللأرضين السبع تمكينها عن جمعها إلى مكانات أُخرى، ولذلك ترى النص يخص ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ بذلك القضاء، وتهمل عن سبع أرضين، مع العلم أنها داخلة في القضاء، والفارق أن قضاء السماء تقسيم لها إلى سبع، وقضاء الأرضين تحويل لها إلى سماواتها.

وقد يساعد هذه الوسطى أدب اللفظ حيث يقدم الأفعال الثلاثة على تسبيع السماء، وواقع المعنى، إذ من البعيد جداً اقتسام الأرض سبعاً بعد تكملتها، وتساعدها الروايات المستعرضة لها[١].

---

(١) ومنها رواية الكافي عن الصادق عليه السلام «وفي يوم الأحد والاثنين خلق الأرضين» تفسير البرهان ٢: ١٧٧ وفيه ٢: ٢٠٧ عن تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عنه عليه السلام مثله. ومنها ما في شرح النهج للخوئي ١: ٣٩٣ عن النبي صلى الله عليه وآله «فخلق من زبده الأرضين السبع..» =

وهنا اليومان قد يقتسمان إلى خلق الأرض الأم، واقتسامها إلى سبع ومن ثم الأربعة التكاملية للثلاثة، ولو أنّ تَقَسُّم الأرض إلى سبع كان في غير يوميها، موازياً لسبع السماء أمّاذا؟ فالمحتملان التاليان في موردها:

١ - يوم للأرض الأمّ الحصيلة عن تفجرة الأم الاولى: «الماء» ويومٌ لتجميدها بعد ذوبانها وقد تؤيده ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا...﴾(١) حيث ذلت بعد شماس، واعتدلت بعد ارتكاس، فلشماسها يوم ولذِلّها يوم.

٢ - أم أن يوماً لحالتي شماسها وذِلّها والآخر لدحوها ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾(٢) وعلى أثر دحوها وحراكها، تصلّبت رواسيها شيئاً فشيئاً في أعماقها ف ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا...﴾ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا...﴾ كبداية للأعمال الثلاثة في الأربعة التكاملية.. أماذا؟

ولكنما الأوفق للمحات الآيات وتصريحات الروايات وقضية الترتيب الطبيعي علّه ما قبلهما، أن الثاني لتسبيع الأرض، ثم الأربعة لتكامل السبع، ومن تمكينها في مكاناتها بين السماوات السبع، ثم إخراج مائها الكامن فيها ومرعاها الباطن لها، وإرساء جبالها في أعماقها بعدما جعلت من فوقها، وخالقها أعلم بما قال.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا ... فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ...﴾

= ومنها ما في دعاء عرفة عن الإمام الحسين عليه السلام: «تسبح لك السماوات السبع والأرضون ومن فيهن» وفي القرآن «الأرض» مكان «الأرضون» مما يدل على أنها معنية من «الأرض» وقد يدل عليه أو يؤيده ما في الدر المنثور ٥ : ٢٦١ عن عكرمة أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، يوم الأحد قال: «خلق الله فيه الأرض» وجاءت الرواية المتظافرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم وعن عترته عليهم السلام أنها خلقت يوم الأحد والاثنين، كما في نفس المصدر أخرج ابن جرير عن أبي بكر قال جاء اليهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين.. إذاً فاليوم الثاني لتسبيع الأرض بعد خلقها.

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٣٠.

هنا افعال ثلاثة في أربعة أيام، فكيف التقسيم لثلاثة بين أربعة؟.

تعرّفنا من آية الذّلول حالتي الأرض في شماس وذِلٍّ، فقد كانت في أوّل أمرها شماساً: متحرقة مذابة وفي حراكات مضطربة كما الدابة الشّموس، فحركتها الدورانية من ناحية، ومساس سطحها الخارجي مع الهواء من أخرى ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ كبداية لخلق الجبال ولمّا ترسو الجبال في أعماقها، وإنّما أمواج على سطح الأرض، وكما يسأل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مِمَّ خُلِقَت الجبال؟ قال: من الأمواج»[1] وعلّه اليوم الأول من الأربعة لبداية خلق الجبال.

ثم وتّدها في أعماق الأرض لما أخذت الأرض تجمد من ظاهرها إلى أعماقها ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ تعني التي جعلت فيها من فوقها وأرساها في متنها وعمقها، فللجبال حالة أولى هي نصبها ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾[2].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾.

وحالة أخرى بعدها هي إرساؤها ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ وتوتيدها ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[3] أن تميد بكم ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[4] «وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصم من صياخيدها فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملِها» «ووتد بالصخور ميدان أرضه» وهذا من دحوها الذي خلّف إخراج مائها ومرعاها بعدما ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾!

هذان يومان كما يقول القرآن لنصب الجبال وإرسائها، وقد يصادقه نظرات المعرفة الأرضية أن اليوم الأول لبداية ظهور الجبال والثاني لإرساء الجبال في قطع أديمها والأول ٣٦٠ مليون سنة والثاني ١٣٥ مليون سنة.

---

(١) تفسير البرهان: ١٠: ٣٢٧.
(٢) سورة الغاشية، الآية: ١٩.
(٣) سورة النبأ، الآية: ٧.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٥.

فالملاحظ في الدور الأول ظهور «كالدونين وهرسى نين» وفي الثاني أغلب الجبال الفعلية، والأصل هو المستفاد من القرآن ليومي جعل الجبال وإرسائها.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾.

مباركة الأرض هي تحصّل المياه فيها وتهيُّئها لتبريك الأرض ببركاتها وبِذلِّها بعد شماسها وقرِّها بعد حرِّها، واعتدال حركاتها بعد اضطرابها، وتقول النظرية معرفة الأرضية: إن هذا الدور لم يعد طائلاً إلّا ٥٤ مليون سنة والأكثرية الساحقة من الماء والكلأ التي نعيشها الآن هي من ذلك الدور، وهي أهم الأدوار الجغرافية العمارية لأرضنا، لها أهميتها بين أدوارها.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾.

علّها أخذ في تنظيم الفصول الأربعة، ولأن الأقوات ليست إلّا لذويها فهو دور ظهور الحياة الحيوانية والإنسانية على وجه الأرض، وتقول النظرية إن هذا اليوم الرابع يقدر بـ ٠٠٠, ٣٠٠ سنة التي ظهر فيها الإنسان(١).

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

يعني المحتاجين لأن كل محتاج سائل، وفي العالم من خلق الله من لا يسأل ولا يقدر عليه من الحيوان كثير «فهم سائلون وإن لم يسألوا»(٢) فمن سائل يسأل بلسان القال، ومنه من ليس له قال أم لا يسأل بقال فسؤاله - إذاً - بلسان الحال، ومن سائل يسأل قبل كونه سؤال الحاجة الذاتية للاستكمال، فهنالك مثلث السؤال «فهم سائلون» بسائر السؤال «وإن لم يسألوا» بلسان القال!

---

(١) وهذا على فرض صحته لا ينافي عمر هذا النسل المقدر بزهاء عشرة آلاف، فإن قبله أنسال إنسانية كما فصلنا في آية الخلافة في البقرة.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٣٨ تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل حول تفسير آية التقسيم.

﴿يَسْئَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾(١) ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ . . .﴾(٢).

وترى البركات والأقوات السواء للسائلين هل هي قدر السؤال وحسَبها؟ إنها قدر الحاجيات والمصلحيات دون إفراط فيها ولا تفريط، فالنبات يأخذ من الماء والهواء ومن القرّ والحرّ قدر الحاجة، والحيوان آخذ منها كما يحتاجه، وعلى الإنسان أن يعدل فيما يأخذ دون أثرةً ولا كبرياء، اقتطاعاً لأكثر مما يحتاجه مهما كان من سعيه، فواويلاه إذا كان من مساعي الآخرين!.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ . . .﴾.

ذلك استواؤه الاستيلاء لخلق الدخان سبعاً كما خلق الأرض في يومين ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣).

هنا وهناك «استوى إلى» وبعد خلق السماوات الأرض «استوى على» والفارق بينهما أن الأولى استواء لخلقهما، والثانية استواءٌ لتدبير أمرهما: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤).

استوى إلى السماء لخلق لها ثان وهي دخان، حالة ثانية للمادة الأم، فنصيب السماء دخان ثائر، ونصيب الأرض زبدٌ مائر، وليدان اثنان إثر التفجرة فوق الذرية للوالدة الكبرى «الماء».

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٩، ٣٠.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

ترى ما هي «الدخان» ولم يأت ذكرها إلّا هنا وفي «الدخان»: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾(١).

ليس الدخان - فقط - الصاعد عن محترق الحطب وأضرابه، بل هو المستصحب للهيب أيّاً كان: من لهيب الأحطاب والفحوم الحجرية، إلى لهيب الفلزات المذابة على درجاتها الحرارية المختلفة، وإلى لهيب الغازات الصاعدة عن التفجرات الذرية على درجاتها الحرارية، إلى الإيدروجين وقد شكلت الكرة الشمسية منها في قسم كبير من جرمها، ففي مركزها ٧٠ مليون درجة من الطاقة الحرارية، وإلى ٣٨٠ مليون درجة كالتي في مركز الشعري وهي تبعد عنا ٥٠٠٠٠ ضعف الشمس، وهنالك درجات فوقها لم يصل العلم إليها حتى الآن، والتي وصلها ليست إلّا من وليدات الدخان الأم.

وهل هنالك بناءٌ للسماء بين دخانها وطباقها كما بنيت الأرض أرضاً ما، ثم انقسمت إلى سبعها؟ علّه نعم، فالتسوية سبعاً تتحمل للسماء بناءً أولاً هُو لها وحدها بتحويلها عن دخانها إلى حالة أخرى، فيه ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾(٢) وثانياً هو تسبيعها، فخلق الأرض وما فيها هو قبل تسبيع السماء كما تقول آية البقرة وفصّلت، ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها هو بين بناء السماء وتسبيعها.

فـ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ لبنائها سماء وتسويتها سبعاً وكما:

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ...﴾.

وتراه قولاً قولياً؟ وليست الأرض والسماء من أهل المقال، ولا خيرة

(١) سورة الدخان، الآيتان: ١٠-١٢.

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

الأفعال «طوعا» وإذ لا تختار فـ«كرهاً»! فهو - إذاً - قوله الفعل تكوينياً كما في سائر تكوينه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١) وتعبيره عن فعله بقوله إشارة إلى نفاذ أمره دونما نظرة للفاعل ولا من القابل، وهي فيهما لكل فاعل غير الله ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾(٢) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾(٣) فهذه السجدة وذلك التسليم تعطفان إلى طواعية شاملة للكون أمام أمر التكوين في بداية الخلق ونهايته، فقد «خلق السماوات موطّدات بلا عمد قائمات بلا سند، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متلكئات ولا مبطيات»(٤) «ذلل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها»(٥) فقد كان التحامها - وعلّه بناءها سماءً قبل سبعها - كان ذلك بدعائها والأرض «ائتيا» ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فكان في إتيانهما بناءٌ لهما ثان بعد دخان السماء وزبد الأرض أماذا؟

وفي ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إشارة إلى حتمية إرادته، أن لو كانت لهما خيرة لامتنعتا، فإتيانهما - إذاً - واقع كرهاً، ﴿قَالَتَآ﴾ بلسان الكينونة والحال وواقع المحكي المقال: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾! فعل العاقل اللبيب والسامع المجيب جرياً على المراد ووقوفاً عند الحدود والأقدار، من غير معاناة طويلة ولا مشقة شديدة، فكانت في ذلك جارية مجرى الطائع المميز إذا انقاد إلى ما أُمر به ووقف عند ما وقف عنده!

﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ هل السماء فحسب؟ والإتيان بعد الأمر لهما دونها فحسب!

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.
(٤) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.
(٥) المصدر السابق.

أم لهما؟ وهذه جمعٌ وهما اثنان!.. إنه قضاؤهما سبعاً، سبعاً في سبع، علّ كل أرض استكنت في سماء أماذا؟ وما ألطفه تعبيراً أن الأرض ما كن السماء كسائر الأنجم حيث يحول حولها الفضاء، ليست على قرني الثور أو ظهر الحوت أماذا من أماكن اختلقتها أيدي الجهل والجعل! ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ دورين من الأدوار الستة لخلق السماوات والأرض، وذلك قضاء تكوين ثان للأرض والسماء، أياً كان فإنه «قضاهن» لا «لهن» أو «إليهن» أو «عليهن» أم سائر القضاء التي تحمل سائر معاني القضاء!

أترى أحدها لتسبيع السماء والآخر لتزيين السماء الدنيا بمصابيح كما يروى[(١)] ولو كان لذلك التزيين نصيب منهما فصحيح التعبير إذاً «فقضاهن.. وزينا. في يومين»! فنصيبه - إذاً - من اليومين الباقيين.

أم إنهما - فقط - لتسبيع السماء كما في رواية أخرى[(٢)] وهو الصحيح الفصيح من آيتهما فتصدّق روايته ويعرض عن الأخرى.

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾:

وذلك الوحي - أياً كان - يشمل الوحي في كل أرضٍ كما في كل سماء كما ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ...﴾[(٣)] وهو الأمر الموحى في كلٍّ من السماوات السبع والأرضين السبع: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣٦٠ في رواية ابن عباس الماضية عن النبي ﷺ: «وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة...أقول: وقد سبق صدرها أنها تصرح ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] تعني في تتمتها وهي أيضاً خلاف ظاهر الآية فالرواية بمجموعها مطروحة لمخالفة الكتاب.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٣٩ ح ٧ في روضة الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث تقسيم أيام الخلق: «وخلق السماوات يوم الأربعاء ويوم الخميس..» وروى مثله القمي عن الرضا عليه السلام.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

يَعْرُجُ إِلَيْهِ. . .﴾[١] و﴿كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ تلمح باختصاص كلٍّ بوحي خاص، اللّهم إلّا وحي الشرعة الشاملة لكل عام وخاص!

أترى أن الأمر الموحى في كل أرض وسماء هو التكويني فقط؟ ولا يناسبه الوحي، وإنما القضاء أماذا من صيغ التكوين! أم هو التشريعي؟ فلماذا ﴿فِي كُلِّ سَمَآءٍ﴾ دون «إلى»! أم إنه يعنيهما، والوحي «في» جامع للوحيين «لـ» كما للأرض ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[٢] رمز في التكوين بعدما كونت أماذا من خلقٍ يعبِّر عنه بـ«أوحي» ثم الثاني: الوحي «إلي» كما إلى الأنبياء والملائكة أمّن ذا من مؤمن بارع، وإلى حيوان صانع كما ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[٣]! فلكلٍّ سماءٍ ولكلّ أرضٍ أمرٌ من الأمور: أشياء وأفعالاً، وأمر من الأوامر شرعة ففعالاً[٤]، وهما من الأمر المدبّر من السماء إلى الأرض والعارج إليه.

والأمر أياً كان يقابل الخلق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾[٥] فهو التدبير للخلق مادياً: وحياً لخلق، أو معنوياً: وحياً إلى خلق، يجمعهما ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾!

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

والسماء الدنيا هي أدنى السماوات السبع إلينا، فهي الأولى بالنسبة لنا، أم هي الدنيا بالنسبة للأرضين السبع كلها في احتمال أنها كلها في السماء الأولى، وعلّ الأولى أولى كما قد تقتضيها: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ و«مصابيح» هنا هي «الكواكب» في الصافات، تشمل كافة الكرات الصابحة،

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٥.
(٢) سورة الزلزلة، الآية: ٥.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٨.
(٤) حيث الأمر بين هذه المعاني الثلاثة: الشيء - الفعل - مقابل النهي.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

السابحة في خِضم البحر الملتطم، مرئية بعيون مجردة ومسلحة أماهيه؟ وهي تشمل شمسنا، فهي متأخرة عن أرضنا وعن الأرضين كلها، فليست هي والدة لها، بل هي وليدة غازات في السماء الدنيا كما والأرض حيث، انتهيا إلى الجدة الأولى «الماء»!

وهذه الكرات مصابيح لمن يستصبحها، وحفظاً من كل شيطان مارد، أماذا من حكم أُجمل عنها ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

قد لا يريبنا شك أن لتزيين السماء الدنيا نصيباً من اليومين الباقيين، كما ولد خان السماء نصيب منهما، فهل هنا نصيب ثالث لـ ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾؟ بطبيعة الحال نعم، ولكنه أنى؟ وقد قُضيت الستة، ولكنه لا، حيث الوحي «في» ليس من الخلق، وإنما هو تدبير شرعة وتكويناً للخلق، وهو بعد أصل الخلق، فإنما الشركاء في الأيام الستة، الأرض بتسبيعها والدخان بتسبيعها وتزيين السماء الدنيا.

فذلكة حول أيام الخلق:

أسماء أيام الأسبوع التي تتكرر في أحاديثنا لا تعني أنها بقدرها هي أيام الخلق، بل هي صيغ فرعية عن الأيام العالمية أو الأرضية المختلفة مع بعض بالآفات المضاعفات، خلافاً للخرافات التي أقحمت في التوراة أنها أيامنا هذه بلياليها!.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ
جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ
شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي
خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا
صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ
ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ
عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ
يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم
بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ
ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا
كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن
ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم
بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى
لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ
لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن
قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

... إنها جولة في مصارع الغابرين عِبرة للحاضرين بعد تلك الجولة العابرة في خلق السماوات والأرضين، مما تهز القلوب المقلوبة وتعز الصافية النقية ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ بعد ذلك العرض العريض للرحمة الكونية والشرعية الشاملة، وتلكم البراهين الكاملة على التوحيد ﴿أَعْرَضُوا﴾ عن رب العالمين، فلا دواء لدائهم العضال إلّا أشد الإنذار ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ تصعقكم ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أفهذا هو بنفسه الإنذار؟ وصيغة الماضي تضربه إلى ماض! فأين كان ذلك الإنذار - إذاً - ومتى؟ لا نجد في سائر القرآن إنذاراً لهم سابقاً كصاعقة عاد وثمود أم أية صاعقة، فذلك، - إذاً - هو هو بنفسه، تعبيراً بماض تأكيداً لمستقبل قاض! أم إنه إنذار ماض فيما استعرضت صاعقة عاد من آيات، فإن قصص القرآن عما مضى بشارات وإنذارات لمن يستقبل، ولا يُعنى من قصِّها على اللاحقين إلّا عبرة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾[(١)] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[(٢)].

ولأن الإنذار ليس إلّا بواقع يستقبل المنذَرين أم في حال، فلتكن لهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأين هي وأنّى؟

لعاد وثمود والمصعقين من قبل ومن بعد، قد تكون صاعقة في الأولى وأخرى في الأخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[(٣)] أم هي - فقط - في الأخرى كما هنا!

فلأن صاعقة الأخرى هي أخزى فقد أنذروا بمثل صاعقتهم وأخزى، فإن عذاب الأخرى أشد وأنكى، إذ تضم لهم إلى صاعقتهم ما استحقوها في الأولى، فأولى لهم ثم أولى!

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٦.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١٦.

والصاعقة هي التي تصعق غشية أو إماتة من صواعق الرعد والبرق: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[١] أم صاعقة ريح صرر قرٌّ صرٌّ: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾[٢] وهي عاتية: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾[٣]، أم صيحة خاصة كما في ثمود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ . . . أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[٤] وقد جمعتهما «صاعقة» ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ. . .﴾[٥] أم صيحة تحشرهم جميعاً إماتة وإحياءً: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[٦] أم صاعقة الجحيم، فقد تشملهم صواعق العذاب إلّا التي في الدنيا لمن أنذرهم الرسول ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[٧].

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝١٤﴾:

«هم» هنا عاد وثمود، رجعاً لجمعهم مهما كانوا اثنين، فمن هم الرسل التي جاءتهم ولم يكن إلّا صالح وهود؟ وماذا تعني ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؟ ولا تجيء الرسل إلّا بين أيدي المرسل إليهم حضوراً، لا غيّباً في ماض أو مستقبل! إنها آية عديمة النظير في مجيء الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، إلّا التي لعاد في الأحقاف ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ

(١) سورة الرعد، الآية: ١٣.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٦.
(٣) سورة الحاقة، الآيتان: ٦، ٧.
(٤) سورة هود، الآية: ٦٨.
(٥) سورة فصلت، الآية: ١٧.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٧) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] [2] الرسل من بين أيديهم هم المعاصرون لهم، صالح وهود في أصل الدعوة، ومن معهم من الرسل حيث وصلتهم دعوتهم المناصرة لتلك الدعوة، وليست الرسل المستقبلية إذ لا صلة لهم بعاد وثمود حضوراً ولا وصولاً إذا هم غيّب! ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ هم الرسل الذين خلوا من قبل، فقد جاءتهم دعوتهم في بُعدي إنذار آبائهم فهم إذاً منذرون، ثم وصول دعوتهم من طرق أُخرى، فلا يُعنى من مجيء الرسل إلّا مجيء الرسالة، كما جاءت الرسالة الإسلامية ملأ العالمين من الجنة والناس أجمعين وإلى يوم الدين، ولم يبق الرسل إلّا شذراً من السنين.

أم وفي وجه أوسع ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ تعم الحاضرين ومن يستقبل، كما ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ تعم كافة الماضين، تدليلاً على أن الرسالة القائلة بتوحيد الله واحدة مهما كان الرسل عدّة، فليس فاصل الزمان والعِدَّة والعُدَّة بالتي تفصل بين الرسالات، فرسول واحد - بهذا الصدد - هو الرسل كلهم يحمل الرسالات كلها، فتصديق واحد منهم تصديق لهم أجمع ولها كلها، كما وتكذيب واحدٍ تكذيب الآخرين، لذلك نرى ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4] و﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾[5].

ووجه ثالث مجيء الرسل من كافة الجهات والجنبات، حيث استغرقت الحجج كلها: حسية وفطرية وعقلية وكونية أماذا ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[6] تبلغ البالغين، من ألقى منهم السمع وهو شهيد، وقد تعني ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ مثلث الجهات والوجهات!

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢١.
(٢) راجع الفرقان: ج ٢٦.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٢٣.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ١٤١.
(٥) سورة الشعراء، الآيتان: ١٦٠، ١٦١.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ...﴾ ولكنهم أعرضوا كما أعرضتم «وقالوا» كما قلتم ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ فـ ﴿لَوۡ﴾ إحالة منهم أولى لإرسال الرسل، و﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ إحالة ثانية أن يكون بشراً لو أنزل، و«ربنا» دون «اللّه» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» إحالة ثالثة، فإنه - وهو ربنا - لم يرسلنا ونحن بشر كالمرسلين البشر، فهم - وهم ناكرون للرسالات الإلهية - يعتذرون في نكرانهم بثالوثهم، وحجتهم داحضة عند ربهم لو كانوا يعقلون.

﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥﴾:

وهل هناك استكبار بحق حتى يوصف هنا ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؟ علّه كقتلهم النبيين بغير حق تأكيداً لبطلانه! أم ولأن استكبار المستضعف أمام المستكبر الظالم هو استكبار بحق، أخذاً لحق أو دفاعاً عن حق، وقد يروى أن التكبر مع المتكبِّر عبادة! ولكنه ليس استكباراً فإنه طلب الكبر لمن ليس بنفسه كبيراً أو لا يحق له الكبر، ولا تجد في سائر القرآن استكباراً بحق فكلُّه دونما استثناء بغير حق، وقد تعنيهما ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ حيث الاستكبار الحق هنا ضمن المعني المتحرز عنه ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

وفي تاريخ الاستكبارات الباطلة قوّات بعضها فوق بعض ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ... أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ...﴾[1] فمنهم أولاء وهم كانوا أشد منكم قوة، وثالث هم أشد من أولاء ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟ كأن لم يروا أشد منهم قوة، فإذا لم يروا

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[(١)] أوليس الله بقادر على أن ينتقم منهم؟ ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ هؤلاء الحماقى الطغاة السرسريين ﴿رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾[(٢)] وكما السرسر هي بالغة الشر، كذلك الصرصر هي بالغة الصر والقرّ، والأيام النحسات هي سبع ليال وثمانية أيام حسوماً مجتثة جذورهم ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ...﴾[(٣)] أترى أن هناك أياماً بين الأيام هي بنفسها نحسات وهي من قالة المنجمين؟ كلا! حيث النحوسة والسعادة في زمان أو في مكان هما الناتجتان عما يحصل فيهما، دون ذاتية لأيّ منهما في نحوسة أم سعادة، وهما ترجعان إلى عملية الإنسان ونويّته النحسة أو السعيدة، دونما قضاء فيهما وقدر لهما لا تمتّ بصلة لما يعمله الإنسان.

ذلك ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وصرصرهم في الآخرة أخزى وأنكى ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ خزياً زائداً على الأولى في بُعديه فإذا هم يظنون نصرة في الأولى فـ ﴿الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بل ويخذلون ويُرذلون! ألا «واتعظوا فيها بالذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ حُمِلوا إلى

---

(١) فالواو هنا عطف على محذوف هو «ألم يروا» وإلا لم يكن لها موقع أدبي ومثله كثير في القرآن.

(٢) راجع الفرقان ٣٩: تجد تفصيلاً زائداً لعذاب الصرصر في آيتي الحاقة والقمر وقد ذكرت عاد في القرآن - وهم عاد الأولى - ٣٤ مرة وثمود ٢٦ مرة ولم يذكر قوم طغاة كما ذكراً فإنهم أظلم وأطغى.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ٨.

قبورهم فلا يدعون ركباناً، وأنزلوا فلا يدعون ضيفاناً، وجعل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران»[1].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾:

هذه الهداية هي العامة بآرائة طريق الهدى عن الردى، فإذا استحبوا العمى على الهدى فهم إذاً في ضلال قاصد بعناد زائد ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ وعلّه في بُعدي القلب والقالب، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2] ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾[3] وهي الصيحة: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾[4] وبالرجفة الطاغية: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[5] وثالوث الصيحة الرجفة الصاعقة هي من عذاب الهون ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وقد تعني ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ واقع الهدى بعد آية الناقة، ثم ردَّتهُم بعد ردح قليل منها، وترى إذا يستحب الإنسان عماه على هداه فهل هو مايز هداه عن عماه؟ أو على علم يستحب المكروه على المحبوب؟ وليس هكذا أي حيوان، بل أية حشرة فضلاً عن إنسان، اللّهم إلّا ذو جنّة فاقد عقله وتمييزه، إذاً فلماذا صاعقة العذاب الهون، للمجنون!

ولكن إذا كانت الفطرة الإنسانية وعقليتها مقياس الاستحباب فلا

(١) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ٥.
(٤) سورة هود، الآيتان: ٦٧، ٦٨.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٧٨.

يستحب الإنسان إلّا هداه، فالذي ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[١] ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٢] هذا يستحب هواه على هداه، أم ليست هداه إلّا هواه ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾[٣] ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٤] إذاً ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ وهم يعرفون[٥] ولأن العمى هنا تقابل الهدى فهي ظلام البصيرة، والمتاه في الغواية، والهدى بصيرة مختارة، يتركون هذه إلى تلك باختيار دون جنّة ولا إجبار، فإن ذلك أخف على الإنسان، وأشد ملائمة للطباع من تحمل مشاق النظر والتلجيج في غمار الفكر ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾:

إيمان بقلب ثم اتقاء من جرّائه بالقالب، حيث الإيمان المجرد لا يُنجي إلّا أن يظهر في الإنسان ككل من ظاهره وخافيه، وعنده النجاة عن صاعقة العذاب الهون.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

هنا شهادة الأعضاء عدلاً وحقاً إلى جنب ما هناك وهنالك من شهادة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٣) سورة يونس، الآية: ٧.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٥) نور الثقلين ٤: ٥٤٢ ح ٢٢ في كتاب التوحيد بإسناده إلى حمزة بن الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: عرّفناهم فاستحبوا..
وفي اعتقادات الإمامية للصدوق وقال الصادق عليه السلام في الآية: قال وجوب الطاعة وتحريم المعاصي وهم يعرفون.

الأرض بفضائها، وشهادة النبيين والكرام الكاتبين، وليكون عدو الله غارقاً في يمِّ الشهادات عينية وذهنية أماهيه من شهادات قاطعة قاصعة لا محيد عنها ولا محيص! وليراجَع للتعرف إلى كلٍّ لموضعه من الفرقان بطيات آياته المفسرات[1].

الحشر إلى النار هو الجمع إليها، والإيزاع هو الإكفاف والإحباس، أن يكفّوا عن التفرق، ويُحبس أوّلهم على آخرهم حتى لا يتفلتوا، فقد يكون احتراماً كـ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ...﴾[2] أو اخترماً كما هنا وفي ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[3] فلا يفيد الحشر الجمع لحساب فعقاب أم شكر فثواب إلّا إيزاعاً لجمع كيلا يتفرقوا ويُهملوا على كثرتهم.

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

علّها شهادة أخيرة في موقف أخير ﴿إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ وقد سبقتها شهادات منها وسواها، أم هي تجمع شهادات الأعضاء كلها، وعلى أية حال لماذا الانحصار في ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ والانحسار عن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم؟ وهذه أقوى من تلك وأجلى والاستشهاد بها أشجى وأحجى!

هنا «جلودهم» - كإجمال بعد تفصيل مّا - تشمل هذه الثلاثة وسواها،

---

(١) فصلنا البحث حول شهادة الذات والأعضاء في سورتي الإسراء والنور، وفي شهادة الأرض والفضاء في الزلزلة وفي الشهادة ككل في الجاثية ولقد استوفينا البحث حول الشهادة عند آياتها وبمناسباتها، ويأتي حديث الإمام الصادق عليه السلام حول أن هذه الشهادة بعد شهادة الملائكة وعرض أعمالهم وتكذيبهم للكل فيختم على أفواههم عند الآية: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فُصِّلَت: ٢١].

(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٣) سورة النمل، الآية: ٨٣.

وعلّ اختصاص ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ لأهميتهما من جهات أخرى أبرزها أنهما رقيبان على الجوارح وعلى أنفسهما، كما الفؤاد على الجوانح وعلى نفسه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1] مسؤولاً لذواتها فيما افتعلت، ومسؤولاً عنه لسائر الجوارح والجوانح فيما افتعلت وليست كذلك سائر الجوارح والجوانح.

فقد تسمع آيات أو تُبصر يُستهزأ بهما فلا تمنع بجارح أم تغضب بجانح، أم تسمعها وتبصرها فلا تعتبر بها، فهنا السمع والبصر كلٌّ مسؤول عنه ماذا فعلت وهما بريئان عما افتعلتَ من حرام أو تركتَ من واجب!..

أو تسمع أم تبصر محرماً فلا تمنع أو تمتنع، فشهادة مزدوجة منهما عليهما وعلى لسانك أمّاذا كان عليك أن تمنع بها! أم تسمع وتبصر ما لا محيد عن حرمته بمنع وسواه، فشهادة منهما - فقط - عليها، فيما اقترفا من حرام!

ولكنما الجوارح الأخرى من ألسنة وأيد وأرجل أمّاذا فلا رقابة لها على غيرها، بل هي شاهدة - فقط - على أنفسها شهادة ذاتية ولا سواها، فإنما هي كآلات مباشرة لما عصت، لا تعدوها إلى سواها فيما افتعلت.

فللسمع والبصر والفؤاد اختصاصها من هذه الجهة، وللألسنة والأيدي والأرجل أهميتها من أخرى، وقد يجمعها كلها «جلودهم» فإنها جلود الأرواح: الأبدان، فتشمل الجوارح كلها كما ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾[2] فلا تعني - فقط - القشور حيث النضج والشهادة تعم الأعضاء.

إذاً فـ ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ تعني مثلث الشهادة ومزدوجها، ثم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٦.

﴿وَجُلُودُهُم﴾ تعني شهادة واحدة. ولأن الشهادة على شيء تتطلب تحمُّل الشهادة من قبل وإلّا فلا شهادة، فلتكن الأعضاء متحملة لأصوات الأقوال وصور الأعمال حتى تلقي ما تحملت وتؤدِّي ما حُمِّلت، إذاً فهي مسجّلات الأقوال وشاشات تَحمِل صور الأفعال، وهكذا تشهد عليهم ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أن يظهر على كلٍّ ما يناسبه من شهادة عينية هي الحجة القاطعة والبينة القاصعة القارعة على المكلفين، حيث «صارت الأجساد شحبة بعد بضتها والعظام نخرة بعد قوتها، والأرواح مرتهنة بثقل أعبائها، موقنة بغيب أنبائها، لا تستزاد من صالح عملها، ولا تستعتب من شيءٍ زللها»(١).

وقيلة من قال إن «جلودهم» هي عوراتهم مردودة إلى قائلها، والرواية(٢) القائلة بها مأولة إلى بيان مصداق هو عارٌ بين مصاديقها، فتشهد العورة كسائر الجلود بما افتعلت أم وفعل غيرها.

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾:

مفاجأة هائلة من مشهد الشهادة في معرض القيامة بموقفه العصيب وهم بحاجة ماسة إلى مناصرة من سواهم فإذا هم محجوجون بشهادة الجوارح،

(١) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٤٤ - القمي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث: فرض الإيمان على الجوارح: يعني بالجلود الفروج والأفخاذ.

ورواه مثله في الفقيه عن أمير المؤمنين عليه السلام: يعني بالجلود الفروج. أقول: ومما يدل على أنه تفسير بمصداق ما في الدر المنثور ٥: ٣٦٢ - أخرج عبد الرزاق وأحمد والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث: وإن أوّل ما يعرب عن أحدكم فخذه وكفه وتلا صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢]، أقول: لا تناسب الآية مستنداً لـ «فخذه وكفه» إلا أن يعمها ﴿جُلُودُكُمْ﴾ والفخذ كناية عن العورة.

وإنها بحق جوارح تجرح قلوبهم وتفتّت أكبادهم ولات حين مناص، ولا منفذ لخلاص! يا ويلاه! فكل شهادة كانت بحسبان إلّا شهادة الإنسان على نفسه، بجارحه وجانحه، ويا للفجأة المحيرة بسلطان الله الخفي يغلبهم على أبعاضهم فتلبّي وتستجيب.

وكيف يقاولون جلودهم وليست بقائلة إلّا ألسنتهم، وهي السائلة القائلة: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟ لأنهم شاهدوها تشهد، ولم تسبق لهم منها سابقة الشهادة، وهذه خارقة للعادة، فليسألوها ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ مما يدل على أن شهادتها لم تكن باختيار منهم أو علم، ولا يصدر من الأعضاء فعل إلّا عن اختيار منهم وعلم![1].

﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ - وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ - وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

جواب مثلث عن ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فيه بيان الحكمة والسبب والمبرر لتلك الشهادة العجيبة:

١ - ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وماذا تعني ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ ولا نسمع شيئاً ينطق إلا أنفسنا كعادة، وإلا أعضاؤنا هنا كخارقة العادة ونحن نتساءلها ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟.

أترى ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ هنا هم سائر الشهداء من الأرض بفضائها والملائكة والأنبياء، وقد شهدوا من قبل شهادتها ولمّا تشهد الأعضاء، إذاً فـ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ تعرّفوا إلى شهادتها قبل هذا الموقف، وهي مخصوصة بالأشياء الشاهدة لا كل شيء، الأشياء التي عشناها في حياة التكليف، وما كنا نظنّ أن أعضاءنا سوف تشهد علينا، ولكن الله الذي أنطق هؤلاء الشهداء خلاف العادة، هو الذي أنطقنا ونحن أقرب الشهداء فأحق بالشهادة وأحرى.

(١) المصدر السابق نفسه.

وشهادات الأعضاء كما سائر الشهداء هي شهادات عينية وحتى اللسان إذ تبرز منه الكلمات التي تكلمها[(١)] فالأعضاء - إذاً - هي مسجّلات الأصوات والصور، شاشات من صنع الله تبرز كل ما حصل منها في حياة التكليف: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ...﴾[(٢)] فليست الأعضاء لتنطق كلها قولاً، وإنما كما يناسبها من عينية الشهادات، تلقي ما تلقّت دونما زيادة أو نقيصة، اللهم إلّا قولها: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾ فإنه خارقة أخرى تنطق بالأولى ولكي يعرف المجرمون ما جهلوه من خافية الأعضاء والأشياء ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾[(٣)] فـ ﴿أَنطَقَنَا﴾ تلقّ ثان إجابة عن ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ﴾ إفصاحا عن تلقّ أوّل ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾!

وإذا كانت شهاداتهم كلها نطقاً لفظياً فما هي بشهادات، وإنما كلمات خلقت فيها، ليست حجة على أصحابها فقد ينكرونها، ولكنما الشهادات العينية ليست لترد على شاهديها فلا تكذب رداً عليها كما نرى ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ دون: إن شهادتكم كاذبة علينا.

إنهم يلمسون واقع الشهادة وصدقها، ويحتارون كيف الأعضاء تشهد على أصحابها.

---

(١) تفسير البرهان ٤: ١٠٨ ح ٢ علي بن إبراهيم أنها نزلت في قوم تعرض عليهم أعمالهم فينكرونها فيقولون ما علمنا شيئاً منها فتشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم قال قال الصادق عليه السلام فيقولون للّه: يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون باللّه ما فعلوا من ذلك شيئاً وهو قول الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] هم.. فعند ذلك يختم الله على ألسنتهم وينطق جوارحهم فيشهد السمع بما سمع مما حرم الله ويشهد البصر بما نظر إلى ما حرم الله وتشهد اليدان بما أخذتا وتشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم الله ويشهد الفرج بما ارتكب مما حرم الله ثم أنطق الله ألسنتهم فيقولون: ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا... وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢١-٢٢] الجلود الفروج.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.

إذاً فـ ﴿أَنطَقَنَا﴾ تنظير لشهادتها بشهادة كل شيء خارقة تلو خارقة، ولا تملك الجلود أن تتمنَّع عن هذه الشهادة، فإن الله هو الذي أنطقها وأنطق كلّ شيء.

٢ - ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذه ثاني مرة، خلقكم بهذه الأعضاء المسجِّلة للأصوات، الشاشة للصور وأنتم جاهلون .

٣ - ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولا بد للمخلوق أوّل مرة الراجع إلى خالقه ثاني مرة، أن تبرز شهداءه يوم الحساب الرجعة، شهداء من نفسه بعد سائر الشهداء، ولكي لا يخلد بخلده نكران ما افتعل، ويذكر ما فعل بعد نسيان، فواقع ﴿أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يبرز تنطُّق الأعضاء، و﴿خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يفرضه كحكمة عالية، إذاً فالجواب هو مشهد الواقع وشهادة الحكمة ولات حين مناص!

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

هنالك تمّت الشهادات وتم الجواب، وهنا الله يعقّب تكملة الجواب ﴿وَمَا كُنتُمْ . . .﴾.

وكما الاستتار عن التسجيل حين الأقوال والأعمال غير ماكن ولا ممكن حيث المسجِّل المستنسخ لها هو الله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) وأنتم لا تعلمون، كذلك بأحرى ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ هنا ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ ما تلقتها من أعمال، إذ ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾!

وقد كان ما كان من ظنهم هذا أنهم يُخفون عن الله كثيراً من خافية

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، فنزلت الآية تنديداً بظنتهم، علاجاً لعلتهم، تنبيهاً نبيهاً عن غفوتهم ولمّا يموتوا ويُحشروا على وجوههم إلى جهنم(١): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ...﴾(٢) ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ...﴾(٣) ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(٤) ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾(٥) ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾(٦).

وقد يشير «المضي» في «ما كنتم» إلى أن الاستتار المنفي يشمل حين تلقي الشهادة يوم الدنيا، كما يشمل حين إلقائها يوم الأخرى، وكما يلمح به نزول الآية عند ظنّتهم هذه(٧) مهما كانت الشهادة الأولى شهود نفس العمل، والثانية شهادة عليه، فموقف «على» هنا يسجل نفي الاستتار هناك(٨).

بل الأصل في «ما كنتم» هو الاستتار في الأولى، أن لو تحقق كان استتاراً في الأخرى، ولكن ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ هناك، فكيف تستترون هنا وهي شهادات ملتقاة ولا بد أن تلقى!

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣٦٢ - أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وثقفيان أو ثقفي وقرشيان كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا: فقال الآخر إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمع فقال الآخر إن سمع منه شيئاً سمعه كله قال فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ...﴾ [فُصّلَت: ٢٢].

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٤.

(٥) سورة النمل، الآية: ٢٥.

(٦) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٧) المصدر السابق رقم (١).

(٨) ففي الأول يقال شهده وفي الثاني شهد عليه ولا يصح الجمع بـ«شهده» إلا «شهد عليه» حتى يشمل الشهادة عليه.

ما كان يخطر ببالكم أنها سوف تكون ويالكم ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فخدعكم ذلك الظن القاحل الأثيم وقادكم في مآلكم إلى الجحيم:

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

الرديء هو الهلاك، فالإرداء: الإهلاك، وقد أرادهم هالكين ذلك الظن الرديءُ، فالذي يظن أن الله لا يعلم كثيراً مما يعمل، والقليل الباقي يخفَّف أو يعفى عنه، ذلك الأحمق الشّرس ليس ليتقي بأس الله يوم بأسه، فيردّى في جحيم العصيان فيصبح يوم القيامة من الخاسرين.

إن سوء الظن بالله يردي الظانّ حسب دركات السوء، كما حسنُ الظن ينجي حسب درجاته، ولكنه ليس فوضى جزاف أن كل ظان بالله يكون عند ظنه، فلو ظن كافر بالله حسناً من غفران ورضوان فهو من أهل الغفران! أو ظن مؤمن بالله سوءاً من عدم الغفران يصبح من أصحاب النيران! كلّا.

وإنما حسن الظن فيما يحسن به الظن، وسوء الظن فيما يسوء في ميزان الله لا سواه فـ ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[(١)] ونائرة الظن السوء ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ. . .﴾[(٢)].

وأما أن يظن بالله أنه يعاقب المسيئين عدلاً، فهو ظن الخير العدل، وخلافه ظن السوء، كما ظن الذين كفروا أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، فأرداهم فأصبحوا من الخاسرين.

أو أن يظن بالله أنه لا يعفو عن المؤمنين، فهو ظن السوء مهما كان من المؤمنين، وما يروى «أن الله عند ظن عبده إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[(٣)]

(١) سورة الفتح، الآية: ٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٣) المجمع عن الصادق عليه السلام ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنه يشرف على النار ويرجوه =

و«ليس عبد يظن بالله عز وجل خيراً إلا كان عند ظنه به»[(١)] ليس بذلك الفوضى التي يزعمها الفوضويون، حتى أن لو ظن كافرٌ خير الجنة دخلها، أو ظن مؤمن شر النار وردها، فإنما المعني من هذه وتلك وجوب حسن الظن بالله في ميزان الله، دون ما أهمتهم أنفسهم فيظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية! ف «لا يموتن أحدكم إلّا وهو يحسن الظن بالله فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله عز وجل قال الله عز وجل: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٢)].

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

وويلاه، ويا للسخرية المرهفة، حيث الصبر الآن صبرٌ على النار ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[(٣)] وليس الصبر الذي يعقبه الفرج حتى يبدِّل مرَّه حلواً

= رجاء كأنه من أهل الجنة أن الله تعالى يقول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ...﴾ [فُصِّلَت: ٢٣] ثم قال: إن الله...

(١) نور الثقلين ٤: ٥٤٤ ح ٢٩ - القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الرحمن بن الحجاج قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام حديث يرويه الناس فيمن يؤمر به آخر الناس إلى النار فقال لي: أما أنه ليس كما يقولون قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن آخر عبد يؤمر به إلى النار، فإذا أمر به التفت فيقول الجبار جل جلاله: ردوه فيردونه فيقول له: لم التفت اليّ؟ فيقول: يا رب لم يكن ظني بك هذا فيقول: وما كان ظنك بي؟ فيقول كان ظني بك أن تغفر لي خطيئتي وتسكنني جنتك قال فيقول الجبار: يا ملائكتي لا وعزتي وجلالي وآلائي وعلوي وارتفاع مكاني، ما ظن بي عبدي هذا ساعة من خير قط ولو ظن بي ساعة من خير ما ودعته بالنار أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنة ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليس من عبد يظن بالله عز وجل خيراً إلا كان عند ظنه به وذلك قوله عز وجل: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فُصِّلَت: ٢٣] أقول: هذا الحديث مطروح من جهات عدة أو مؤول فإن مجرد حسن الظن ولو في غير محله فضلاً عن كونه كذباً وفي الآخرة، هذا لو أوجب دخول الجنة لم يبق أحد للنار فإن مجال الكذب واسع لكل أصحاب النار!.

(٢) الدر المنثور ٥: ٣٦٢ - أخرج أحمد والطبراني وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم...

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٥.

لأجل الفرج، وإنما هو النار المثوى القرار ولات حين فرار! ليس لهم إلّا الصبر على النار فإنه مثواهم المأوى ومستقرهم في الأخرى بما قدموها، وأن يستعتبوا - طلب العتبى والرضا - فما هم بمرضيين، والإعتاب هو استصلاح الجلد بإعادته في الدّباغ، وهؤلاء لم يبق لهم مجال الاستصلاح حيث تردّوا بكاملهم إلى الفساد فلا مثوى لهم إلّا النار ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾(١).

ومعنى ثان للعتبى هو العتاب الشديد، فإن طلبوا عُتباهم فلا يعتبون، كناية عن غاية تردّلهم لحد لا يخاطبون حتى خطاب العتاب ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(٢) وقد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلبه كذريعة لما يرجوه من الصفح والرضا تغاضياً عن الأسباب، فاليوم يغلق باب العتاب متاباً وعتاباً.

فالاعتباء يعني كلا السلب والإيجاب، العتبى وإزالة العتاب، كما الإطاقة هي سلب الطاقة، فإن يستعتبوا طلب سلب العتاب بعتبى الاستصلاح فما هم بمعتبين، وإن يستعتبوا إيجاب العتاب التنديد فما هم بمعتبين! ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾(٣) جزع الصراخ أم طلب الإصلاح، أم طلب العتاب، فقد سدل الستار وأغلقت الأبواب وتمت كلمة ربك بتمام العذاب!

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

ولأنهم عشوا عن ذكر الرحمن فعاشوا عشو الشيطان ﴿وَمَن يَعْشُ عَن

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.
(٢) سورة الروم، الآية: ٥٧.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[١] لذلك ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ...﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[٢].

فالتقييض هو الإرسال، فكما الله يرسل للمؤمنين مؤيدين لاكتمال الإيمان ثواباً وفاقاً، كذلك يرسل للكافرين مؤيدين عقاباً وفاقاً، أم ليس التقييض - فقط - الإرسال وإلّا جيء بصيغته الشهيرة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ كما في آيته الأخرى، بل هو الإرسال التبديل، أن بدلناهم عن الهداة التّقاة بغاة طغاة، إذ بدلوا نعمة الله كفراً و﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾[٣] ﴿مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٤] فلما بدّلوا دعوة الهدى إلى الردى ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ ليواصلوا في الردى ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٥]، ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾ ثانياً بزيادة، ما تزين لهم أنفسهم بما ظلموا وتعاموا وعشوا ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من شهواتهم الحاضرة ودنياهم المستقبلة ويوم القيامة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما خلفوها وجعلوها سنة أم فعلة عابرة غابرة، ومن سنن الغابرين أمثالهم، فعند ذلك تمادوا في العصيان وتعاموا في الطغيان.

ومن تزيين دنياهم بين أيديهم وخلفهم أنهم يصورونها بمكائد وأكاذيب صورة المطلوب والغاية القصوى من الحياة: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا...﴾[٦] ومن تزيين عقباهم الأولى تشجيعهم على جبران ما فات منها، عرضاً للمستقبل أعرض مما مضى، ومن تزيين عقباهم الأخرى، تزيين نكرانها، أم وعلى قبولها لمن ليس لينكرها، تزيين حسابها هيناً لا يعتد به، أم غفراناً للمجرمين قضية الرحمة الواسعة الفوضى جزاف، أم و﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أماذا من تحريف للآخرة وحسابها، وتجديف فيها

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.
(٢) سورة مريم، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.
(٤) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٥.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٣٧.

وتجريف لها يخرجها عما يحمل على التقوى ويذر على الطغوى فهذه هي المهلكة العظمى والمصيبة الكبرى والمنحدر الذي ينتهي إلى كل بوار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[1] وهم من الأخسرين ﴿أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2] و﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[3].

لذلك ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾[4].

﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ فإن أصحاب الجنة يتواردون ردف بعض تلواً، لا دفعة واحدة ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ قضية اشتراك التكليف فاشتراكاً في عقاب أو ثواب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٥.
(٤) سورة ص، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾
فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ
وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ
رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا
تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِى
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِى ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِىٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ
فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا
مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا
تَسۡتَوِى ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ
وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا
يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ
وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ
لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ
فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ
إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

علّها من قيلة القرناء المقيّض لهم، يزينون لهم كفرهم بمزيد هو اللغو في القرآن، بعد أن كانوا به كافرين، ولكي يغلبوا على دعوة القرآن ودعايته الجذابة الجلابة، كيلا يقعوا - هم - أو من سواهم - على حد زعمهم: في فخ القرآن، ولا يصطادوا بصيده.

فالذين يكفرون بالقرآن يقتسمون إلى ثالوث النكران! ١ - نكراناً في أوّل مرة وقد يؤول إلى إيمان على ضوء سماع له أو استماعه وتسمّعه، ٢ - ونكراناً عريقاً بما سوّلت لهم أنفسهم وسول لهم الشيطان ثم يبعدون عنه فلا له ولا عليه، ٣ - ومن ثم نكراناً يعني غلبهم على القرآن بمحاولات كلغو فيه أماذا من دوائر السوء، يتربصونها بدعوة القرآن وليس إلّا عليهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فلا «تغلبون» ولا عوان بين ذلك، بل «تُغلبون»! ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لقرنائهم الكافرين ولمّا يصلوا ما وصلوا من عمقهم في كفرهم وحمقهم، قالوا كلمتين اثنتين لهما تأثيرهما ردف بعض: ! ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ فإنه يسحركم فيحملكم دونما اختيار إلى الإيمان، علماً منهم أنه يأخذ بأزمة القلوب فيحركها إلى المطلوب.

ولماذا ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ والسمع متعدٍ بنفسه، والقرآن كتاب واحد لا يحتاج في شخصه وتشخيصه إلى إشارة التعريف؟

القرآن - في وجه عام - يشمل كل مقروّ وحياً وسواه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1] فالذي بين يديه قرآن غير هذا

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣١.

وحياً ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ . . .﴾[١]. ﴿غَيْرِ هَٰذَآ﴾ وحياً يختلف عنه ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ من عند نفسك تحويراً عن وحيه ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

فهذا القرآن بين قرائين الوحي وسواها هو الذي لا تسمعوا له.

وأما «لهذا» دون إلى هذا؟ فلأن سماع القرآن قد يعني الهزء به واللغو فيه والرد عليه، وأما السماع له فهو سماع خاص لصالح الهدف الذي يرام، تدبراً فيه وتفكراً يحويه، فالسماع له ممنوع، وسماعه بين ممنوح وممنوع، ومن الممنوح المفروض ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ كلمة ثانية للذين كفروا.

فهنالك غلبٌ بحجة تدحض حجة القرآن ولسنا عليها بقادرين، فتحوّلاً إلى لغو فيه كيلا يسمعه السامعون، فكما أنتم لا تسمعون له، اختلقوا جو اللّااستماع له ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ حجته بعدم بلوغها للناس، ثم افتراءات عليه أنه سحر أو شعر أماذا من مبعِّد عنه وهنالك الغلبة التامة.

وإنها كلمة مضللة وقالة قاحلة جاهلة من الكبراء القرناء المقيّض لهم، يغرون بها الجماهير بعد ما عجزوا عن مغالبته بحجة «لا تسمعوا. . والغوا» سلبٌ ثم إيجابٌ يتضمنان اجتثاث حجة القرآن، مفاصلة بينهما وبين الإنس والجان وسائر المكلفين.

وإنها مهاترة ومكابرة عجزاً عن المواجهة بالحجة، والمقارعة، عند الطغاة المستكبرين على الإيمان، توسلاً بكل الوسائل، وتربصاً بكل الدوائر ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾! «هيهات هيهات لما يوعدون»!

واللغو هو ما لا يعتد به من فعال أو مقال، ومن قيله صوت العصافير

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٥.

في مقياسنا إذ لا نفهمه، ولكنه ليس لغواً بينها فإنه محادثة وذكر لا نفهمها، فاللاغي منا - على فهمه - هو ألغى من العصافير على حيونتها.

ولغو الفعل والكلام قد يكون لإجماله كأن كان مفرداً دون جملة، كمفردات الكلام، ولذلك سميت لغة، وقد يكون في جملته إجمالاً لأنه لغة خلاف ما نعرفها من لغة كلغو العصافير أماذا من لغات حيوانية أم إنسانية لا نعرفها، وثالثة هو لغو بقول مطلق، لا يعني أيّ معنى صالح في أية لغة، ثم هو يلحد في لغة صالحة كاللغو في القرآن.

فمن اللغو في القرآن تحريفه بزيادة أو نقصان، فتجريفه إلى منجرفات الكتب التي بين يديه، إلى شفا جرف هار منهار، ولكنهم عن بكرة أبيهم حاولوا ولم يفعلوا ولن. . . حيث القرآن في ضمان دائب من الرحمن الرحيم.

ومنه نقضة بنقصة لغوياً أو معنوياً أم أي خلاف للحق أو اختلاف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(١).

ومن اللغو فيه إلهاء الناس عن السماع له بقصص خرافية أماهيه، ملهية عن سماع القرآن لمّا يقرأ، واللغو بالهرج والصياح والنياح، وبالرجزات والسجعات، وقد فعلوا كل ذلك وافتعلوا ولكنها ذهبت كالتي قبلها إدراج الرياح، وغلب القرآن وغُلب هنالك المبطلون!. . . ثم لا جواب عن تهددهم هذا إلّا بما يلقون - جزاء ما يُلغِون - يوم القيامة، حيث الجواب هنا تبابهم عما كانوا يهوون:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

قد يعني ذوق العذاب أولاً وجاه وقبل الجزاء، أسوأ الذي كانوا

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

يعملون، ذوقه في الدنيا قليلاً، ثم في البرزخ وسطاً، ومن ثم الجزاء الأوفى يوم الجزاء، وسرعان ما شهدنا حنقهم يوم الدنيا أن رجعوا عن لغوهم في هذا القرآن خاسرين مهانين، ومن ثم البرزخ والقيامة الكبرى فإن فيها نفس الجزاء بعد ذوقه.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعم الكبراء الأتباع، و﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ هو اللغو في القرآن وأضرابه من بالغ الكفر والتكذيب بآيات الله، والجزاء هنا هو الأسوأ نفسه، إذ ليس جزاءً بأسوأ، مما يتهدَّدهم أن لغوهم في القرآن يبرز يوم القيامة بملكوته جزاءً فـ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] فهي من الآيات القائلة إن الجزاء هو العمل والعمل هو الجزاء، فليس هنالك انتقام وانتصار، بل هو ظهور ما كان خفياً ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ وهو ﴿ٱلنَّارُ﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ قدر ما أخلدوا إلى عداء الله ﴿جَزَآءً﴾ وفاقاً بما كانوا يكسبون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا هم التابعون و﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ هم القرناء المتبوعون، يطلب الأولون ربهم أن يُريهم الآخرين ليذلوهم ويسفلوهم.

وهل ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هما شخصان اثنان، إبليس الجن

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.
(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.

وقابيل الإنس[١]؟ وليس قابيل مضلاً لكلٍّ الكافرين مهما كان بادئ الإضلال من الإنس، فهنالك في تاريخ الإنسان من هو أشر منه وأطغى! وليس المضل من الجن هو شخص إبليس مهما كان يرأس المضلين! إذاً فهما النموذجان الأولان للإضلال ومن ثم الآخرون في كل زمان ومكان، و«اللذان» تثنية الجمع لا المفرد.

وإنه تطلّب بخنقٍ عنيف تحرّقاً على الانتقام، أترى أنهم المجابون في طلبتهم هذه؟ علّه نعم لأن المضِلّ هو أسفل من المضلَّل وقد ظلمه فليكن تحت قدمه، وقد يجاويه اللّاجواب!.. وعلّه لا إذ لا إجابة لدعاء الكافر وهو في النار ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[٢]! وليس كل مضِلّ أسفل من مضلَّله ولا أظلم منه وأطغى!: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[٣] وعلّهم حيث أضلوا غيرهم كما ضلوا بغيرهم فهم ومضللوهم في الضِّعف سواء!

وقد يكون الانظلام أظلم من الظلم! ثم الله هو الذي يجعل الأسفل من الأسفلين والسافل من السافلين عدلاً وجزاءً وفاقاً، أفيُطلب بعدله يوم عدله؟! وفي جعلهما تحت أقدامهم حظوة ونعيم للتابعين وليست النار دار النعيم!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

(١) الدر المنثور ٥: ٣٦٣ - أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا...﴾ [فُصّلَت: ٢٩] قال: هو ابن آدم الذي قتل أخاه وإبليس.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[١]:

آية الاستقامة في فصّلت فَصّلت ثانيتها المجملة في الأحقاف، ثم ليست سواهما في سائر القرآن إلّا ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[٢] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[٣] ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[٤].

في الأحقاف تبشر بسلب الخوف والحزن وإثبات الجنة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[٥] وهنا يحمل الملائكة تنزلاً عليهم هذه البشارة بولاية لهم دائبة في الدنيا والآخرة، وما ألذّها بشارة وحياً من الله ثم إلهاماً يحمله ملائكة الله!

وترى ما هي الحاجة إلى بشارة الملائكة وولايتهم بعد الله في الدنيا والآخرة؟ علّها لتكملة المقابلة بينهم وبين الكافرين، فأولاء لهم قرناء من الشياطين وهم أولياؤهم بعد الشيطان الأول، وهؤلاء لهم قرناء من الملائكة يبشرونهم وهم أولياء لهم بعد الله وبأمره في الدنيا والآخرة، تشريفاً لهم وليس بحساب الحاجة.

«... وقد قلتم ربنا الله فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لا تمرقوا منها، ولا تبتدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها، فإن أهل المروق منقطع بهم يوم القيامة»[٦] و«قد قالها ناسٌ

---

(١) فصلنا بحث الاستقامة في الفرقان ٢٦: فراجع ولا نعيده هنا.
(٢) سورة التكوير، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٦.
(٥) سورة الأحقاف، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٦) في نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وإني متكلم بعدة الله وحجته قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ...﴾ [فُصّلَت: ٣٠] وقد قلتم..

من الناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها»[(١)]

ومادة الاستقامة تختصر بل وتحتصر في «فرائض الله»[(٢)] أصلية كولاية الله والرسول وخلفائه عليهم السلام [(٣)] وحقيقة المعاد، وفرعية كسائر الفروع المفروضة على العباد.

فالاستقامة في قول ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هي استقامة في العمق بكافة متطلباتها، واستقامة في طول الحياة وعرضها في معارضها كلها، استقامة على الطريقة الصالحة إليه علماً وإيماناً وعملاً صالحاً، والاستقامة عليها شعوراً في الضمير وسلوكاً في الحياة وصبراً على تكاليفها، والأشلاء والدماء في سبيلها، والحرمانات وترك الشهوات والنفسيات في جادتها بصورة قاطعة جادّة.

أترى المستقيمين - كلهم - تتنزل عليهم الملائكة ببشراهم؟ فمن رأى منهم الملائكة وسمعهم؟! اللهم إلّا من حذا حذو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منهم ونحى نحوه، وهم الأئمة الاثني عشر عليهم السلام إذ كانوا يرونهم ويسمعونهم[(٤)]،

(١) الدر المنثور ٥: ٣٦٣ - أخرج الترمذي والنسائي والبزاز وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه قال: قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فُصّلَت: ٣٠] قال: قد قالها..

(٢) الدر المنثور ٥: ٣٦٣ - أخرج ابن مردويه من طريق الثوري عن بعض أصحابه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ قال: على فرائض الله.

(٣) نور الثقلين ٤: ٥٤٧ ح ٤٣ في تفسير أهل البيت عليهم السلام عن أبي بصير قال قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ قال: هي والله ما أنتم عليه.

(٤) نور الثقلين ٤: ٥٤٥ ح ٣٦ في بصائر الدرجات بسند قال دخل حمران بن أعين على أبي جعفر عليه السلام فقال له: جعلت فداك يبلغنا أن الملائكة تنزل عليكم؟ قال: إي والله لتنزل علينا فتطأ فرشنا أما تقرأ كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ...﴾؟ وفي ح ٤٤ عن الخرائج والجرائح بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام في الآية فقال: أما والله لربما وسدناهم الوسائد في منزلنا، قيل له: الملائكة تظهر لكم؟ فقال: هم ألطف بصبياننا منا بهم وضرب بيده إلى سور في البيت فقال: والله لطالما اتكأت عليها الملائكة وربما التقطنا من زغبها.

ولكنما الآية تعم المستقيمين كلهم، أو أن بشرى الملائكة بوجه عام هي عند موتهم، مهما بشروا الخصوص منهم قبل موتهم؟(١) والظاهر من ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ هو تنزلهم عليهم منذ استقاموا ليُطمئنوهم على استقامتهم فيزدادوا قوامة على قوامة، ثم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا تفيدهم بشارة إلّا أن تكون قولة في الحياة الدنيا كما ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾. لتكون زادهم في مسيرهم الشاق الطويل، فلا يخافوا مستقبلهم الأخرى، ولا يحزنوا على ما فاتهم في الأولى! أم أن بشارة الملائكة درجات بمختلف التنزلات كما استقامة المؤمنين درجات، فقد يرونهم ويسمعونهم كالرعيل الأعلى وهم الأئمة

---

(١) نور الثقلين ٤: ٥٤٧ ح ٤٥ القمي في الآية ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ٣٠-٣١] قال: كنا نحرسكم من الشياطين ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: عند الموت.. وفي تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] من البقرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة ولا يتيقن الوصول إلى رضوان الله حتى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له وذلك أن ملك الموت يرد على المؤمن وهو في شدة علته وعظيم ضيق صدره بما يخلفه من أمواله وبما هو عليه من اضطراب أحواله من معامليه وعياله قد بقيت في نفسه حسراتها واقتطع دون أمانيه فلم ينلها فيقول له ملك الموت: ما لك تجرع غصصك؟ قال: لاضطراب أحوالي واقتطاعك لي دون آمالي، فيقول له ملك الموت: وهل يحزن عاقل من فقد درهم زائف واعتياض ألف ألف ضعف الدنيا؟ فيقول: لا - فيقول ملك الموت: فانظر فوقك فينظر فيرى درجات الجنان وقصورها التي يقصر دونها الأماني فيقول ملك الموت: تلك منازلك ونعمك وأموالك وأهلك وعيالك ومن كان من أهلك هاهنا وذريتك صالحاً فهم هنالك معك أفترضى بهم بدلاً مما هاهنا فيقول: بلى والله ثم يقول: انظر فينظر فيرى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وعلياً عليه السلام والطيبين من آلهما في أعلى عليين فيقول: أو تراهم هؤلاء ساداتك وأئمتك هم هناك جلاسك وأناسك أفما ترضى بهم بدلاً من تفارق هنا؟ فيقول. بلى وربي فذلك ما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] فما إمامكم من الأحوال فقد كفيتموها ولا تحزنوا على ما تخلفونه من الذراري والعيال فهذا الذي شاهدتموه في الجنان بدل منهم وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون وهذه منازلكم وهؤلاء ساداتكم أناسكم وجلاسكم».

الهداة، أو يسمعونهم ولا يرونهم كمن حذا حذوهم من المخلصين، أو يُلهمون دون سماع ورؤية كالمؤمنين المتوسطين، فمهما كان تنزلهم عند موتهم برؤية وسماع، فلكلّ في حياته منزل من الملائكة حسب قابلياته، فليس مثل ابن عباس - على مكانته - ممن يتنزل عليهم الملائكة نزولهم على العترة الطاهرة(١) مهما شملته البشارة الملائكية بين من استقاموا، وما أظنه تشمله وقد تنحى عن نصرة الإمام المعصوم سيد الشهداء عليه آلاف التحية والثناء.

ومهما كان أجلى المصاديق لمُتَنَزَّل الملائكة مكاناً هم الأئمة وزماناً هو الموت، ولكنه لا يمنع شموله كل المستقيمين منذ استقاموا حتى الموت ويوم النشور، أياماً ثلاثة يعيشونها بهذه البشارة المشرفة، وفي الحق ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إذا قيل بحق يحمل كل ما يتوجب على العبد تجاه الله، إذ تشمل التربيات الإلهية كلها دونما استثناء، ولا يمكن الاستقامة في ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اللائقة لهذه البشارة إلّا أن تعني «قالوا» قولاً نابعاً عن علم، نابغاً بإيمان، فالقولة الخالية عنها خاوية لا تحمل الاستقامة فيها إلّا خواءً على خواء!

ثم الاستقامة تحمل بعد قوامة العلم والإيمان استدامة العمل الصالح الذي يتبعهما، فالقول ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ يتبنّى مثلث العلم والإيمان والعمل الصالح بمراتبها.

---

(١) المصدر ٥٤٦ ح ٣٨ أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: بينا أبي جالس وعنده نفر إذ استضحك حتى اغرورقت عيناه دموعاً ثم قال: هل تدرون ما أضحكني؟ قال: فقالوا: لا - قال: زعم ابن عباس أنه من الذين قالوا ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فقلت له: هل رأيت الملائكة يا بن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا والآخرة من الأمن من الخوف والحزن؟ قال فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرَات: ١٠] وقد دخل في هذا جميع الأمة فاستضحكت ثم قلت: صدقت يا بن عباس... أقول: لعل تصديقه عليه السلام قول ابن عباس تصديق لأصل دخوله في الآية دون رؤية الملائكة وسماعهم التي هي الدرجة العليا من تنزلهم.

وهذه البشارة تحمل كلا السلب والإيجاب جزاءً من ربك عطاءً حساباً عن ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ فإنها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سلباً بسلب وإيجاباً بإيجاب.

فسلبها ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ خوفاً عما يأتي وحزناً على ما أتى، وإيجابها ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ...﴾! ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[١] هي زادهم من بدئهم إلى معادهم ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٢] ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٣] ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٤]!

﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ...﴾.

الولاية هنا المحبة والنصرة المساندة عل ضوء ولاية الله، فللملائكة تأثيرات جلية وخفية في الأرواح البشرية المستقيمة على ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ بإلهامات ومكاشفات في مختلف المقامات والمكانات حسب القابليات والدرجات، وكما للشياطين القرناء للكافرين إلهامات لأوليائهم حسب الدركات ظلمات بعضها فوق بعض.

هذه الولاية الملائكية وتلك الشيطانية في الحياة الدنيا سوف تبقى في الآخرة أظهر وأقوى، حيث التعلقات الحائلة هناك زائلة، فالولاية في بروزها وتأثيرها تظل دون غطاء ووطاء نائلة.

﴿... فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

لكم فيها ما تشتهون ولكم ما تطلبون، جمعاً بين ما تسرون من طلباتكم وما تعلنون.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٠.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ فكما قدمتم لله في حياتكم الدنيا مرضاة الرب كلها، كذلك الغفور الرحيم يجيب إلى طلباتكم كما تشتهون وتدعون في الحياة الأخرى.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

علّ الواو قبل «عمل وقال» للحال فتعني حال أنه عمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، فمن أحسن قولاً منه؟ فـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هم القائلون ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولمّا ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ فهم ممن ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلما استكملوا في تبنّي حق الإسلام لأنفسهم، من ثمّ لهم وعليهم أن يكونوا ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهو الأحسن قولاً ممن سواه، ولا أحسن منه قولاً فيمن سواه.

ووجه آخر أن الواوين للعطف، فـ «عمل صالحاً» في سبيل الدعوة إلى الله وكما أصلح به نفسه ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الحقيقيين جهاراً دون تقية ولا ستار، فإسلامه جاهر قولاً وعملاً فدعوة إلى اللّه، وهذه هي الدعوة الحقة التي ما لها من فواق.

والمعنيان علّهما معنيّان ويقتضيهما أدب اللفظ وعلو المعنى، فهناك عمل صالح وإنني من المسلمين قبل الدعوة وهما من شروط الدعوة، ثم عمل صالح وقول في طريق الدعوة وهما زاد الدعوة في سبيلها الشاق الطويل، وقد زُوِّد الرسول محمد ﷺ أفضل من غيره من الدعاة إلى الله وأحسن، بقول وعمل صالح قبل الدعوة ومنذ ترعرع، ومع الدعوة حتى لاقى ربه، فمن أحسن قولاً منه.

إن كلمة الحق حينئذٍ أحسن كلمة تقال، لكنها مع العمل الصالح الذي يصدقها ويصعدها، ومع الاستسلام الذي تتوارى معه الذات والذاتيات

والإنيات وجب الظهور وكل شيء، فتصبح الدعوة خالصة لله، ليس فيها للداعية شأن إلّا الدعوة.

والنهوض بتلك الدعوة البارعة في مواجهات التواءات النفوس البشرية واستكباراتها، إنه أمر عظيم، وأعظم منه الداعية الذي لا يهدف في دعوته إلّا الله، تناسياً لنفسه ورغباته وكل شيء إلّا الله.

إنه يعارض السيئات ليزيلها، ولا تستوي الحسنات ولا السيئات، فقد يقتضي صالح الدعوة أن يدفع بالتي هي أحسن السيئة دون مجابهة بمثل كما يفعلها غير الصالحين:

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[(١)]

ترى ما هو موقع «ولا» بين الحسنة والسيئة؟ فهل إنها مزيدة لتأكيد النفي حيث الاستواء لا يكتفي بمفرد، ولها نظائر ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾[(٢)] ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[(٣)].

أم أنها للنفي، نفياً لاستواء جنس الحسنة بأفرادها وجنس السيئة بأفرادها؟ فهو بأحرى نفياً للاستواء بين قبيل الحسنة والسيئة! ولو أن تأكيد النفي يبرر الزيادة في «لا» فلماذا لم تزد فيما هو أولى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[(٤)] ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾[(٥)] ولا سيما أن ﴿وَلَا

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٠.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ كمثال واقعة بين الممثل أو مثال أولى ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾[1] وهو أحرى بتأكيد النفي، وعلّ الاستواء المنفي في ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾[2] أيضاً هو بين الأحياء أنفسهم، وبين الأموات، ثم النفي بين الأحياء والأموات، وبين الحسنة والسيئة هو نفي الاستواء بينهما بطريق أولى.

أم أنها لتأكيد النفي بين الحسنة والسيئة وللنفي بين مصاديق الحسنة ومصاديق السيئة؟

قولة الزيادة زيادة من القول، والنفي ثابت إذ تقتضيه «لا» والجمع أولى فإنه أجمع وأحلى! فإذ لا تستوي الحسنة في أفرادها، ولا السيئة في أفرادها، فلا ينحصر دفع السيئة بسيئة أخرى، فقد تكون سيئة تدفع بحسنة فـ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[3] وقد تكون سيئته لا تدفع إلّا بسيئة فلا مجال إذاً لدفعها بحسنة، فالمعاند المكذب بآيات الله، الذي لا يرجى هداه، ولا تصُد هواه، لا تدفع سيئته بحسنة، بل ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾[4].

فالعفو في موضع الإصلاح دفع للسيئة بالحسنة ودرءٌ لها ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[5] والعفو فيما لا يُصلح بل ويفسد هو سيئة بدل كونها حسنة، فـ ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ﴾ في مواردها، وكذلك السيئة التي تدفع بحسنة، والتي تدرأ بأية حسنة «لا تستوي السيئة» كذلك في مواردها، فـ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ

(١) سورة فاطر، الآية: ١٩.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٢.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.
(٤) سورة الشورى، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٢٢.

سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[١] لا تعم مواردها، لاختلاف السيئات، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[٢] لا تعم لاختلاف الحسنات، والسيئة التي تدفع بحسنة خير من حسنة لا تدفع سيئة بل وتزيدها، فلأنه ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ ف ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ما أمكن الدفع، وإلّا ف ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾!

ثم الدفع بالتي هي أحسن ليس إلّا عن موضع القدرة، فلئن أحس العدو موضع الضعف اخترم ولم يحترم، ونفس الدفع يلمح إلى شريطة القدرة، حيث العاجز لا يدفع، لا بالتي هي أسوأ ولا الأحسن، فإنه ضعيف على أية حال، ﴿ادْفَعْ... فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

هنالك دفع للسيئة وهو واقع بالتي هي أحسن وإن بقي العدو على عدائه كامناً، وليس «إنه ولي حميم» إنما ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يندفع عن ظاهر عدائه وإيذائه كولي حميم، وقد يدفعه إلى مرحلة ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فالإصلاح درجات كما الإفساد دركات، إذا دفعت بالأحسن، بالفعل ينقلب الهياج والغضب إلى وداعة وسكينة، والتّبجح إلى حياءٍ ولينة، وأنت ما دفعت إلّا بكلمة طيبة، ونبرة هادئة، وبسمة حانية أمّاهيه من التي هي أحسن حسب ما يقتضيه علاج الواقعة، طريقة مثلي وحكمة علياً تدفع واقعة السوء بها، وقليل هؤلاء الأعداء الذين يظلون على عدائهم وجاه تلكم الواجهة الوجيهة والخلق العظيم، اللّهم إلا عداءً عريقاً عميقاً ممن لا يرجى ولايته وحمته على أية حال، والهدف الرئيسي من التي هي أحسن دفع السيئة، وإن بقيت العداء في باطنها، ثم إزالة العداء، ثم اجتلاب الحمة، وأما إذا دفعت سيئة بسيئة أم زاد يزداد عدوك هياجاً، فيخلع حياءه نهائياً إذ يتفلت زمامه فأخذته العزة بالإثم.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

إن تلك السماحة مع القدرة على انحصارها في حالات الإصلاح وهي في الأغلبية الساحقة شخصية، إنها بحاجة إلى تصبُّر ومعرفة وعطوفة ودراية زائدة وتلقية إلهية:

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾:

صبرٌ من الله وحظٌّ عظيم من الله هما جناحان لذلك الدفع العظيم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾(١) ومن أعظمهم الرسول الأعظم ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(٢) ولقد لقَّاه الله والمحمديين من آله الطاهرين الصبر العظيم والحظ العظيم، فكانوا يواجهون الأعداء بكل حنان ما أمكن ومن ثم غضب الحليم.

هنا ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ في تنكير التعظيم بعد ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ توحي بعظمةٍ ذات أبعاد: صبر وحظ ذي بعدين من العظمة، وما أعظمه العظيم في ميزان الله، وما أكرمه من يُلَقَّاه من عند الله، وفي الحق هم القلة القليلة من سابقين وأصحاب اليمين: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(٣).

ومن أعظم الحظ العظيم الخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٤) وقد يتبناه علم عظيم ومعرفة واسعة وسماحة فاسحة وتصبُّر عظيم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٠.
(٢) سورة النمل، الآية: ٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٤) سورة القلم، الآية: ٤.

لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1] والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده، فإذا قلت التي هي أحسن دفعاً للسيئة بالحسنى لم يكن هناك مدخلٌ لشيطان ليجعل السوء سوأى أم يبقي على سوء، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ حين يفلت منك فالت، وهكذا يكون دور الشيطان أن يدخل في الأمور لإفسادها، فهنالك ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من نزغه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ استعاذتك ونداؤك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ حاجتك واستدعاؤك.

الغضب قد ينزغ فلا يتصبّر صاحبه على إساءَة، أماذا من نَزغات في مختلف الحالات مهما كنت صبوراً حليماً إلّا من عصمه الله، فإذا نزغك نزغ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وصيغة الاستعاذة هنا «أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿لَا تَسْجُدُوا۟...﴾ نهي مؤكد انحصاراً للمسجود له في الله وانحساراً عما سواه، سواء أكان المسجود له هو الشمس والقمر كما هنا، والخطاب موجه إلى الساجدين لهما، أم سواهما من أصنام وطواغيت أم أولياء وملائكة كرام، ولأن السجود لغير الله تسوية له بالله وهو ضلال مبين، و﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ إشارة إلى سبب المنع وسعة الممنوع بدليل الجمع ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ الشمس والقمر وسواهما من خليقته.

ثم و﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تعليق على عبادتهن، فالعابد لله ليس ليعبد خلق الله، ولا سيما ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ...﴾ ترمي إلى التوحيد، والسجود لغير الله ينافي التوحيد.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

وكضابطة توحيدية كلُّ تسوية لغير الله بالله إشراك بالله، في معرفة وعقيدة، أم فعلة وقولة، أم أية حالة على أية حال، مهما اختلفت دركات ذلك الإشراك.

والسجدة هي صورة عبادة، فإن كانت لغير الله بنية العبادة وسيرتها فمن أسفل دركات الإشراك بالله، وإن كانت صورة دون سيرة وهي أحيانية وإنما احتراماً للمسجود له، فمن أدنى دركاته، وإن كانت مستمرة فعوان بين ذلك، وذلك الثالوث على اختلاف دركاته مشترك في الشرك!

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾:

ليس الكون قاحلاً عمن يسبحون له وله يسجدون، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن عبادته وسجوده، إلى سجود الشمس والقمر وهما آيتان من آياته، إلحاداً فيها بإفراط ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ عندية القرب مكانة تربوية لا مكاناً، من ملائكة وإنس وجان، سابقين أو مقربين، فإنهم عند ربك، لا «الله» فليس عند ذاته أحد، ولا «رَبِّ الْعالَمِينَ» حيث الربوبية العامة ليست بذلك الزلفى، بل ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ بتلك الربوبية القمة التي أنت فيها بأعلى قمة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ لا سواه ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في كل وقت لحدٍّ أصبحت ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم وخطراتهم تسبيحاً لله ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾: لا يملّون من هذه الكثرة الكثيرة، وإنما يسأمون لو يغفلون.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ قدرته على إحياء الموتى مسرح الأرض الخاشعة الخامدة القاحلة حيث تحيى بإنزال الماء فتربو وتهتز، فمن ذا الذي يُربيها

وَيهِزُّها بعد خشوعها إلّا الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ وبأحرى ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

فإذا كان إحياء الأرض لانتفاع الأحياء فضلاً من ربك عطاءً حساباً، فإن في إحياء إنسان الأرض لانتفاعه بما قدم، وجزاءه بما ظُلم أم ظَلم، إن في ذلك لعدلاً بعد فضل، فواقع الحياة المكرورة المتتابعة للأرض الخاشعة يوقّع بأحرى واقع الواقعة، ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾[1]!

وكما الله ينزِّل على خاشعة الأرض نازلةً من ماء السماء إحياءً لها للأحياء، كذلك الله ينزل على خاشعة الأبدان نازلة الأرواح من سماء الرأفة والعدالة وهو أحق وأحرى.

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٢، ٣.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم
مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ
مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا
مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾
وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَاعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ
وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ
أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ
مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ
يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم
مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ
مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ
مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن
رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا

بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾:

اللّحد حفرة مائلة عن الوسط، فالإلحاد هو الإمالة عن الوسط الحق إلى حفرة إفراط أو تفريط، و﴿ءَايَٰتِنَا﴾ تعم التكوينية كسائر الآيات الدالات على الله بما فيها آيات النبوات وحملتها، والتدوينية كسائر كتابات الوحي بما فيها القرآن، فالإلحاد في تكوينية الآيات السائرة هو إمالتها عن كونها آيات كأنها لا تدل على الله تفريطاً فيها، أم إشراكها بالله كأنها له أنداد إفراطاً في شأنها، وفي التكوينية الخاصة كما الإفراط في أسماء الله تحويراً لها وتحريفاً عن معانيها المعنية، أم اختلاقاً لأسماء لم يسم بها نفسه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١) والتفريط في ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾(٢) والإفراط فيه أنه منه دون الله! وفي كيان الرسل وآياتهم المعجزات إفراطاً كما في عيسى وعزير من بعضهم وتفريطاً كما في سائر المرسلين من آخرين، وقد يكون إفراط الإلحاد في آيات الله من حصائل

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

التفريط فيها وكثيرٌ ما هو، فمن أبصر إلى آيات الله مستقلات دون اعتبار بها تفريطاً فيها، فقد أفرط فيها أن يجعلها أنداداً لله تعالى، ومن أبصر بها بصرته لمعرفة هي أسمى فلا تفريط إذاً ولا إفراط، فإنهما من حصائل الإبصار إليها دون الإبصار بها وكما يروى عن الإمام علي ﷺ في شأن الدنيا، «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

ثم الإلحاد في كتابات الوحي منه لفظي كالتحريف بزيادة هي الإفراط أم نقيصة هي التفريط، وقد فعلوهما في التوراة والإنجيل، ولم يستثن عن الإلحاد فيه هكذا إلّا القرآن كما تستثنيه الآية التالية، ومنه معنوي يعمه حيث التحريفات المعنوية في القرآن سائرة في كل زمان ومكان.

هنا ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ تهديد لهم أوّل أنه عليهم رقيب عتيد، بجزائهم ﴿يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ ثم تهديد ثان نهياً شديداً بصيغة الأمر ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فقد بدأ التهديد ملفوفاً - يخيف ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فهم مكشوفون لعلم الله، مأخوذون بما يلحدون في الله مهما غالطوا والتووا وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يتفلتون من حساب الناس!

وثم صراح التهديد ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ...﴾ وفي النهاية لفتة أخرى علّها أقوى منها ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ...﴾! أتراهم يغلبون آيات الله في هذه الإلحادات ولكيلا تبقى حجة بالغة على الناس؟ كلّا! مهما فعلوا ما افتعلوا، فإن الله يحافظ على آيته الأخيرة الخالدة «القرآن» تداوماً لحجة الله البالغة على الناس وتدليلاً على ما فعلوه في الزبر:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ الأخير، كل الذكر وهو القرآن العظيم، كفراً في مختلف دركات الإلحاد في آياته ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وقد خيل إليهم أنه كسائر

الذكر، فبإمكانهم كل تحريف فيه وتجديف، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل إلحاد فيه أياً كان ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ من أي مبطل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾!

أترى ما هو الخبر عن هذا المبتدأ؟ علّه محذوف مستفاد من ﴿يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ للذين يلحدون في آياتنا حيث الإلحاد في القرآن هو من أبرز مصاديقه وأحقها إلقاءً في النار، فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إلحاداً فيه ﴿يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ فإنهم كفروا به حال ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ . . .﴾.

ذكر عزيز، هو تنزيل من حكيم حميد، كيف يُغلب بمن يريد فيه إلحاداً، فلو تطرّق إليه التحريف بزيادة أو نقصان لقضي على الذكر في تاريخ الرسالات، ولكان ذكر الله مغلوباً لا يُنتصر له، ولم يكن الله حكيماً في تنزيله ولا حميداً، فإن في الحفاظ على الذكر الأخير حفاظاً على سائر الذكر، وفي تحريفه - وقد حرف قبله سائر الذكر - تحريف لشرعة الله ككلٍّ، وقضاء على حجة الله البالغة بأسرها.

إن في صيانة القرآن عن التحريف صيانة لسائر كتب السماء، وحجة بالغة دامغة على المتمسكين بها على تحرّفها عن جهات أشراعها، ودافع لهم إلى التفتيش عن شرعة غير محرفة يلجؤون إليها[(١)].

إنه «الذكر» الذي يحمل معه كل ذكر في كتابات السماء، فبحفظه تحفظ وبضياعه تُضاع ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[(٢)] تأكيدات تسع لا مثيل لها في سائر الذكر ولا أيٍّ من حقايق الدين الحق بأصوله وفروعه، ولأنه ضمان له بأصوله وفروعه.

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ تأكيدان لعزة الكتاب كما الله منزّله عزيز، عزيز من

(١) راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية».
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

عزيز يَغلب ولا يُغلب! إنه عزيز في لفظه ومعناه، عزيز في حكمه ومغزاه، عزيز في مبتدئه ومنتهاه، لا يذل ولا يغلب مهما تربصوا له الدوائر، عزةٌ في مثلث الزمان بطوله وعرض المكان، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ مهما هاجمه المبطلون ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ وهي كل كتابات الوحي فضلاً عن سواها، وكل رجالات الوحي فضلاً عن سواهم، بل هي مصدقة له كما هم، وهو مصدق لما بين يديه، وهذا تعبير دائب في سائر القرآن عما نزل قبله من كتاب بما بين يديه(١) وعلّه لأنه ينظر إليها نظرة تصديق، إذ ليس بدعا من الكتب، كما أن رسوله ما كان بدعاً من الرسل! ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(٢) إذاً فالأصل في ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ما نزل قبله.

ومما بين يديه ما كان حال نزوله من كتب وأشخاص، فهو يشمل الماضي والحال، فـ «من خلفه» إذاً يخص الاستقبال، فهو في صيانة إلهية في مثلث الزمان عن أية دائرة سوءٍ من الإنس والجان.

أترى لماذا ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ دون «المبطل» والآتي إياه إبطالاً له وإعطالاً مبطلٌ له وليس فقط الباطل؟

لأن المبطل، المحاول لإبطاله، قد أتاه ويأتيه على أية حال، ولكنه لم يسطع ولن أن يبطل، فـ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ مهما أتاه المبطل أو يأتيه، إبطالاً

---

(١) كما في ٢: ٩٧ - ٣: ٣ - ٥: ٤٨ - ٦: ٩٢ - ١٠: ٣٧ - ١٢: ١١١ - ٣٤: ٣١ - ٣٥: ٣١ - ٤٦: ٣٠ وفي نور الثقلين ٤: ٥٥٣ ح ٦٧ - القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ...﴾ [فصلت: ٤١] يعني القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ قال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ من قبل التوراة والإنجيل والزبور ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي لا يأتيه من بعده كتاب يبطله، وفيه عن المجمع روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في معنى الآية ليس في إخباره عما مضى باطل ولا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

لمعجزته بما يفوقه أو يوازيه، أو فصماً لحجته بما يناوئه ويعاديه، أو تحريفاً وتجديفاً بنقيصة عنه أو زيادة فيه، أمّاذا من باطل في ألفاظه ومعانيه، في تأليفه وتركيبه، فلا تعلق به الشبهة من طريق المشاكلة، ولا الحقيقة من جهة المناقضة، فهو الحق الخالص الواجب الذي لا يشوبه شائب ولا يلحقه طالب، فلا يأتيه الباطل مهما أتاه المبطلون! فالشيطان والإنسان لا يقدران على أن ينقصا منه حقاً أو ينتقضاه، ولا يزيدا فيه باطلاً ويفتعلاه.

فأي كتاب في مثلث الزمان وأي إنس أو جان وأي تقدم في علم في مستقبل الزمان، ليس ليبطل حجته أو ينقضها أو ينقصها، والكتابان في كل زمان تدويناً وتكويناً يجاوبانه ويؤيدان، لأنه الإمام وسواه المأموم، وهو العزيز وسواه تعزيز له أم لا يوازيه، لأنه الذكر العزيز ﴿. . .تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ والمتدبر في القرآن يلمس منه هذه الحقيقة الخالصة، من نصه وظاهره وإشارته، يجدها في كل بساطة ويسر حقاً ناصعاً فطرياً يخاطب أعماق الفطرة ويطبعها ويؤثر فيها عجيب التأثير.

أترى هذا ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ من خلفه؟ فما هو إتيان الباطل من بين يديه وليس المبطل إلّا في حال أو استقبال؟ من إتيانه الباطل مما بين يديه تفوّقه على القرآن في لفظه أو معناه أو مغزاه وليس، ومنه إخباره بكذبه كما القرآن يكذب كل ما يأتيه معه أو من بعده لأنه خاتمة الوحي، ولا مبطل له في كتابات السماء فضلاً عن سواها، بل تصدقه[1] كما يصدقها، تصادقاً فائقاً كالتصادق فيمن جاء بها.

فالقرآن في صيانة ذاتية وخارج الذات من كافة الجهات والجنبات، حق

(١) راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» تجد فيه نصوصاً من تصديق الكتب السماوية للقرآن ونبيه.

ناصع ناصح، خالص لائح، فهو المرجع الوحيد في كل شارد ووارد، لا ينوبه نائب ولا يشوبه شائب، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[(١)].

كتاب الله العزيز هو المخرج عند الهرج والمرج لا سواه[(٢)] ومثل القرآن ومثل الناس كمثل الأرض والغيث بينما الأرض ميتة هامدة ثم لا يزال ترسل الأودية حتى تبذر وتنبت ويتم شأنها ويخرج الله ما فيها من زينتها ومعايش الناس، وكذلك فعل الله بهذا القرآن والناس»[(٣)] و«إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أحب إليه من شيء خرج منه»[(٤)] «وإنه المهيمن على الكتب كلها وإنه حق من فاتحته إلى خاتمته..»[(٥)].

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٧.

(٢) الدر المنثور ٥: ٣٦٦ - أخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال قيل لرسول الله ﷺ أو سئل ما المخرج منها: فقال: كتاب الله العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

(٣) الدر المنثور ٥: ٣٦٦ - أخرج ابن مردويه عن ابن سعد لا أحسبه إلا أسنده أن رسول الله ﷺ قال: مثل القرآن..

(٤) المصدر - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية فقال:.. وفيه أخرج البيهقي عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ.. بشيء أفضل.. وفيه أخرج عن عطية بن قيس عن النبي ﷺ قال: ما تكلم العباد بكلام أحب إلى الله من كلامه وما أناب العباد إلى الله بكلام أحب إليه من كلامه بالذكر قال بالقرآن.

(٥) عيون أخبار الرضا في باب ما كتبه الرضا عليه السلام للمأمون في محض الإسلام وشرايع الدين وفيه: والتصديق بكتابه الصادق العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢] وأنه المهيمن.. نؤمن بمحكمه ومتشابهه وخاصه وعامه ووعده ووعيده وناسخه ومنسوخه وقصصه وأخباره لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله.

وفيه بسنده عن محمد بن موسى الرازي قال حدثني أبي قال ذكر الرضا عليه السلام يوماً القرآن فعظم الحجة فيه والآية المعجزة في نظمه قال: هو حبل الله المتين وعروته الوثقى وطريقته المثلى المؤدي إلى الجنة والمنجي من النار لا يخلق على الأزمنة ولا يغث على الألسنة لأنه لم يجعل لزمان دون زمان بل جعل دليل البرهان والحجة على كل إنسان ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾:

قيلات على الرسالات وحملتها طول التاريخ الرسالي هي كلها ويلات متناسقة مع بعض ومتشابكة، وشريطات مكرورة تدار من حماقى الطغيان والجهالات على أصحاب الرسالات، كلما كانت الرسالة أقوى، ودعايتها أعرض وأنبى، كانت القيلات عليها أوسع وأشجى، ولأن هذه الرسالة السامية تجمع الرسالات كلها وزيادة، فالقيلات عليها تجمع تلكم القيلات كلها ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ يا حامل الرسالة الأخيرة ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ وقد قيل عليهم كل قيل، فلتصبّر نفسك على كل قيل ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾(١) ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(٢) مهما كان مرساهم «ولتُصنع على عيني» ف «بأعيننا» تجمع جماع الرقابات حفاظاً على رسالتك، لأنها محطة القيلات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يغفر قيلات عليك ستراً لها وسداً عليها فلا يأتيها الباطل بما يبطلون، وكما ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(٣) كذلك ليغفر لك كل باطل يأتيك من بين يديك ومن خلفك، إذ لا يسطع على إبطال حجتك، وإغراقك في لُجتك.

ثم هو ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لمن تاب معك أو يتوب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن يصر في إبطال أمرك.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾:

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٢.
(٢) سورة الطور، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾(١).

آيتان في سائر القرآن تفصحان عن النخوة العربية وجاه وحي القرآن أن لو كان أعجمياً لزادوا في النكران، مما يدل على مدى شقوتهم وتصلُّبهم في قوميتهم لحد يجعلونها أصلاً وحتى لصرح الإيمان، فأولئك ينادون من مكان بعيد، لتباعدهم عن طريق الرشد، وإعراضهم عند دعاء الحق، كأنهم من شدة التوائهم والذهاب بأسماعهم والانصراف بقلوبهم ينادون من مكان بعيد، فالنداء غير مسمع لهم ولا واصل إليهم، ولو سمعوه لضلَّ عنهم فهمه للصد المنفرج بينهم وبينه، إذ فصلت قوميتهم بينهم وبين سماع الحق والخضوع لديه، وحتى حين نزّل عليهم القرآن عربياً فضلاً عن جعله أعجمياً إذ قالوا ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾! فما هم بصاغين الله لا عربياً ولا أعجمياً.

والأعجمي من العجمة خلاف الإبانة، والإعجام هو الإبهام، والأعجم من في لسانه عُجمة عربياً كان أم سواه، ومنه قيل للبهيمة عجماء، ولصلاة النهار عجماء، إذ لا يجهر فيها بالقراءَة، وسميت الحروف المفردة معجمة لأنها لا تدل على ما تدل عليه الحروف الموصولة.

فالأعجمي بصورة عامة هو اللغة التي لا تفهمها، من بهيمة فهي أعجمية، أم فارسية أماذا من لغات لست تفهمها، أم وعربية لا تعرفها، فكل لغة بالنسبة لمن لا يعرفها أعجمية، فاللغات كلها أعجمية لغير أصحابها، عربية لأصحابها، وكما يعبر التوراة عن القرآن العربي بين العبرانيين أنه بلغة لكناء أعجمية كالنص التالي:

«إِتْ مِي يُورِهْ دِعاهْ وِإِتْ مِيْ يابِينْ شمُوعاه غِكمو لِي مِحالاب عِتِيمِّي

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٨-٢٠١.

مِشَادايم (٩) كي صَولاصا وصَولاصاو قولاقاو قولاقاو زعير شام زعير شام (١٠) كي بلعجي شافاه وَبِلاشُون أحِرِتْ يدَّبِرْ إِلْ هاعام هَذِّه».

«لمن ترى يعلّم العلم ولمن يفقّه في الخطاب أللمفطومين عن اللبن المفصولين عن الثدي (٩) لأنه أمر على أمر أمر على أمر فرض على فرض ثم فرض على فرض هنا قليل وهناك قليل (١٠) لأنه بلهجة لكناء بشفاه أعجمية وبلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب»[١].

والأعجمي على ضربين، ضربٌ أوّل ما فيه عجمة نسبية ككل لغة لا تعرفها، وضرب آخر ما فيه إبهام وإجمال وهو لغتك إما بلكنة في لسان ناطقها، أم غرابة في نظمها ونسجها كالقائل: «ما لكم تكأكأتم كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا عني».

وكأنهم تطلّبوا إليه أن ينزل لهم قرآناً أعجمياً[٢] في أي بعد من العجمة، كسائر تطلباتهم الجاهلة الهراء فجاء الجواب: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ. . .﴾.

هنا لهم اعتراضان اثنان ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾: ١ - ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ حيث أجملت فلا نفهمها كما يجب، والتفصيل هو الإفصاح عن المعنى كما هو الآن في القرآن، فخلافه أعجمي أياً كان ولا سيما إذا كان بغير لغة القرآن، ولكنه ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٣]!

٢ - ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ والأعجمي هو الكتاب لو جعل أعجمياً،

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه تفصيل هذه البشارة بشأن القرآن، وهذا النص نقلناه عن كتاب اشعياء النبي حسب الأصل العبراني.

(٢) الدر المنثور ٥: ٣٦٧ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً فأنزل الله ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فُصّلَت: ٤٤]: أعجمي وعربي وأنزل الله تعالى بعد هذه الآية بكل لسان حجارة من سجيل.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣.

والعربي هم العرب، يستنكرون ويتناكرون أن يجعل كتاب شرعتهم بغير لغتهم لا لشيء إلّا لأنهم عربٌ، يتأنفون غيرهم وغير لغتهم، ويتأنقون لأنفسهم ولغتهم، فبالإمكان أن تترجم كل لغة بلغتهم لو كان القرآن بغير لغتهم، وكما سائر المكلفين المرسل إليهم بشرعة القرآن، يستعجمون لغة القرآن فإنها غير لغتهم ولكنهم لا يتأنفون، فهم بين من يتعلم لغة القرآن، أو يتعلم من عارفها فيتفهم بذلك القرآن، وكما ترى الرعيل الأعلى من الأدباء العرب هم من غير العرب.

إن كتاباً كالقرآن، الموجه إلى العالمين كافة، لا بدّ أن ينزل بلغة من اللغات عربية كانت أم أعجمية، ولكنما العرب هم الذين يتنكرون لو جعل قرآناً أعجمياً.

لذلك ترى الجواب ألّا منعة هنا إلّا اللّاإيمان، حيث الإيمان يجد سبيله إلى شرعة القرآن بأية لغة كان: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أياً كان لغتهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وإن كان بلغتهم ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ كما قالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾!

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ نداء يوم الدنيا إذ فصل بينهم وبين هدي القرآن كفرهم البعيد، فكأنهم ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وهم قريبون إلى المنادي وقريبون إلى لغة النداء، ولكن بعّدهم العداء فهم بعاد عن النداء! ومن ثم ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يوم الأخرى، حيث المنادي الملائكي لا يقربهم، فيناديهم من بُعد ترذيلاً لمكانتهم، والمنادي الإلهي يناديهم من بعيد كمنادى رذيل لا يُعبأ به.

وقد تكون حكمة نزول القرآن باللغة العربية أنها أفضل اللغات وأعربها، وأنهم مبتدأ الدعوة فلتكن بلغتهم، وأنهم قومٌ لُّد ليسوا يتقبلوا قرآناً بغير لغتهم ولا يُقلبوا إليه!

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ تربية لهم على ضوء تربيتك، فإنها الميزان لكل العالمين، أتراها هي ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]؟ ونحن نرى عذابات الاستئصال تترى في المكذبين بآيات الله طيلة التاريخ الرسالي، فلماذا قضي عليهم دون قوم موسى!

هنا ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ والاستئصال قاض عليهم، فإنما القضاء بينهم إزالة للاختلاف بخارقة مارقة تجلي لهم الحق عياناً بعد بيان، وتلجئهم إلى الإيمان بعد شك قاصد مريب، ولكنما الدار دار ابتلاء وامتحان، وليست دار فصل وحسبان، إذاً يذرهم واختلافهم في خوضهم يلعبون، وفي غيهم يترددون.

ثم الشك منه مريب وهو أشره ومنه لا يريب، فهم يظهرون شكهم بمظهر المريب، ثم وليس العمل الصالح لصالح الرب، إلّا لأنفس المربوبين يوم الدنيا ويوم الدين ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أن يسيِّر على غير الصالح ثم يحاسب عليه، ظلماً ذا بعدين يجعل من ربك ظلاماً للعبيد!

صحيح أن من أساءَ تعدياً على مَن سواه فقد أساء على مَن سواه، ولكن المحور الرئيسي في ردة فعله ليس إلا المسيء نفسه، وكما العمل الصالح على سواء.

فالإساءَة والإصلاح غير المتعديين هما لزام المسيء والمصلح دون سواهما، والمتعدي منهما فيه ضِعفٌ لهما إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فصاحبه هو الأصيل في فعله وافتعاله، ثم الله لا نصيب له من خيره أو شره، ف ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٨.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾:

علم الساعة مردودٌ إليه، محفوظ لديه، لا يعدوه إلى سواه حتى رسل الله، فإذا سُئلوا عنه ردوا علمه إليه، وليس فقط علم الساعة، بل ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ من أوعيتها الأكمام، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ نباتية أم حيوانية أم انسانية أماهيه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

هنا ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ و﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ تستغرق الكل من كل دونما استثناء، أنها بحيطة علمية إلهية ولا تسامى، مهما علم العالمون شيئاً ضئيلاً من هذه وتلك.

وذلك توحيد لربوبية العلم والقدرة ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إذ تقطعت الأسباب وحارت دونه الألباب ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾؟ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ إعلاماً وإعلاناً ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ لا هنا فأنت أنت الله الواحد القهار، ولا يوم الدنيا مهما خبطنا وأخطأنا.

وهنا ﴿مِّنَّا مِنْ﴾ ضاربة إلى عمقٍ بعيد من سلبية الاستغراق، فلا أحد منا يشهد أن لك شركاء! وهنالك:

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾:

فهنالك ظهور الحقايق، فليضل الشركاء المختلقون، فذواتهم هناك موجودة، وصفاتهم مفقودة، وذلك ضلالهم والضلال عنهم، أم وذواتهم مخبوّة لترذّلها، اللّهم إلّا الأولياء الذين اتُّخذوا لله شركاء.

ولماذا هنالك «ظنوا» واحتمال المحيص لهم ساقط بما يرون من عذاب الله؟ علّهم لنكرانهم الشهداء من ناحية، ولمسة المسرحة الرحيمية لله من أخرى، قد يخلد بخلدهم أن لهم ﴿مِّن مَّحِيصٍ﴾ ف ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ولا يملّ ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أن يدعوه طلباً في حال وفعال وقال، أو يُدعى له، فدعاء الخير يعم دعاءه الخير بنفسه أم دعاء غيره له بالخير، وسواء عنده أن يدعو ربه أم سواه، بل قد يفضل عليه سواه، ولمّا ييأس عن سواه يدعوه مخلصاً ولكي يحصل على مُناه.

فكل ما يراه خيراً يكدح في طلبه كدحاً بكل صنوف الدعاء، ولكنه ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ كأن لم يكن هناك خير، ففي لمسة من شر ينسى كل خير قبله كأن لم يُعطَه من ذي قبل.

مجرد مس الشر يقنطه عن كل خير مأمول، وهو رسم دقيق واقع صادق للنفس البشرية لاغترارها الكادح بالسراء، وجزعها بمس الضراء.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾:

وما أحمقه في قولته الخواء ﴿هَٰذَا لِى﴾ نكراناً أنه لله ومن الله، دونما استحقاق له من رحمة الله، فإن كانت لك فلماذا سلبت عنك فأنت يؤوس قنوط، ثم الدنيا ليست دار جزاء يجزى فيها أهل الحق برحمة، فحتى لو كنت منهم فـ ﴿هَٰذَا لِى﴾ غلطة ثم ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ثانية ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ ثالثة، فهل أنت بثالوثك المنحوس تستحق رحمة ربك، والمؤمنون لا يستحقون؟

وهنا في ﴿رَبِّىٓ﴾ اختصاص لربوبيته تعالى بنفسه كأنه ليس رباً لسواه، وفي «إن لي للحسنى» تأكيدان اثنان أن له حسنى الحياة، ولماذا هذه

الإشراكة بالله، ونكرانه يوم لقاء الله، إذاً فالموحدون المؤمنون هنالك يحرمون، وهؤلاء الغباوى يُكرمون؟ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾(١)!.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾:

وهذه حالته الغفلانة الرديئة إلّا من هداه الله.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾:

فهلا يكون ذلك احتمالاً يستحق الاحتياط، فماذا أخذتم لأنفسكم من وسائل الاحتياط، فإن لم يكن القرآن من عند الله فنحن وإياكم شرع سواء، لا يضرنا ما صمنا وصلينا، ولا ينفعكم متعة الحياة الدنيا.

وأما إن كان من عند الله كما تدل عليه دلائله ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ فمن أضل منكم حيث عشتم في شقاق بعيد.

وذلك دليل عند فقدان الدليل، أم تعنّتٍ خانقٍ أمام الدليل، لا ينكره حتى المجانين، فالأخذ بالحائطة طريقة العقلاء، حيث الاحتياط طريق النجاة، كلما كان المحتاط له أهم فالاحتياط له أتم وأعظم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾:

هنالك آيات ترى بعين الفطرة والعقل والحس أمّاذا من جوارح وجوانح، فلا حاجة إلى إراءتها، وآيات أخرى غامضة يريها الله بما يبين في

(١) سورة النجم، الآية: ٢٢.

كتاباته وألسنة أنبيائه أم إلهامات غيبية، وهي حالّة حالية وماضية على أية حال، فما هي الثالثة التي ﴿سَنُرِيهِمْ﴾؟ وتبيُّن الحق في القرآن لزام كل مكلف على أية حال، وإلّا لم تكن حجته بالغة على كل حال!

ضمير الغاب في «أنه» هو الله العزيز وكتابه العزيز، و﴿ءَايَـٰتِنَا﴾ تعم التدوينية القرآنية والتكوينية الكونية، ولأن «في أنفسهم» تعم دواخل نفوسهم، وإياهم فيما بينهم، فـ ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ تعم خوارج نفوسهم، والخارج عما بينهم، فـ «نفوسهم» تخص الدواخل، «وأنفسهم» تعمها وما بينهم.

صحيح أن بصر العين وبصيرة العقل والفطرة كافية لتبنّي أصل الإيمان بالله وكتابه، ثم الإراءة الإلهية تزيد إيماناً على إيمان: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾[1] وهدى على هدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[2] إلا أن لكل مستقبل من الزمن إشراقة تبيّن وإراءة فوق إراءة، هي من عوامل تبيُّن الحق في زاوية ثالثة للذين اهتدوا، ومن الأسباب القاطعة القاصعة لتبيُّنه للذين جحدوا بها، كالأخبار المستقبلة، فوقوعها كما أخبر عنها إراءَة مستقبلة، وكالتقدمات العقلية والعلمية الناصعة التي ترى عياناً ما لم يكن يُرى من ذي قبل إلّا بعين البصيرة فـ «إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن».

فالتقدمات العقلية والعلمية هي من الآيات الأنفسية الأولى، فآفاقيتها هي الكشوف العلمية التي تكشف - دوماً - النقاب عن وجه كتاب التكوين حيث تجاوب كتاب التدوين.

والانتصارات الإسلامية هي من الأنفسية الثانية كفتح مكة وغلب الروم الكتابيين على المشركين: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.

بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾[١] وقد حصل، أماذا من غلبات وانتصارات وسواها من ملاحم أخبر عنها القرآن ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾[٢].

والانهزامات لغير المسلمين هي من الآفاقية الثانية لهم، وقد يجمعها خير جمع وأفضله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾[٣] حيث يعز أولياءه ويذل أعداءه، آفاق فائقة للذين آمنوا، بائقة للذين كفروا.

فالمسلمون وسواهم من الناظرين إلى القرآن يعيشون دوماً آيات الله تدوينا وتكويناً في الآفاق وفي أنفسهم، حيث يريهم الله إياها، فهما يبيّنان لنا الحق في الله، والحق في كتاب الله في مثلث التبيين - أم لأقل تقدير - في زاوية أولى، ومن ثم ثانية لتبين الحق أمام الطالبين، وإذ لم يكف ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[٤].

إن شهادته على كل شيء كما في آيات عدة كهذه[٥] هي حضوره علمياً

(١) سورة الروم، الآيات: ١-٤.
(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٥٥ ح ٧٣ في كتاب الاحتجاج روي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسن بن علي عليه السلام قال: إن يهودياً من يهود الشام وأحبارهم قال لعلي عليه السلام فإن هذا موسى بن عمران قد أرسله الله إلى فرعون وأراه الآية الكبرى قال له علي عليه السلام : لقد كان كذلك ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أرسله الله إلى فراعنة شتى مثل أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة وأبي البختري والنضر بن الحارث وأبي بن خلف ومنبه ونبيه ابني الحجاج وإلى الخمسة المستهزئين الوليد بن المغيرة المخزومي والعامر بن وائل السهمي والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن المطلب والحارث ابن الطلاطلة فأراهم الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.
(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٤) الواو هنا عطف على مثل ما ذكر حيث يصلح لأن يكفي بربك إراءة لآياته في الآفاق وفي أنفسهم.
(٥) ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] =

وقيومياً وتلقياً لأعمال وحالات، وحضوره تربوياً، فربوبيته ناصعة في كل شيء و«على» هنا تشهد أن شهادته تعالى عالية محيطة هي لزام ذوات الأشياء كيفما كانت وأنّى وأين، منذ خلقت وحتى القيامة والفناء لما يفنى!

و«ربك» حيث تعني التربية الإلهية القمة فـ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هي في قمة الشهادة المحيطة علواً فيها علمياً وقيومياً وتلقياً وتدليلاً له عليه، وهذه الشهادة المربعة دائبة طول الزمان وعرض المكان لكل إنس وجان.

و«العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد من العبودية وجد في الربوبية وما خفي في الربوبية أصيب في العبودية قال الله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: أي موجود في غيبتك وحضرتك»(١).

ومن تبين الحق في الله وفي القرآن وفي كل حق ما يُريه من آيته العظمى وحجته الكبرى الحجة القائم المهدي من آل محمد عليه السلام (٢).

وهكذا يتجاوبان ويتناظران كتاب التدوين القرآن وكتاب التكوين أياً كان على طول الخط منذ نزل القرآن حتى القيامة الكبرى، تجاوباً في رؤية وإراءة ﴿ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؟

= ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سَبَإ: ٤٧] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجَادلة: ٦، والبروج: ٩] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النِّساء: ٣٣، والأحزاب: ٥٥] - وبالنسبة للأعمال: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٨] ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يُونس: ٤٦].

(١) مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٥٥ ح ٧٤ في روضة الكافي عن الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: خسف ومسخ وقذف قال قلت «متحاربتين لهم»؟ قال: دع ذا ذاك قيام القائم وفيه عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن هذه الآية قال: نريهم في أنفسهم المسخ ونريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم فيرون قدرة الله عز وجل في أنفسهم وفي الآفاق قلت له: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصّلَت: ٥٣]؟ قال: خروج القائم هو الحق عند الله عز وجل تراه الخلق لا بد منه.

«ألا» حذارهم حذار ﴿إِنَّهُمْ﴾ غارقون ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ﴾ هنا ويوم يقود الأشهاد «ألا» تنبهاً وحضوراً ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ كما هو على كل شيء شهيد، إحاطة في مربع الشهادة، وشهادة في مربع الإحاطة لا مفلت عنه، ولا مناص عن لقائِه!

أترى بعد ذلك كله أن «هم» في سنريهم تخص الحاضرين؟ كلا إنه يعمهم والذين يلحقون بهم من خلفهم وإلى يوم الدين، يعيشون إراءة الآيات الآفاقية والأنفسية تدوينية وتكوينية! ومن المستقبل المعني في ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ عند الموت وعند النشور، لمن عمي عن آيات الله رغم رؤيتها وإراءتها، فلا أحد إلّا وقد يرى آيات الله في الآفاق والأنفس ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾!.

٤٢

سُورَةُ الشُّورَىٰ

سُورَةُ الشُّورَىٰ

مكيّة وآياتها ثلاث وخمسون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤
تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ
وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦
وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ
ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن
وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾

هنالك حواميم سبع تترى تلو بعض، ثالثتها هذه، وتزيد على الست الأخرى ﴿عٓسٓقٓ﴾ وكلها مكية، تتلو حواميمها ذكر الكتاب إنزالاً وتنزيلاً بيّنا ومبيناً، إلّا هذه، حيث تذكر مطلق الوحي أو الوحي المطلق إلى هذا الرسول والذين خلوا، كما ويعقبه دون فصل كتاب التكوين إيحاء بتجاوب الكتابين، وتلاؤمهما، كما هما مع الحواميم.

ترى وما هو السر في تتابع الحواميم السبع المكية واختصاص ثالثتها بـ ﴿عٓسٓقٓ﴾ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[(١)] ! ومهما يكن من شيء فلتعنِ «عسق» هنا زائداً عما عنت «حم» في الست الأخرى، وعلّ من الزائد ما يوحيه ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ أو «وعلم كل شيء في ﴿عٓسٓقٓ﴾»[(٢)] فـ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ﴾ إجمال عن الوحي كله، أم ماذا؟، والحروف المقطعة في كل سورة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٥٧ في تفسير علي بن إبراهيم ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ هو حروف من أسماء الله الأعظم المقطوع يؤلفه الرسول ﷺ والإمام عليه السلام فيكون الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، حدثنا أحمد بن علي وأحمد بن إدريس قالا حدثنا محمد بن أحمد العلوي عن العمركي عن محمد بن جمهور قال: حدثنا سليمان بن سماعة عن عبد الله بن القاسم عن يحيى بن ميسرة الخثعمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: حم عسق عدد سني القائم صلوات الله عليه وقاف جبل محيط بالدنيا من زمردة خضراء فخضرة السماء من ذلك الجبل وعلم كل شيء في ﴿عٓسٓقٓ﴾، وفي تفسير البرهان ٤ : ١١٥ بإسناده عن ابن عباس قال: حم اسم من أسماء الله عز وجل وعسق علم على تفسير كل جماعة ونفاق كل فرقة، وفيه في معاني الأخبار بإسناده إلى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وأما حم عسق فمعناه الحكيم المثبت العالم السميع القادر القوي.

وفي تفسير البرهان ٤ : ١١٥ بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: حم: حتم وعين: عذاب، وسين: سنون كسني يوسف، وقاف: قذف ومسخ يكون في آخر الزمان منه بالسفياني وأصحابه وناس من كلب ثلاثون ألف يخرجون معه وذلك حين يخرج القائم عليه السلام بمكة وهو مهدي هذه الأمة.

أقول: ليس لنا أن نتأكد بشيء من هذه المعاني المروية في روايات آحاد، كيف ولا نصدق تفسيراً للكتاب المفصل إلا ما وافقه أو ثبت وروده قطعيا عن أهل بيت القرآن، فبأن نحتاط في تفسير صفوة القرآن أحرى وأوجب، ورواياته آحاد ومتضاربة، فلا نصدق إلا ما يصرح أو يلوح به القرآن أو ثبت وروده عن أهله الخصوص المعصومين عليهم السلام.

وقد نصدق طرفاً من «علم كل شيء في ﴿عٓسٓقٓ﴾ اعتباراً بالآيات التي تليها ولا سيما ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [الشورى: ٣] أن ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ يرمز إلى الوحي كله، ما نزل من قبل وفي هذا، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا.

ثم ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ...﴾ [الشورى: ٥] لعلها توحي بتفطر ما توحيه ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ كما في دولة المهدي عليه السلام.

إذا كانت عدة تجمع ك «الـمر - كهيعص» وكيف فصلت هنا «حم» عن «عسق» اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا!.

أو ترى أن ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الوحي البعيد البعيد في مكانته ومحتده، إشارة إلى ما بعدها من الشورى أو القرآن كله؟ كما في ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]؟ ولكن الإشارة إلى ما مضى أحرى منها إلى ما يأتي! وما أوحي إلى الذين من قبله ليس كمثل الشورى أو القرآن كله اللهم إلّا في أصل الوحي دون شاكلته ومراتبه ومادته، حيث القرآن يفوق سائر الوحي في هذا المثلث.

أو أن «كذلك» تشير إلى «حم. عسق» في وحيها الخاص بالرسول محمد ﷺ أن النبأ الذي تحمَّله أوحي إلى الذين من قبله كما أوحي إليه.

أو أن «كذلك» تعني أمثال هذه الحروف المقطعة التي هي رموز تخص أصحاب الوحي - لا خصوص حم. عسق -؟ ولا نرى في سائر كتابات الوحي هكذا وحي مقطّع! إلّا أن يعني أصله الموحى إليهم دون كتبه في كتاباتهم.

أو أنه إشارة إلى أصل الوحي في بُعد يعم سائر الوحي لسائر المرسل إليهم دون خصوص المرسلين، لا الوحي الثنائي الذي هو وحي في وحي «حم. عسق»؟

أو أنه يعم الجميع. فـ «كذلك» الذي يوحي إليك ربك في الشورى وسائر القرآن يوحي إلى الذين من قبلك، وحي كسائر الوحي في السنة الرسالية كأصل مهما اختلفت مراتبه كيفية ومادة أم ماذا؟: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[2] فالدين الوحي واحد في الكيان مهما اختلفت الشرايع إليه شكلياً وفي علو الكيان، لحد قد يعتبر سائر الوحي

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

الأصيل إلى سائر أولي العزم من الرسل وجاه الوحي القمة المحمدي وصيةً: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾[١] وكثيرة هذه الآيات التي تبرز مشاركة غير مشاكسة بين مدارج الوحي، اللّهم إلّا بميّزة الكمال القمة في خاتمة الوحي.

و«كذلك» مثل «حم. عسق» من الوحي الخاص المنحصر في أصحاب الوحي: المنحسر عن سواهم ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ مهما لم تثبت هذه الرموز في كتاباتهم وثبتت في القرآن.

فالوحي منه ذو بعد واحد كالمجرد عن الألفاظ مثل ما أوحي من محكم القرآن على قلب الرسول ﷺ ليلة القدر، أو ذو بُعدين ثانيهما بُعد الألفاظ المفصلة كالقرآن المفصل، أو ذو أبعاد ثلاثة ثالثتها الحروف التلغرافية المقطعة، فإنها مثلث الوحي: أصل المعنى - أصل اللفظ - ورمز اللفظ، و«كذلك» ككلّ أو كبعض ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وكما أن الآية توحي بعامة الوحي إلى عامة أصحاب الوحي بمختلف مدارجه، فقد تعلّله الأسماء الخمسة الحسنى التي تليها: «وهو ١ - ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، ٢ - ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، ٣ - ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ٤ - ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾، ٥ - ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ فهذه الخماسية المجيدة تعلل موجهة الوحي الرسالي إلى عامة المرسلين.

فبعزته يوحي إذ لا صادَّ يصدّه ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾[٢] والوحي من مظاهر العزة الإلهية حيث يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، والعزة الملكية بارزة في عزة وحيه إلى أعزةٍ من خلقه ليعزز حكمه عليهم.

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.

وبحكمته لم يوح إلى عامة المكلفين، حيث القلوب أوعية وخيرها أوعاها، فلا وحي إلّا إلى أوعاها، ثم بحكمته أوحى إلى كل قلب أوعى قدر وعيه وحاجة الموحى لهم، المرسل إليهم أم ماذا؟

ولأن ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ اختصاصٌ للملكية والمالكية الحقة الحقيقية العامة للكون كله، فهو هو الموحي لتدبيره كله تشريعاً كما هنا وتكويناً كما ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا...﴾[1] وكل سماء تشمل فيما تشمل كل أرض من السبع، والأمر الموحى في الكل يعم التدبير تكويناً وتشريعاً.

ولأنه ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ في عزته وحكمته وملكيته ومالكيته، فلا ينال مَن دونه إلّا ما منحهم، فهم لا يملكون وحياً إلّا ما أوحي ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ...﴾.

ولأنه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ فيها وفي علوّه فليعل وليعظم وحيه، وليعز وليحكم وحيه، وليملك ويسيطر وحيه على الموحى إليهم والموحى لهم.

هنالك تتقرر وحدة الوحي في أصله، ووحدة مصدر الوحي، فالموحي هو الله العزيز الحكيم الملك العلي العظيم، ووحدة الموحى إليهم على مدار الزمن ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ...﴾، الوحي المثلث الوحدوي، قصة بعيدة المدى، قريبة الهدى، ضاربة في أعماق الزمن وأطوائه، متشابكة الحلقات وليست متشاكسة، في مناهج ثابتة الأصول مهما اختلفت الفروع.

فالله واحد، والرسالة واحدة، والأمة واحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ٥١-٥٣.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾:

إن لتفطر السماوات من فوقهن موقعٌ في القيامة الكبرى بما يفطرها اللّه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ...﴾[1]. حيث العلي العظيم يقضي بذلك التفطّر، ومن قبلها ومنذ خلقت موقعٌ للتفطر ﴿تَكَادُ﴾ كما هنا، وحين خلقها موقع حيث فطرت من المادة الأمّ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] ﴿... فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[3].

وتفطُّر السماوات حيث تكاد هو بين الواقعين: تعميراً وتدميراً، ثم وهو بين العلوّ والعظمة الإلهية: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وبين الاتخاذ من دونه ولياً: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ كما ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤﴾[4].

والفَطْر هو الشق، شقاً إلى الخلق كما شق السماوات والأرض من المادة الأم.

والمادة الأم شقّها لا من شيء إلّا إرادته، أو شقاً إلى الخراب ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[5] فهناك فطر الإيجاد والتعمير، وهنا فطر الإعدام والتدمير،

---

(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١، ٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤.
(٣) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.
(٤) سورة مريم، الآيات: ٨٨-٩٤.
(٥) سورة الانشقاق، الآية: ١.

ويختص الأخير بالانفطار التفطر[١] كما الأول بالفطر[٢] حيث الأولان تقبّل لفعل الفطر التدمير، والأخير هو هو الفطر للإيجاد أو التعمير.

ثم و﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ هنا قد تعني اقتراب الساعة فيما تعنيه من الحالة الكائنة بين فطرها وتفطرها، وإن كانت لا تعني إلّا الثانية في آيتها الثانية، وكيف لا تكاد تتفطر من فوقهن! والعظمة الإلهية من ناحية، واتخاذ أولياء من دونه من أخرى، تقتضي أن تتفطر قبل قيامتها، لولا أن ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٣] ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ...﴾[٤]:

وكما للعظمة الإلهية - وأن دعوا للرحمن ولداً ومن دونه أولياء - موقعها في ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ كذلك للوحي الإلهي المعلَّل بخماسية الأسماء الحسنى وأخراها ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أن يفطر القلوب ويقلبها غيرها، فـ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥] فيا لقلوبنا من قساوة لا تتخشع وتتصدع من خشية الله!.

ولماذا هنا ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ وفي مريم «يتفطرن» دون فوقهن؟ علّه لأن تفطرها في مريم ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[٦] وهنا إضافة إليها، العظمة

(١) كما ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمّل: ١٨].
(٢) كـ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ١٢: ١٠١ و١٤: ١٠ و٣٥: ١ و٣٩: ٤٦ و٤٢: ١١.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦١.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٤٥.
(٥) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٦) سورة مريم، الآية: ٩١.

الإلهية من فوقهن، وعظمة الوحي تكويناً وتشريعاً من فوقهن ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾(١)، شاملاً لسماء الدنيا حين تشمل أرضنا، حيث الوحي قول ثقيل أياً كان وأيان: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾(٢) فهاتان الفوقيتان مع ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ تسبّب أن ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ...﴾!

ثم ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ كما تعني فوقية العظمة والوحي الإلهي، تعني كذلك نفس الفوقية السماوية أنها تتساقط بأجوائها وأجرامها.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾:

إن ولاية التشريع والتكوين المستفادة من هذه الآيات الخمس وأشباهها في سائر القرآن، هي خاصة بالله كسائر الولايات الإلهية، ولا تعدوه إلى سواه، فإنها ولاية ذاتية هي لزام ألوهيته وربوبيته، ثم ولا يولي رسله وأولياءه إلّا ولاية بلاغ الشرع، والأولوية في المرجعية الروحية السياسية، كما يحددها سبحانه ويتخذهم أولياء لخلقه، فلا ولاية ذاتية أياً كان لمن سواه، ولا غيرها إلّا بجعله.

فمن يتخذ من دون الله أولياء: ولاية إلهية من دون الله، أم جعلية من دون إذن الله ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء المتخذين فكرتهم وفعلتهم الخاطئة وسوف يحاسبهم عليها، وعلى الأولياء الزور الطواغيت حيث ادعوها أو قبلوها، وعلى الأولياء الأوثان وهؤلاء، فالله حفيظ عليهم بولاية التكوين والتقدير، فكيف يتخذون من دون الله أولياء؟ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم﴾ (هؤلاء هؤلاء) ﴿بِوَكِيلٍ﴾: أن تمنع الطالب والمطلوب من فعلته وحالته وكالة تكوينية، وإنما لك رسالة بلاغيّة عذراً أو نذراً.

فهنا ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ إنذار واحتجاج ما أخصرهما وأجملهما،

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.
(٢) سورة المزمل، الآية: ٥.

فالحفاظة الإلهية على من اتخذوا من دونه أولياء حفاظة أنفسية حيث هم في حفظ الله وإن يشاء يذرهم دون حفظ فيتهدرون، وحفاظة على أعمالهم السيئة حيث تشهد عليهم يوم يقوم الأشهاد. وهذا إنذار لأولاهم وأخراهم، ثم هو حفيظ على المتخذين من دونه أولياء، لولا حفظه لهم لم يظلوا في كونهم وكيانهم فكيف يتخذون أولياء ذاتياً من دون الله أنداداً، أم جعلياً في سائر الولايات إلّا التكوينية والتشريعية، فالحفيظ عليهم كما يحفظ كونهم كذلك يحفظ كيانهم، فولاياتهم غير الإلهية ليست إلّا بإذن الله فكيف يتخذون من دون الله أولياء؟ وإذا كانوا طواغيت جمع عليهم الإنذار والاحتجاج.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ البين المبين من آيات كما هنا وفي سائر القرآن ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يعرب بفصيح آياته وبليغها لأعلى القمم عن أعلى القيم التي تقوّم وتقيم المكلفين على صراط مستقيم، واضحاً لا تعقيد فيه ولا ريب يعتريه ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

ترى ما هي أم القرى ومَن هم مَن حولها؟

أم القرى هي مكة المكرمة[1] وهل إن مَن حولها هي القرى العربية من شبه الجزيرة، حيث الحول هو القرب الدائر مدار الأصل؟ أم وسائر القرى العربية من الجزيرة وسواها المتصلة بها، المجاورة لها؟ وعربية القرآن بمعنى اللغة تشمل العرب عامة من حول أم القرى أم البعيدة المنفصلة عنها! أم إن حولها تشمل كل القرى في هذه المعمورة؟ وكيف تشمل غير العربية منها

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩ - أخرج ابن مردويه قال قال رسول الله ﷺ: أم القرى مكة. أقول وتمر عليك أحاديث بهذا المعنى تحت الأرقام ١ - ٢ و٤ - في الصفحة الآتية.

ووحي القرآن عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها لا يحمل إنذار غير العربي، وإن حمل وشمل فلا اختصاص لإنذاره بقرى هذه المعمورة!

أم لا ذا ولا ذاك ولا.. فعربية القرآن لا تعني خصوص اللغة حتى تختص بأصحابها، وإنما تعني وضوحها بين اللغات وعلى حدّ تعبير باقر العلوم في تفسير «عربي مبين»: يبين الألسن ولا تبينه الألسن - حيث يعرب دون تعقيد وقصور عن أعمق المعاني وأعضلها: (علم الله النازل إلى المكلفين أجمعين) بأوضح بيان وأجمله.

هنا لسان عربي مبين، وهناك لغة ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[١].

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[٢] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٣] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٤] فاللسان هو لغة البيان، واللغة أعم من البيان واللابيان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥] ولسان قومه، غير لغة قومه، وإنما ما يعرب عن الحق دون أي خفاء، لحد يفهمه كل مكلف حيث التعبير عربي مبين واضح لا تعقيد فيه.

ولأن اللغة العربية أعرب اللغات وأوضحها، لذلك سميت عربية، ثم الله أنزل هذا القرآن بأفصحها وأبلغها كما يفهمه كل متفهم ليكون الإنذار والتبشير به شاملاً لا تبقي حجة ولا تذر.

فكما القرآن حكم عربي لا يختص بالعرب: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣-١٩٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٤) سورة الدخان، الآية: ٥٨.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

عَرَبِيًّا...﴾[١]: حكماً واضحاً لا تعقيد فيه تفهما تعقلاً وتوافقاً للعقل والفطرة والحياة ككل، ثم وتطبيقاً على الطول التاريخي والعرض الجغرافي..

كذلك هو قرآن عربي لعلكم تعقلون وتعلمون: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢] ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٣] ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٤] حيث لا عوج فيه تعبيراً وإعراباً عن الحق، ولا معنوياً ولا في أية ناحية من نواحي البلاغ.

كما وأن الإعراب إظهار الحالة الأدبية للكلمة، والأعراب هم أهل البدو الظاهرون المتكشفون حيث لا تظلهم إلا السماء أم ماذا؟ غير البنيان في المدن - فـ ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[٥] لا تعني من يتكلم بهذه اللغة، وإنما من يعيش في البوادي، حيث البعد عن مراكز التمدن الإسلامي يجعلهم بعيدين عن الإسلام فهم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ثم «القرى» هي كافة المجتمعات من سائر المكلفين من الجنة والناس أجمعين أم من ذا؟ في كافة المدن الأرضية[٦] والسماوية دون استثناء، وأمها هي مكة المكرمة زادها الله شرفاً.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٨.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٩٧.
(٦) في تفسير البرهان ٤: ١١٥ القمي قال قال: أم القرى مكة لأنها أوّل بقعة خلقها الله من الأرض لقوله: إن أوّل بيت وضع للناس..
أقول: إن أمية الرسول من جهات عدة منها أنه من أم القرى، ومنها أنه لم يقرأ ولم يكتب قبل النبوة، وإن كان أقرأ القراء واكتب الكتاب بعدها ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] والروايات التي تكذب النسبة الأخيرة إنما =

إن الكعبة المشرفة هي أوّل بيت وضع للناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾(١) (٢) و الله تعالى بلك الأرض ومكّها من مكة، حيث حركها من حيث هي كنقطة أولى لحراكها(٣): ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾(٤) ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾(٥) (٦).

ثم الأرض هي أيضاً أمٌّ لسائر الكرات لسبقها في خلقها عليها بمرحلتين: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

= تعني بعد النبوة لا قبلها كما في تفسير البرهان ١: ٥٤١ بإسناده عن علي بن حسان عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له إن الناس يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكتب ولا يقرأ؟ فقال: كذبوا لعنهم الله أنّى يكون ذلك وقد قال الله عزّ وجلّ: هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته...

فكيف يعلمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن أن يقرأ ويكتب؟ قال: قلت فلم سمي الأمي! قال: نسب إلى مكة وذلك قوله: لتنذر أم القرى ومن حولها - فأم القرى مكة فقيل: أمي لذلك.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٥٧ عن تفسير علي بن إبراهيم القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى - مكة - وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]: سائر الأرض! أقول: وهذا بيان لأوسط المصاديق لـ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ كما فسرت باقر بها «الطائف» في رواية أخرى رواها العياشي عن علي بن أسباط قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام لم سمي النبي الأمي؟ قال: نسب إلى مكة وذلك من قول الله: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. - وأم القرى مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الطائف (تفسير البرهان ٤: ٥٤٠) وفي الدر المنثور ٣: ٢٩ - أخرج جماعة عن ابن عباس في تفسير ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال: يعني ما حولها من القرى إلى المشرق والمغرب.

(٣) في عيون الأخبار والإرشاد للديلمي أن شامياً سأل علياً عليه السلام عن مكة المكرمة لم سميت مكة؟ فقال عليه السلام: لأن الله مكّ الأرض من تحتها أي دحاها. وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: فلما خلق الله الأرض دحاها من تحت الكعبة ثم بسطها علي الماء.

(٤) سورة النازعات، الآية: ٣٠.

(٥) سورة الشمس، الآية: ٦.

(٦) القمي عن الباقر عليه السلام قال: أم القرى مكة، سميت أم القرى لأنها أوّل بقعة خلقها الله عزّ وجلّ من الأرض لقوله عزّ وجلّ: إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً...

قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[١].

فمكة المكرمة من الناحية التكوينية هي أم القرى، ثم وكذلك من الناحية التشريعية حيث الشرعة الإسلامية هي أم الشرائع وتلك أطفالها المتطفلة عنها وإن كانت قبلها، فهي هي المركز الرئيسي للرسالات الإلهية أولاً وأخيراً، وهي الركيزة القويمة المتينة الدائبة للرسالة الإسلامية طول الزمان وعرض المكان، ومن أمية الرسول أنه من أم القرى[٢] وأن رسالته أمّ الرسالات كلِّها ولكل القرى.

ولأن «القرى» جمع محلّى بلام الاستغراق، فهي تستغرق القرى المكلفة بهذه الشريعة العالمية في كافة أنحاء العالم بأرضه وسمائه، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لا تعني الحول القريب، وإنما الحول من حيث التبعية الشرعية، وهذا يتبع في حده ما تقرره الشريعة من حدود، فـ «القرى» بجمعيتها الاستغراقية من ناحية، والحول بكونه حول الأمّ من ناحية أخرى تدلان على هذه السعة العالمية في ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

ومن المعروف والطبيعي أن من حول العاصمة في كل منطقة هم أتباع العاصمة وإن بعدوا عنها، والأولاد هم حول الأم أياً كانوا، فلا تعني الحول هنا وهناك المكان القريب من الأم والعاصمة، وإنما التبعية للأصل مهما كان المكان قريباً أو بعيداً، والرسالات الإلهية في القرى ليست إلّا في أمها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ﴾[٣].

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.

(٢) في تفسير البرهان ٤: ١١٥ محمد بن الحسن الصفار عن أحمد بن محمد عن البرقي عن جعفر ابن محمد الصيرفي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام قلت له: لم سمي النبي الأمي - إلى أن قال: وإنما سمي الأمي لأنه من أهل مكة ومكة من أمهات القرى وذلك قول الله في كتابه: لتنذر أم القرى ومن حولها، وفيه عن القمي قال قال: أم القرى مكة سميت.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٩.

فأم القرى هي العاصمة الوحيدة للرسالة الإسلامية العالمية -: رسالة إلى الناس كافة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(١) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾(٢) وليس الناس فحسب بل والجنّة أيضاً: حيث تذكر مع الإنس أم وحدها في نطاق الرسالات الإلهية في عشرات من الآيات(٣) ثم ولا الجنة والناس فحسب بل والعالمين أجمعين: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾(٦) فوحي القرآن ضارب إلى الأعماق في طول العالم وعرضه، من حضر ومن بلغته دعوته أياً كان وأيان: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(٧) وأم القرى هي المركز الرئيسي والعاصمة الوحيدة الوطيدة الخالدة لهذه الرسالة والدعوة الأخيرة، فالجنة والناس أجمعون، والعالمون أجمعون أياً كانوا وأيّان تشملهم هذه الدعوة العالمية دونما استثناء، وهم كلهم مِن «مَن حولها».

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٣) ونماذج من هذه الآيات البينات كالتالية: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى. . .﴾ [الأنعام: ١٣٠] ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ. . .﴾ [الأعراف: ١٧٩] ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ. . .﴾ [الإسراء: ٨٨] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصّلت: ٢٥] ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ. . .﴾ [الجن: ١-٢].

(٤) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٦) سورة التكوير، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

إذاً فآية أم القرى - وهي الآية الأم في التعريف بسعة هذه الرسالة - إنها تعتبر مكة المكرمة المركز الرئيسي للرسالة المحمدية ﷺ حيث صدرت وانتشرت عنها هذه الدعوة المباركة وعلى طول الزمن، والقرى هي المجتمعات العالمية والمكلفة في شتى أرجاء الكون، في هذه المعمورة أم سائر المعمورات في الأنجم، وهي كلها «من حولها» حيث الحول تعني هنا ما يناسب عمومية القرى المستفادة من مستغرق الجمع فيها، ولو أن «مَن حولها» يخص القريب منها دون الجمع، لكانت القرى هي هذا البعض فقط لا الجمع، فالمعنى: لتنذر أم بعض القرى!..

إذاً فدعوة الأم ورسالتها تشمل القرى كلها وإلا لم تكن من قراها، والقرى هم العالمون أجمعون حيث الله ربهم أجمعين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١) إذاً فالخارجون عن هذه الدعوة ادعاءً وتعنتاً هم خارجون عن الناس إلى النسناس، وهم خارجون عن العالمين الأحياء، المتخلفون عن ربوبية الله! وكما أن مكة أم القرى تكويناً وتشريعاً، كذلك الرسول الأقدس وأحرى، حيث القلوب قرى وأمها ومركزها الأصيل عبر الرسالات وإلى يوم القيامة هو القلب المحمدي ﷺ وهنا الرسول ﷺ يبدأ بإنذار نفسه واصطناعه بالقرآن، ثم سائر القلوب من سائر المكلفين، خوضاً في أغوار البحار المتلاطمة من كافة المكلفين لينجي الغرقى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ...﴾(٢) ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾(٣): فبقيام الليل والترتيل يعد نفسه نهاراً للسبح الطويل!..

ثم وهنالك شهادات كتابية تصدق ما شاهدنا في آية ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ ففي

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٢) سورة المزمل، الآيتان: ١، ٢.
(٣) سورة المزمل، الآية: ٧.

الأصل الانقلوسي من نبؤتِ هَيِّلدِ «محمد.. كليليا»: «محمد هو الكل - في كله»: في رسالته ودعوته، كما في صفاته أم ماذا من محمدياته؟.

وفي الأصل العبراني من فرع توراتي: حكّي النبي «وَهِر عِستي إِتْ هَغُويم وُبائو حَمِّدِتْ كالْ هَغُوِيم وُمِلُوتي إِتْ هَبَّيِتْ هَزَّه كابودْ آمَرْ يِهْواه صبائوت»:

أهيِّج كل الأمم ويأتي محمد كلّ الأمم ومرغوبهم واملأُ هذا البيت من الجلال هذا أمر رب الجنود».

وفي إنجيل برنابا الحواري: (٩٦: ٨) أجاب يسوع: لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي إني لست مسيّاً الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً: بنسلك أبارك كل قبائل الأرض.

وبركة هذا النسل المبارك مصرحة في الأصل العبراني من التوراة: تكوين (١٧: ٢٠) «وُليشْمعيل شِمَعْتِيخا هِينّه بَرخْتي أوتو وَهِيفرتِي أوتو وهِيْرِبْتي أوتو بِمْئُدْ مِئُدْ شِنِيم عَاسارْ نِسيئِمْ يُولِدْ وِنَتِّيو لِغُويَ غادُل»:

«ولإسماعيل سمعته: (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيراً وأنميه كثيراً وأثمره كثيراً وأرفع مقامه كثيراً بمحمد ﷺ واثني عشر إماماً يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة.. أبارك العالم بهم»[1].

﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ عطف الإنذار الثاني إلى الأول يوحي بأنه غيره، فما هو الإنذار بغير يوم الجمع؟ إن هنا نذارة ليوم الفرق الدنيا وأخرى ليوم الجمع الأخرى وكما البشارة تعمهما، إذ ليس الدين - فقط - ينحو نحو الإصلاح للأخرى حتى يختص إنذاره وتبشيره بها، بل ويبتدئ بالأولى وينتهي إلى الأخرى،

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد تفاصيل هذه البشارات.

حيث الأولى مزرعة الأخرى، وانتفاع الزارع أو خسرانه يعمهما،.. وقد يعني الإنذار الأول - فيما يعني - إنذار المبدأ قبل المعاد، أو أن الإنذار الأول يعمهما كليهما، فلأن الثاني أهمهما يختص هو بالذكر دون الأوّل، حيث النكبات الدنيوية تتحمل بطيّات شهواتها الحاضرة، ولكنما الأخروية صارمة لا تحمل بطياتها شهوات، فالإنذار لها هي هي الأصل وللأولى الفرع.

ثم الجمع ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يحوي جموعاً عدة: جمعاً لأجزاء كل إنسان وعظامه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾(١) وجمعاً للخلائق المكلفين: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾(٢) وجمعاً بين الرسل الأشهاد والمرسل إليهم المشهود عليهم: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾(٣) ولكي يفتح ويحكم بينهم: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾(٤) ثم وجمعاً لأصحاب الجحيم في الجحيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾(٥) وكما يجمع أصحاب الجنة فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾(٦).

وبالجمع بين العمال وأعمالهم، بينهم وبين كتبهم وشهودهم، حتى يحقق الجمع بين كل عمل وجزاءه..: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

ثم الإنذار كتحقيق وإن كان مرحلياً من حيث التطبيق منذ العشيرة

(١) سورة القيامة، الآية: ٣.
(٢) سورة المرسلات، الآية: ٣٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٠.
(٦) سورة الحج، الآية: ١٤.

الأقربين: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(١) إلى قوم لدّ وهم الألداء من العرب: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾(٢) وإلى من بلغ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(٣) ثم إلى العالمين أجمعين: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(٤).

ولكنما الإنذار بالقرآن ككل ليس مرحلياً، بل ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾(٥) ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾(٦). والمؤمن بالآخرة لا يُحصر في أم القرى والقريبة منها، بل ويعم كل من سبيله الإيمان أيًّا كان وأيان.

ثم في المرحلية أيضاً إنما يترحّل الإنذار من عشيرته إلى قومه اللّد أياً كانوا، لا في القرى المجاورة لأم القرى، فلا العشيرة الأقربون محصورون فيها، ولا القوم اللد مخصوص بها، فالأقرب الأحرى في الإنذار هم الأقربون قرابة لا مكاناً، ثم الألداء الأشداء تعنُّتاً ومكانة لا مكاناً، ولا تصريحة أو إشارة في القرآن أن الأقرب مكاناً أحرى وأقرب في الدعوة.

ثم وللإنذار مرحلياً وسواه - كما سبق - موضع في الأولى وآخر في الأخرى كما في طيات آياته(٧) ثم وكذلك التبشير ولكن الإنذار يحتل الموقع الأعلى والركيزة الأولى في الدعوات الرسالية، فإن حمله على التقوى أقوى

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥١.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.
(٧) والأكثرية الساحقة من آياته تنحو منحى الأخرى لأنها أحرى وأكثر تأثيراً، وقليل منها تخص الأولى وثالثة تعمها.

من التبشير، فكثير هؤلاء الذين لا يهمهم ما يبشّرون به من نفع ويهمهم ما ينذَرون به من ضرٍّ، ودفع الضرر أولى من جلب النفع، والجمع أحرى!

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾:

ماذا تعني وحدة الأمة المستحيلة بما توحيه «لو»؟ أوحدة تشريعية في شرعة وهي الشرعة الكاملة الأخيرة أن يكلف المكلفين عامة بهذه الشرعة منذ آدم إلى الخاتم؟ فـ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(١).

أم وحدة في ضلالة كما هم قبل البعثة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) أم وحدة في هداهم تكوينياً ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٣) جمعاً لهم على الهدى والعصمة(٤) دون اختيار؟ فهو انتقاص حيث الاختيار في الاهتداء اكتمال وليس كذلك الاضطرار.

أم يجمع من لا يهتدي بسوء الاختيار إلى من يهتدي بحسن الاختيار، أن يجبر الأولين على الهدى؟ وهذه تسوية بين المتقين والفجار!: ﴿أَمْ نَجْعَلُ

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.
(٤) نور الثقلين ٤: ٥٥٩ في تفسير علي بن إبراهيم في الآية قال: لو شاء أن يجعلهم كلهم معصومين مثل الملائكة بلا طباع لقدر عليه ولكن يدخل من يشاء في رحمته..

ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾(١) ثم ولا إكراه على الهدى ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾(٢) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾(٣) ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٤).

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ﴾(٥). وحدة في الثواب أو العقاب في الأخرى على اختلاف في الهدى والضلال في أولاهم! أم يُجبر الكلَّ على الضلال حتى من يَختار الهُدى لولا الإجبار، فهذا إدخال من النور إلى الظلمات لمن يهتدي لولا الإجبار، ثم تسوية ظالمة بين المهتدي والضال، وكذلك أيَّة تسوية بين الناس تكويناً أو تشريعاً في ضلال أو في هدى في الأولى أو الأخرى، كل ذلك بين انتقاص وظلم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد تعني آيتنا إحالة كافة هذه الوحدات.

ولماذا قوبلت ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بـ«من يشاء» دون «العادلون»؟.. لأن ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يعم العادلين والقاصرين غير المكلفين أو يسامح عنهم من الأطفال والمجانين والمستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(٦) فالعذاب يخص الظالمين،

(١) سورة ص، الآية: ٢٨.
(٢) سورة يونس، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.
(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢١.
(٦) سورة النساء، الآية: ٩٩.

والرحمة تعم العادلين وغير المكلفين والذين يحق العفو عنهم منهم وقد سبقت رحمته غضبه، فالغضب قضية العدل وهو محدد بحدود الظلم ما لم يصح العفو، والرحمة قضية اللطف، فهي واسعة ما لم تناف العدل.

ثم ولـ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هنا إيحاء آخر هو أن الرحمة الإلهية لأهلها ليست مستحقة لهم واجبة على الله إلّا أن يشاء الله وقد شاءها ووعد: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ...﴾[1] ولكنما العدل مستحق لأهله واجب على الله بربوبيته، دون إلزام من فوق إذ ليس عليه فوق، وإنما بألوهيته وربوبيته.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم
مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ
شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ
ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا
وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ
وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ
إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا
تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن
رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ
لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا
تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ
بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا
وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ
مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ
عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾:

تعني الولاية هنا - بما توحيه ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾ - الولاية الخاصة الإلهية في التكوين والتدبير والتشريع أم ماذا؟ فهذه الآية أخص من الأولى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ وقد يكون التكرار هنا توطئة لبيان مصاديق هذه الولايات الخاصة من أن الله هو المرجع في كافة الاختلافات، وأنه فاطر الأرض والسماوات وليس كمثله شيء في الأفعال والذات والصفات، وأن له مقاليد الأرض والسماوات يبسط ويقدر، وأنه الشارع من الدين شرائع..

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾:

إن الاختلاف - أياً كان ومن أيٍّ وأيّان - لا مرجع فيه إلّا الله، فالشيء المختلف فيه يعم كل شيء، فإن ﴿مِن شَيْءٍ﴾ توحي باستغراق، و﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ تحصر الحكم الفصل فيه في الله وتحسره عمن سوى الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] اللهم إلّا رسول الله أو وليه الذي يحمل أمره عن الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٢] فالقاعدة في مثلث الطاعة هذه هي طاعة الله، ثم الرسول وقد فصلت طاعته عن طاعته انفصال الفرع عن الأصل[٣] ووحّد هذا الفرع مع فرعه ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) كما في الآيات التالية: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢] قل ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ =

كما وحّد ثانية في الرد إلى الرسول، ثم جمعت الثلاث في طاعة الله ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ...﴾!.

فهنا تُعنى من طاعة الله طاعته في كتابه، ومن طاعة الرسول طاعته في سنته، ومن طاعة أولى الأمر طاعتهم في حمل السنة كما حمّلوا.

وقد توحّد طاعة الرسول مع الله حين تعني مطلق الطاعة: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ...﴾(١) (٢) فـ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(٣) كما قد يوحد الحكمان: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٤).

والحكم في آيتنا كأضرابها يعم التكويني والتشريعي في الأولى وفي الأخرى، فكما الله هو الحام يوم الدنيا، كذلك هو الحاكم يوم الدين: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٥) ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٦) ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٧) (٨).

إذاً فلا حكم في أي خلاف إلّا لله، يستفاد متنا من كتاب الله، وهامشاً

= رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢] ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٢.

(٢) كما في التالية أيضاً: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦] ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٤) سورة النور، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٤٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١١٣.

(٧) سورة الرعد، الآية: ٤١.

(٨) نور الثقلين عن تفسير القمي ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الشورى: ١٠] من المذاهب واخترتم لأنفسكم من الأديان فحكم ذلك كله إلى الله يوم القيامة.

وشرحاً من سنة رسول الله، ثم لا حكم لسواه، حيث الرجوع فيما اختلف فيه إلى غير الله لا يزيل الخلاف، وقد يزيد خلافات على خلاف، حيث الحيطة العلمية والحكمة العالية والرحمة الواسعة خاصة بالله، وهي هي التي تزيل الخلافات.

فالرجوع إلى القياسات والاستحسانات أم ماذا مما لم يأمر به الله أو نهى عنه رجوع إلى آجن ماجن، كما الرجوع إلى من لا يتبنّى من الفقهاء في حكمه كتاب الله وسنة رسول الله رجوع إلى الطاغوت، فلا حكم إلّا لله!.

إن كتاب الله هو المرجع الرئيسي في أي حكم وفي أية خلافات، يُتبنّى في كل شارد ووارد، يعرف به الغث عن السمين والخائن عن الأمين، فما وافق كتاب الله هو وارد وما خالفه فهو مارد.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ ذلك المولى في التكوين وفي التشريع وفي كل شيء ﴿ٱللَّهُ﴾ لكل شيء ﴿رَبِّي﴾ حيث رباني ما لم يرب أحداً من العالمين ﴿عَلَيْهِ﴾ لا سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في أموري كلها ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا سواه ﴿أُنِيبُ﴾: رجوعاً إليه عما سواه، وتوكلاً عليه دون من سواه، توكلاً وإنابة في التكوين والتشريع سواء.

هذه الآية بما قبلها وما بعدها إلى الآية (١٦) تستعرض جذور الولاية الإلهية في التكوين والتشريع، وأنه لا ندّ له ولا ضدّ فيهما وفي سائر شؤون الألوهية، اللهم إلّا الدعوة إلى الله فهنا الولاية الشرعية لمن يصطفيه من عباده.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾:

آية عديمة النظير من محكم القرآن ترجع إليها ما تشابه منه في كيان الألوهية، تستأصل كل مماثلة بين الله وسواه، في ذات أو صفات أو أفعال،

تبين خلقه عنه مباينة كينونة في ذات وصفة، وأنه باين عن خلقه وخلقه باين عنه، لا هو في خلقه ولا خلقه فيه.

فالمثل هو الشبيه أياً كان وإن بعيداً شبهاً واحداً في مليارات أو اللّانهايات، فعالم الخلق أشباه في أشباح مهما اختلفت الصور والماهيات، حيث المادة لزامها الذاتي التركُّب والتغير والحركة والزمان أياً كان وأيّان، والله مجرد عن المادة والماديات فلا يشبهها في ذوات أو صفات أم ماذا إلا في مقام تحبير اللغات دون الحقيقة والذات، فـ «سبحان من لا يُحد ولا يوصف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾»[1] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إن كانَ له مثَل، وكل شيء مثَل له من أدنى وأعلى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ

(١) نور الثقلين عن أصول الكافي سهل عن إبراهيم بن محمد الهمداني قال: كتبت إلى الرجل عليه السلام أن من قبلنا من مواليك قد اختلفوا في التوحيد فمنهم من يقول جسم ومنهم من يقول صورة فكتب بخطه: سبحان...

أقول: هنا العجب العجاب من التفاسير الأثرية بين الفريقين، من كثرة أحاديث الشيعة الإمامية حول الآية كما نذكر طرفاً منها، وقلة أو عدم أثر من الأحاديث حول نفي المماثلة بين الله وخلقه من السنة وهذا مما يحير العقول كيف لم يرووا ولا حديثاً واحداً يشابه آية نفي المثل عن الله تعالى، سبحانه وتعالى عما يصفون! وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال له رجل: أين المعبود؟ فقال عليه السلام لا يقال له: أين؟ لأنه أين الأينية، ولا يقال له: كيف؟ لأنه كيف الكيفية، ولا يقال له: ما هو؟ لأنه خلق الماهية. سبحانه من عظيم تاهت الفطن في تيار أمواج عظمته وحصرت الألباب عند ذكر أزليته وتحيرت العقول في أفلاك ملكوته.

وقال عليه السلام: اتقوا أن تمثلوا بالرب الذي لا مثل له أو تشبهوه بخلقه أو تلقوا عليه الأوهام أو تعملوا فيه الفكر وتضربوا له الأمثال أو تنعتوه بنعوت المخلوقين فإن لمن فعل ذلك ناراً.

وعن الإمام الرضا عليه السلام من شبه الله بخلقه فهو مشرك ومن وصفه بالمكان فهو كافر...

وعن علي بن أبي حمزة قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم أن الله جل وعز جسم صمدي نوري معرفته ضرورة يمن بها على من يشاء من خلقه، فقال عليه السلام: سبحان من لا يعلم كيف هو إلا هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا يحد ولا يحس ولا يجس ولا يمس ولا يدركه الحواس ولا يحيط به شيء لا جسم ولا صورة ولا تخطيط ولا تحديد.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١] ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٢] فمِثله مستحيل ذاتياً وجعلياً، ومَثَله كافة الكائنات جعليّاً على درجاتها وكما يعنيه الحديث القدسي «عبدي أطعني حتى أجعلك مَثَلي..»[٣] وهذا من المَثَل الأعلى الذي يحصل بالعبودية، فمن المَثَلَ لله ما هو حاصل بأصل الخلق، فإنه الآية، وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع، ومنه ما يحصل في تكامل الخلق بما يسعى كالعبودية، فإنها جوهرة كهنها الربوبية، أن العبد يصل في مراتب العبودية والمعرفة إلى درجة يرى بفقره غنى الله، وبجهله علم الله، وبعجزه قدرة الله، فالكنه المعرفي للعبودية عرفان الربوبية.

هذه الآية تنفي أية مماثلة بينه وبين خلقه استغراقاً لهذا النفي دون إبقاء، وقد يعني ما تعنيه «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه»: موجود لا كوجوداتنا، قادر لا كقدراتنا، عالم لا كعلومنا، حي لا كحياتنا، فالخلق بذاته وأفعاله وصفاته كله صفات سلبية عن ذاته وأفعاله وصفاته تعالى، فلا توجد ذاته ولا صفاته الثبوتية في خلقه أياً كان، فـ «إذا كان الشيء من مشيته فكان لا يشبه مكونه»[٤] وعلى الخلق أن يعرفوا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ كما عليهم عرفان وجوده ووحدته - لعلل شتى يجمعها: فساد الخلق وإبطال الربوبية، لو لم يعرف بعدم المثل[٥] ولا

(١) سورة النحل، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٣) فمن يقرأه «مثلي» فهو جاهل بمحكم القرآن، ومن يتردد فيه وفي «مثلي» يتجاهل بمحكم القرآن وإليكم أحاديث حول عدم التشبيه ماضية وآتية.
(٤) مصباح الشريعة خطبة مروية عن أمير المؤمنين عليه السلام.
(٥) نور الثقلين عن عيون أخبار الرضا عليه السلام في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان في آخرها أنه سمعها من الرضا عليه السلام مرة بعد مرة وشيئاً بعد شيء: فإن قال: فلم وجب عليهم الإقرار بأنه ليس كمثله شيء؟
=

شيء فيه من جوهرية الله شيء»[١].

وترى أن الله شيءٌ تنفى عنه مماثلة كل شيء؟. أجل إنه شيءٌ لا كالأشياء: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ...﴾[٢].

إنه شيءٌ بحقيقة الشيئية وخلقه شيءٌ بمجازها اللّاحقيقية، والشيءُ الله - هو لا سواه - خالق للشيء المألوه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[٣] إذاً يجوز أن يقال الله شيءٌ، أن تخرجه عن الحدين حد التشبيه وحد التعطيل»[٤] أو ترى إذا كان الله شيئاً لا كالأشياء، فهل يصح القول (إنه جسم لا كالأجسام)[٥] أقول: كلّا! حيث الشيء منه جسم ومنه مجرد

= قيل: العلل: منها أن يكونوا قاصدين نحوه بالعبادة والطاعة دون غيره غير مشتبه عليهم أمر ربهم وصانعهم ورازقهم، ومنها أنهم لو لم يعلموا أنه ليس كمثله شيء لم يدروا لعل ربهم وصانعهم هذه الأصنام ورازقهم هذه الأصنام التي نصبها لهم آباؤهم والشمس والقمر والنيران إذا كان جائزاً أن يكون عليهم مشتبه، وكان يكون في ذلك الفساد وترك طاعاته كلها وإرتكاب معاصيه كلها على قدر ما يتناهى من أخبار هذه الأرباب وأمرها ونهيها، ومنها أنه لو لم يجب عليهم أن يعرفوا أنه ليس كمثله شيء لجاز عندهم أن يجري عليه ما يجري على المخلوقين من العجز والجهل والتغير والزوال والفناء والكذب والاعتداء ومن جازت عليه هذه الأشياء لم يؤمن فناءه ولم يوثق بعد له ولم يحقق قوله وأمره ونهيه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه وفي ذلك فساد الخلق وأبطال الربوبية.

وفي البحار ٣: ٢٨٧ عن الأمالي للشيخ الطوسي بسند عن محمد بن سماعة قال: سأل بعض أصحابنا الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: أخبرني أي الأعمال أفضل؟ قال: توحيدك لربك، قال: فما أعظم الذنوب؟ قال: تشبيهك لخالقك.

(١) البحار ٣: ٣٩٢ عن رجال الكشي بسند عن يونس بن بهمن قال قال لي يونس: اكتب إلى أبي الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ فاسأله عن آدم هل فيه من جوهرية الله شيء؟ قال: فكتب إليه فأجاب عَلَيْهِ السَّلَامُ: هذه المسألة مسألة رجل على غير السنة، فقلت ليونس فقال: لا يسمع ذا أصحابنا فيبرؤون منك، قال: قلت ليونس يتبرؤون مني أو منك؟!.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٤) نور الثقلين ٤: ٥٦١ ح ٢٩ عن التوحيد بإسناده إلى الحسين بن سعيد قال: سأل أبو جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ يجوز أن يقال لله أنه شيء؟ فقال: نعم تخرجه...

(٥) البحار ٣: ٢٩٢ عن أمالي الصدوق ابن الوليد عن الصفار عن ابن معروف عن علي بن =

عن الجسم، فهو شيءٌ لا كالأشياء يعني شيءٌ مجرد سرمدي لا كالأشياء المادية الحادثة، ولكنما الجسم أياً كان يشبه سائر الأجسام في الجسمانية تركباً وتغيراً وحركة وزماناً، وإن اختلف عنها في العوارض غير الأولية، فـ «جسم لا كالأجسام» لا تنفي عنه المماثلة في أصل الجسمانية وإنما في البعض من ماهياتها.

ثم ترى لماذا «كمثله» لا «مثله»؟ فهل إن الكاف زائدة؟ ولا زائدة على المِثل في القرآن البالغ آياته (٧٥) وإن كانت على المَثَل في (١٣) من (٦٣) حيث المعنيان يختلفان! فهذه قولة زائدة أن الكاف هنا زائدة!.

أم تعني ما تعنيه الوارد على المثل من المشابهة؟ إذاً فهي تعني نفي أية مشابهة عن مثله تعالى لا عنه نفسه، إثباتاً لندٍ له مثله، ونفياً عن مماثلة أي شيء لمثله! وقد يجاب أن هناك حقيقة وافتراضاً، فالحقيقة هي انتفاء المشابهة في هذا البين، والافتراض أنه لو كان له مثل فلا مثل لمثله، ولكنه

= مهزيار قال: كتبت إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام جعلت فداك أصلي خلف من يقول بالجسم.. فكتب: لا تصلوا خلفهم ولا تعطوهم من الزكاة وابرؤوا منهم برأ الله منهم.

وفيه ٣٠٢ ح ٣٧ بإسناده عن محمد بن حكيم قال وصفت لأبي إبراهيم عليه السلام قول هشام الجواليقي وحكيت له قول هشام بن الحكم أنه جسم فقال: إن الله لا يشبهه شيء، أي فحش أو خناء أعظم من قول من يصف خالق الأشياء بجسم أو صورة أو بخلقة أو بتحديد وأعضاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وفيه ٣٠٥ ح ٤٣ عن عبد الملك بن هشام الخياط قال قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أسألك جعلني الله فداك قال عليه السلام: سل يا جبلي عماذا تسألني فقلت: جعلت فداك زعم هشام بن سالم أن الله عزّ وجلّ صورة وأن آدم خلق على مثال الرب فيصف هذا ويصف هذا أو أومأت إلى جانبي وشعر رأسي وزعم يونس مولى آل يقطين وهشام بن الحكم أن الله شيء لا كالأشياء وأن الأشياء بائنة منه وأنه بائن من الأشياء وزعما أن اثبات الشيء أن يقال: جسم فهو جسم لا كالأجسام شيء لا كالأشياء ثابت موجود غير مفقود ولا معدوم خارج عن الحدين حد الأبطال وحد التشبيه فبأي القولين أقول؟ قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: أراد هذا الإثبات وهذا شبه ربه تعالى بمخلوق تعالى الله الذي ليس له شبه ولا مثل ولا عدل ولا نظير ولا هو بصفة المخلوقين لا تقل بمثل ما قال هشام بن سالم وقل بما قال مولى آل يقطين وصاحبه...

ليس له مثل، مبالغة في انتفاء المثل، حال أنه لو كان له مثل واحد لجاز تعدد الأمثال، والآية في نفيها كمثله تحيل هذا الجائز على افتراض أن يكون له مثل[١].

أو أن الكاف تأكيد من وجه آخر لنفي المثل، فـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إنما تنفي واقع المماثلة، التي قد يظن أنها المماثلة التامة فلا تنفي غيرها، وموقف الكاف استئصال أية مماثلة بينه وبين كل شيء، أن لا مثيل له ولا ناقصاً كواحد أو كسر لغير النهاية في مليارات أو اللّانهايات من كيانه سبحانه.

وعلّ الجمع بين الوجهين أجمل، مع العلم أن الكاف ليست زائدة على أية حال.

وضمير الغائب في «كمثله» وإن كان راجعاً إلى الذات، ولكنه ذات فاطر الأرض والسماوات بما فطر وجعل وذرأ، فكما ليس كمثله شيءٌ في ذاته كذلك ليس كمثله شيءٌ في صفاته ذاتية وفعلية، فنفي المماثلة عن ذاته وفعاله، نفيٌ مضاعف عن صفات ذاته، فصفات الذات هي عين الذات، فهي إذاً في حكم الذات، وصفات الفعل صادرة عن صفات الذات، فنفي المماثلة فيها نفي - بأحرى - عن صفات الذات.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[٢]: سبحانه عما يصفون من صفات لم يصف به نفسه، وسبحانه من صفات وصف به نفسه وهم يعنون بها مثل ما يعنون في أنفسهم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ حيث يصفونه بما وصف به نفسه، قاصدين جهة السلب المعلومة، وتاركين جهة

(١) كما يقال فلان لا مثيل لظله وإن لم يكن له ظِلٌّ نفياً مبالغاً لأية مماثلة، مستأصلاً كافة جذورها.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.

الإثبات المجهولة، فهم يسبحونه بحمده دون أن يحمدوه ناظرين إلى جهات الإثبات بالحيطة أو الإشارة العلمية، فليس للخلق من صفات الله الثبوتية إلّا أنه «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه». فـ «للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: نفي وتشبيه وإثبات بغير تشبيه، فمذهب النفي لا يجوز، ومذهب التشبيه لا يجوز لأن الله لا يشبهه شيء، والسبيل في الطريق الثالثة: إثبات بلا تشبيه»[(١)]: «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه».

فـ «لا له مِثلٌ فيعرف بمثله»[(٢)] حيث «حد الأشياء كلها عند خلقه إياها إبانة لها من شبهه وإبانة له من شبهها»[(٣)] فـ «لا يخطر ببال أولى الرويّات خاطرة من تقدير جلال عزته لبعده من أن يكون في قوى المحدودين لأنه خلاف خلقه»[(٤)] إنه «غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه لا يشبهه شيء ولا تدركه الأوهام كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل وخلاف ما يتصور في الأوهام إنما يتوهم شيء غير معقول ولا محدود»[(٥)].

فالقول إن لنا وجوداً كما الله موجود، فهذه مماثلة في الذات، ثم لنا صفات العلم والقدرة والحياة كما لله، ثم لنا أفعال كما لله أفعال، مهما اختلف الخلق عن الخالق في الكمال والنقص، إلّا أن المماثلة كائنة وإن في شيء من ذات أو صفات أو أفعال؟! إنه هُراءٌ جارفة وهرطقة خارفة!.

(١) نور الثقلين ٤: ٥٦١ ح ٢٨ من كتاب التوحيد بإسناده إلى محمد بن عيسى بن عبيد الله أنه قال قال الرضا عليه السلام: . .
(٢) المصدر عن كتاب التوحيد خطب ثلاث لعلي عليه السلام.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر بإسناده إلى عبد الرحمن بن أبي نجران قال: سألت أبا جعفر الثاني عن التوحيد فقلت: أتوهم شيئاً؟ فقال: نعم غير معقول. .

حيث إن هذه مماثلة في التعبير، وأما المعبر عنه هنا وهناك ففي غاية المباينة، فلا يُعنى من «الله واحد» إلا أنه أحدي المعنى والإنسان واحد ثنويّ المعنى: جسم وعرض وبدن وروح، فإنما التشبيه في المعاني لا غير(١) كما لا يُعنى من «الله موجود» وجود كوجود الخلق فإنه تشبيه في الذات، وإنما يُعنى: أنه ليس بمعدوم، ثم لا نفهم من وجوده شيئاً، وكذلك علمه وحياته وقدرته، فلا نفهم منها إلّا نفي الجهل والموت والعجز، لا النفي المطلق، فلا تعني وجوده وصفاته فيما نفهم إلا أنه «خارج عن الحدين حد التعطيل وحد التشبيه».

﴿...وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: سميع لا بآلة بصير لا بأداة، خارج عن تصرف الحالات «سميع لا بأذن، بصير لا ببصر»(٢).

الآيات التي تحمل صفات إلهية تشابهها صفات خلقية تتجرد عما للخلق إلى ما يخص الخالق كالسميع - البصير - على العرش استوى أم ماذا؟

وأمّا التي تحمل صفات إلهية خاصة فلا مثيل لها في التعبير من صفات الخلق، كالسرمدي - الأزلي - عليمٌ قدير بكل شيء أم ماذا؟

وكذلك التي تحمل صفات خلقية لا تشابه الإلهية ولو في التعبير كالماشي - الراكض - الآكل - الشارب أم ماذا؟

---

(١) البحار ٣٠: ٣٠٤ في جواب سؤال اليهودي عن الرسول ﷺ.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٦١ ح ٣٠ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار في التوحيد حديث طويل يقول فيه عليه السلام: وقلنا إنه سميع لا يخفى عليه أصوات خلقه ما بين العرش إلى الثرى من الذرة إلى أكبر منها في برها وبحرها ولا يشتبه عليه لغاتها فقلنا عند ذلك: سميع لا بإذن، وقلنا: إنه بصير لا ببصر، لأنه يرى أثر الذرة السمحاء (السوداء) في الليلة الظلماء على الصخرة السوداء ويرى دبيب النمل في الليلة الدجنة (الظلمة) ويرى مضارها ومنافعها وأثر سفادها وفراخها ونسلها فقلنا عند ذلك: إنه بصير لا كبصر خلقه.

إن الصفات من النوع الثاني والثالث لا تشابه فيها من الخالق للخلق ولا من الخلق للخالق، وإنما النوع الأول هي المتشابهة من الصفات التي لا بد من تجريدها عما لا يليق بساحة الربوبية: فيا «إلهي تاهت أوهام المتوهمين، وقصر طرف الطارفين، وتلاشت أوصاف الواصفين، واضمحلت أقاويل المبطلين عن الدرك لعجيب شأنك أو الوقوع بالبلوغ إلى علوّك، فأنت الذي لا تتناهى ولم يقع عليك عيون بإشارة ولا عبارة، هيهات ثم هيهات يا أوّلي يا وحداني يا فرداني، شمخت في العلو بعز الكبر، وارتفعت من وراء كل غورة ونهاية بجبروت الفخر»(١).

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢﴾:

آية نفي المثل تتوسط آية المقاليد وآيات الولاية في التكوين والتشريع، فالمماثلة المنفية لا تختص بالذات وصفات الذات، بل وصفات الفعل كلها من ولاية وحكم وخلق ورزق أم ماذا، فالمماثلة منفية عن صفات الفعل كما عن الذات وصفات الذات.

والقلد هو الفتل فالمقلاد آلة الفتل وسببه، فالمقاليد هي وسائل وآلات الفتل والتطويق، من علم وقدرة وحكمة محيطة بالسماوات والأرض كأنها قلادة لعنق الكون لا تدعه يتلفت شماساً دون حراس واكتراس.

له هذه المقاليد لا لسواه. فـ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾(٢)... مقاليدها غيباً وشهادة كمفاتيحها: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ

(١) البحار ٣: ٢٩٨ - التوحيد للصدوق عن الإمام الحسن بن علي بن محمد عليه السلام أنه قال: إلهي...
(٢) سورة الزمر، الآيتان: ٦٢، ٦٣.

﴿ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ...﴾(١) ومن فروع هذه الحيطة الربانية ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ليس بسط الرزق وقدره بمحاولة زائدة أو ناقصة منا فحسب، ولا جزافاً دونما حكمة من الله، فرب محاول كثيراً لا يبسط في رزقه، ورب محاول قليلاً أو معاطل يرزق كثيراً، وإن كان يُرزق كلٌّ قدر سعيه، ولكن الرزق المبسوط هو فوق قدْره، ومن قدر عليه رزقه يُؤتاه قدر سعيه، أو وأقل منه حين تقتضي الحكمة، فلا تسوية في الرزق مهما كان السعي سواء أو لا سواء: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾(٢) فالله يقبض لحكمة ويبسط لحكمة: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٣) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾(٤) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٥) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٦) و﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾:

فمحاولة التسوية التامة وإزالة الطبقية المالية أم ماذا، إضافة إلى أنها خلاف العدل حيث الاستعدادات فالمساعي فالاستحقاقات ليست على سواء، إنها خلاف الإرادة والحكمة الإلهية فلا تكون!.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾:

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٦.
(٥) سورة الروم، الآية: ٣٧.
(٦) سورة سبأ، الآية: ٣٦.

هذه الآية توحّد الدين الحق وتخمّس الشرائع إليه، وفي الحق إنها تحقق حقائق عدة عديمة النظير أو قليلته في الذكر الحكيم.

منها أن دين الله واحد والشرائع إليه خمس، وقد توحيه ﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ (١) شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(٢) (٣) وقد يعبر عن الدين بالأمر حيث الدين هو الطاعة وهي ائتمار الأمر: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾(٤) كما وفيما يهدد ويندِّد بالمشركين يربط أيّة شرعة من الدين بإذن الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ...﴾(٥). وفي آية الشرعة تشريف لهؤلاء الخمسة من الرسل الذين دارت عليهم الرحى وكما في آية الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا

---

(١) «منكم» هنا كافة المكلفين طوال تاريخ الرسالات لا الأمة الإسلامية إذ ليست لها إلا شرعة واحدة هي الإسلام.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٣) إن الدنيا دار بلاء وابتلاء والدين ابتلاء، واختلاف الشرعة ابتلاء، وعلى المسلم لله في هذا البين أن يستسلم لشرعة الله دون أن يثّاقل إلى ما تعوّد عليه من شرعة عنصرية أو إقليمية أم ماذا ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهي شرعة الله الجديدة بعد التي مضت، استبقوا في الحصول عليها تسابقاً في تصديقها دون تباطوء، كما وهي داخل الشرعة أن تتسابقوا في تعلم خيراتها والتأدب بها والتخلق والتطبيق ونشرها، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فالله واحد ودينه واحد والرسالة لهذا الدين الواحد واحدة وأنتم أمة واحدة مهما اختلفت الشرائع إلى هذا الدين الواحد.

(٤) سورة الجاثية، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٢١.

أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾[(١)] وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[(٢)] [(٣)].

وقد سبقت إلى هذه الوحدة الجذرية الإشارة في مطلع السورة: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إذ كانت إيحاءً إجمالياً إلى وحدة المصدر والصادر ووحدة المنهج والناهج والاتجاه في الدين كل الدين، وهنا يفصل ما أجمله من قبل.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ...﴾ توحي فيما توحي أن هذه الشرائع الخمس مثل بعض مصدراً، وكذلك صادراً، في الجذور وكثير من الفروع، فالشرعة الإسلامية هي شرعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى مهما اختلفت في ظواهر طقوس أم ماذا؟. حقيقة الأصل الواحد والنشأة الضاربة في أعماق الزمان وأصوله، فكلٌّ من حملة الشرائع الخمس امتداد رسالي لما سلفه، وكما أن الكل لهم شرائع من دين واحد، إذاً ففيم يتقاتل ويتضارب أتباع كل شرعة مع الأخرى أو ومع شركائها في نفس الشرعة، ولماذا لا يتضامّ الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي تحملها رسالة واحدة إلى إله واحد، وأخيراً لماذا لا يجتمع الكل تحت الراية المحمدية التي تشمل الدين كله والشرائع كلها؟ وهي هي الراية التي قدم لها ولرفعها الأربعة الأوّلون؟!.

فهنالك دين وأمر واحد، وهنا وهناك شرعة وشرعة إلى خمس من الدين الأمر، فلأن الله واحدٌ فدينه وأمره واحد ورسالته كذلك واحدة والمكلفون كذلك أمة واحدة لهذه الرسالة الواحدة مهما اختلفت قشور وصور من شرعة

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧، ٨.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٣) راجع ج ٢٦ من الفرقان تجد تفسير آية أولي العزم.

وجاء شرعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾(١).

إن الشرعة هي الطريقة الواضحة البينة حيث توصل متشرعها إلى غايته القصوى وهي دين الله وأمره، أمره والائتمار به، وكما الدين هو لله ومن الله كذلك المشرع الشرعة إليه هو الله، وكما اختلاف العبادات أم ماذا صورياً في شرعة واحدة ينحو منحى هذه الشرعة، كذلك الاختلاف بين شرعة وأخرى لا ينحو إلّا منحى دين واحد هو الأمُّ للشرائع كلها، فمهما اختلفت الصور ضرورة أو ابتلاءً فالجذور واحدة هي الطاعة لأمر الله.

وترى مَن هم المخاطبون في ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ أهم الحاضرون زمن الوحي؟ وهم شرذمة قليلة من المكلفين طوال الزمن! وليست الشرعة منهم إلى سواهم! فإنما هي للعالمين، إذاً فـ «كم» هم أم القرى ومن حولها دون اختصاص بالحاضرين، وإنما الخطاب صادر من مصدر رب العالمين، فوارد - كقضية حقيقية - مورد العالمين أجمعين، ضارباً إلى أعماق الزمان والمكان أياً كان منذ بزوغه إلى يوم الدين.

ثم ولماذا «شرع» المفرد الغائب - لله - و«لكم» الحاضر للعالمين؟ علّه لأن وحي الشرع غائب عن العالمين، وأما العالمون فعليهم الحضور علمياً وعقائدياً وأخلاقياً وتطبيقياً للوحي الشرع، فهو غائب الصدور وحاضر الورود، ثم ولأن في خطابهم دون الآخرين تشريفاً للأمة المحمدية على الأمم بما أن شرعتهم برسولهم أشرف من سواها وسواه.

وإذ توحي غيبة الفعل «شرع» بغياب الوحي، فهل توحي ﴿وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أن وحي الشرعة إلى نوح كان وحياً غائباً عنه؟ فكيف إذاً هو نبيٌّ!.

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٥١-٥٤.

إن الغيبة هنا غير الغيبة هناك، ففي ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ غيبة الوحي حقيقة إذ لم يوح القرآن إلى العالمين دونما وسيط، وأما في ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ فوحي حاضر إلى قلب نوح عليه السلام ولكنه لبساطته أمام سائر الوحي إلى الأربعة الآخرين، وعلوّه لهم دونه، كأنه من غائب الوحي، كما وأن سائر الوحي وجاه الوحي إلى محمد كأنه ليس وحياً، وإنما هو وصية حال أن الكل وحي حيث الكل أنبياء عظام عليهم دارت الرحى.

هنا نستوحي من مثلث التعبير: «ما وصى - والذي أوحينا إليك - وما وصينا» درجات ثلاث لوحي الشرعة إلى أولي العزم الخمسة، فأوسطها أعلاها وأولاها أدناها[1] وآخرها أوسطها.

في سائر القرآن حيث يذكر الوحي إلى أصحابه الخصوص إنما يؤتى بصيغة الوحي حيث المقصود أصله دون درجاته بالقياس إلى بعض: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾[2] حيث جمع بين سائر الوحي إلى سائر المرسلين لأن المقام مقام استعراض أصل الوحي إلى أصحابه لا التفاضل فيه.

---

(١) تمتاز صيغة التعبير عن الوحي إلى محمد ﷺ على نوح بميزات أربع:
١ - ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ بدلاً عن «ما» دلالة على ضخامة الوحي على محمد دونه على نوح.
٢ - حضور الوحي في ﴿إِلَيْكَ﴾ وغيابه في «وصي».
٣ - جمعه في ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ [النساء: ١٦٣] وإفراده في «وصى».
٤ - لفظة الوحي في ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ والوصية في «وصى».
كما تمتاز صيغة الوحي على الثلاثة الآخرين عن نوح بالجمع والحضور في ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وإن كان حضور «نا» أوفى من حضور ﴿إِلَيْكَ﴾ فيمتاز إذا وحي محمد ﷺ على الثلاثة بـ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ ﴿إِلَيْكَ﴾ حضوران في أوحينا إليك إضافة إلى الوحي والذي.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٦٣، ١٦٤.

وأما آية الشرعة حيث تبين الشرائع الخمس إلى أولي العزم الخمسة فهي تستعرض في إشارات مراتب الوحي، فتعبِّر عن وحي القرآن بالوحي، ثم عن سائر الوحي إلى الأربعة الآخرين بالوصية.

فالوصية هي التقدم إلى الغير بما يعمل مقترناً بوعظ، وهي لم تستعمل في سائر القرآن في الوحي اللهم إلّا بدائياً كما أوحي إلى المسيح في المهد صبياً: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[1] حيث المسيح لم يكن حينذاك نبياً وإنما نبِّئ بهذا ذوداً عن أمه الطاهرة وبشارة بنبوته الآتية، إذاً فهذه الوصية كانت وحياً قبل الرسالة، وعلّها كما أوحي إلى أم موسى أم ماذا؟.

هذا! ثم اللهم إلّا آيتنا هذه حيث قارنت بين الوحي على محمد ﷺ - وهو في أعلى القمم - وبين الوحي إلى سائر أولي العزم من الرسل، فعبرت عن الأول بالوحي الذي ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وعن الثاني بالوصية «وصى - وصينا» إيحاء بمدى البون بين الوحيين، وكما عبر عن الوحي على أولهم «نوح» عليه السلام بالمفرد الغائب وعن الآخرين بالجمع الحاضر إيحاءً بالبون بين هذين أيضاً كما بينهما وبين الأول.

﴿شَرَعَ لَكُم . . . أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ إنه ما شرع هذه الخمس حتى تتشجروا متفرقين، وإنما ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ بكل شرعة في دورها ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ فـــــ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا . . . لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ . . .﴾[2] فلكل شرعةٍ دورٌ يجب على المكلفين كافة اتّباع الشرعة الحاضرة، لا متابعة الغابرة تعوُّداً عليها أو تعصباً عنصرياً أم ماذا؟ فإن إقامة الدين في كل دور هي إقامة طاعة الله في أمره الحاضر، في شرعته الحاضرة، فالتصلُّب على الغابرة عصيان للأمر وتضييع للدين.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

فالتفرق في الدين: إلى هود ونصارى ومسلمين راحة للمشركين، حيث يروننا أمثالهم في تفرق الدين، متضادين متفرقين أيادي سبأ كما هم، و﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من وحدة الدين!

وترى المخاطبون في ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ هم المسلمون؟ وهم مسلمون لا يتفرقون! أم هم عامة المكلفين؟ فإقامتهم للدين أن يقيموه في شرعته، أن يتبع الكل في كل دور شرعته الواحدة، فالترسب على شرعة سابقة نكراناً للّاحقة تضييع للدين الأمر والطاعة، فإنهما الآن في الشرعة الحاضرة دون الغابرة فـ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[1] وقضية التسليم لأمر الله وطاعته السليمة هي الاجتماع على شرعة حاضرة للدين دون اختلاف.

فليس إقامة الدين في إقامة أصوله، والفروع متشجرة، حيث الدين يعم الأصول والفروع، فعلى المكلفين عامة أن يقيموا الدين كله في الشرعة الحاضرة: أن يتضامّ الجميع تحت راية واحدة: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صلوات الله عليهم أجمعين، ولا يتفرقوا في الدين، حيث التفرق في الشرائع تفرق في الدين الطاعة إلى المعصية.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ يا محمد! من وحدة الدين ودينك الموحد بين صفوف المكلفين، سواء أكانوا مشركين وثنيين أم كتابيين متحزبين: ﴿... وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

كبر على المشركين الأولين أن ينزل عليك القرآن ولا ينزل على رجل

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٢) سورة الروم، الآيتان: ٣١، ٣٢.

من القريتين عظيم! كبر عليهم أن ينتهي سلطان الشرك المفرّق إلى سلطان الإسلام الموحّد!: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[(١)].

كبر عليهم القول: إن آباءهم ماتوا على ضلالة الجاهلية فأخذتهم العزة بالإثم!

ثم كبر على المشركين الآخرين، على المتعصبين المتعنتين من أهل الكتاب، أن ينزل هذا الدين على رجل إسماعيلي، لا إسرائيلي، فتضمحل السلطات الإسرائيلية العنصرية، والسلطات المسيحية القومية أم ماذا.

ولكن رغم أولاء وهؤلاء وأضرابهم ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وقد اجتبى محمداً ﷺ واصطفاه لهذه الرسالة السامية، وليفتح الطريق الأخيرة والشرعة الأبدية إلى الدين المتين، ويهدي به الله من ينيب.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ في الدين: إبراهيميين - هوداً - نصارى أم ماذا - رغم وحدة الدين: الأمر والطاعة ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بوحي الكتاب أن كل شرعة بعد أخرى هي شرعة من ذلك الدين، تتفق مع بعض في جذور واحدة، والشارع لا يرتضي في كل دور من الخمس إلّا شرعة واحدة.

فما تفرق الذين أوتوا شرعة من الدين إلّا بغياً بينهم، اللّهم إلا القاصرين الأتباع منهم: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[(٢)] ﴿إِنَّ

(١) سورة ص، الآية: ٥.
(٢) سورة البينة، الآية: ٤.

﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(١).

إن التفرق في الدين شركٌ وتمزّق من سنة المشركين، والواجب الجماهيري لعامة المكلفين إقامة الوجه للدين فطرة وشرعة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾(٢).

إن دين الفطرة ودين الوحي الشرعة متجاوبان في تلاؤم تامٍّ، فالتحزب في شرعة الدين تخلُّف عن دين الفطرة ودين الله: دين التكوين ودين التدوين المكتوبين بقلم الربوبية الصادقة، إذاً فهو في الحق شرك برب العالمين!.

وإذا كان التفرق في شرائع الدين شركاً رغم تفرقها في قسم من طقوسها، فليكن التفرق في شرعة واحدة، تشجراً في مذهبيات وتشاجراً فيها رغم وحدة الشرعة، ليكن هذا التفرق إلحاداً إذا كان بغياً: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(٣). ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٤).

فهنالك تفرق عن دين الله شركاً أو إلحاداً في الله، ثم تفرق في دين الله تحزباً في شرعة وشرعة هوداً أو نصارى أم ماذا، ثم تفرق في شرعة الله كما تفرقوا في كل شرعة، فاليهود إلى فرق والنصارى إلى فرق والمسلمون إلى فرق، وكل هذه التفرقات محكومة في ميزان الله.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة الروم، الآيات: ٣٠-٣٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

إن للدين حملة أولين ومتحملين آخرين، وفي الأكثرية الساحقة يختلف تفرق الآخرين عن الأولين، فالحملة الأولون - في الأكثر - لا يختلفون ويتخلفون إلا بغياً بينهم: ظلماً قاصداً بالنسبة لبعض في شرعة، أو لآخرين في شرعة أخرى، حسداً بينهم وظلماً للحقيقة ولأنفسهم، حيث تفرقوا أيادي سبأ تحت تأثيرات الأهواء والشهوات.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بما تفرقوا، أن يهلكهم بعذاب الاستئصال، وفيما أهلك قروناً ليس لمجرد الاختلاف، وإنما للتطرف في التَّرَف والتخلُّف عن شرعة الله لحدّ لا يتحمله المجتمع.

هم أولاء حملة أوّلون عليهم ما عليهم ولهم ما لهم، ولكنما المتحملون الآخرون ﴿ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾!

أولئك اختلفوا على علم ويقين بغياً بينهم، ثم الذين ورثوا الكتاب اختلفوا على شكٍ مريب، ولا يصدق هذا الفرق بين الأولين والوارثين إلّا في كتابات الوحي قبل القرآن، حيث حرفها الأولون على علم، فتفرق فيها الوارثون على شك مريب، وهو المسنود إلى ما يعتبر كحجة[2].

فالتفرق الحاصل عن شكٍ مريب أهون ضلالاً من التفرق عن شكٍ غير مريب أو عن علم، وإن اشتركت في ضلال، ولكن أين ضلال من ضلال! ثم التفرق الحاصل قصوراً دون تقصير لا عن علم ولا شك كما يحصل عند المجتهدين إذا كان عن اجتهاد صحيح يتبنى الكتاب أصلاً والسنة فرعاً، هذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(٢) الشك المريب ما يجعل الإنسان في ريب بما فيه من مشكك في ظاهر الحجة كآيات توراتية أو إنجيلية دخيلة أو محرفة يحسبها وارث الكتاب من الوحي، والشك غير المريب ما لا يستند إلى حجة مشككة، كشك المتجادل العارف بالحق مثل الأولين.

التفرق ليس محظوراً ولا يفرّق حيث الكل يستنبطون أحكام الله من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ للمصيب أجران وللمخطئ أجرٌ واحد، فلا عليهم ولا لهم أن يتباغضوا، وإنما عليهم التشاور لكي ينقصوا من الخلافات ثم يرجع من سواهم إلى الأكثر بعد التشاور، كمرجعية واحدة هي الأكثرية بين المتشاورين.

وآية التفرق إنما تندّد بالتفرق بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم، ثم الذين ورثوهم فهم في شك مريب، وأما العلماء الربانيون المسلمون فهم لا يجتهدون على شك مريب ولا تخلفاً عن علم بغياً بينهم، وإن كان بين من يجتهد مقصِّرون حيث لا يستندون كما يجب إلى كتاب الله، وفيما تعودوا على ترك الكتاب اعتماداً على الأقوال والروايات فأصبحوا قاصرين في الرجوع إلى كتاب الله فهم أيضاً مقصرون في قصورهم تشملهم على أقل تقدير ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إذا لم تشملهم - ولا سمح الله - ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾!

وإن العقيدة هي الصخرة الصمّاء الصلبة التي يقف عليها صاحبها، فلا مأخذ لها إلّا قاطع البرهان دون شك مريب أو غير مريب، ولا يزعزعها أقاويل الأولين أم من ذا من القائلين.

المسلمون الذين يعيشون الوحي الأخير: القرآن العظيم، أولئك هم دوماً من الحملة الأولين، إذ لا تحرّف في القرآن ولا في حرف أو نقطة أو إعراب أم ماذا، فقد جاءهم علم خالص وحجة بينة كافية شافية لا تدع لهم مجالاً لشك مريب أم غير مريب، ولا لأي تفرق فيما الحجة من الكتاب قاطعة لا ريب فيها، ولو أنهم تبنّوا القرآن كأصل أصيل لزال الكثير من خلافاتهم ولكن!...

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾:

آية يتيمة عديمة النظير تأمر صاحب هذه الرسالة السامية إلى الدعوة والاستقامة كما أُمر، وإلى عشرة كاملة من مناهي وأوامر هامة تتبناها الرسالة الإسلامية كأصول الدعوة: ١ - دعوة، ٢ - واستقامة، ٣ - وتركاً فيها لأهوائهم، ٤ - ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ﴾، ٥ - ﴿وَأُمِرْتُ...﴾، ٦ - ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا...﴾، ٧ - ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا...﴾، ٨ - ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا...﴾، ٩ - ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ...﴾، ١٠ - ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾!

وقد تشبهها آية أخرى في أصل الاستقامة إضافة إلى من تاب معه وتركاً للبعض من هذه العشرة قضية الشركة كما أُضيفت أمور أخرى لنفس القضية:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾[1].

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾: لأجل ذلك التفلك العارم بين الأمم، والتحزبات المفرقة في شرعة وشرعة، وكذلك في نفس كلِّ شرعة رغم أن الله واحد والدين واحد والشرعة واحدة كما الرسالة، لذلك ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى وحدة الدين والشرعة، وشرعتك هي الدين كله، وهي كل شرعة من الدين قبلك، وإنها شرعة القرآن ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2] ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ يا قائد القيادة الجديدة الحازمة الحاسمة المديدة.. ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى هذه الوحدة

---

(١) سورة هود، الآيات: ١١٢-١١٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

العريقة الرفيقة الضاربة إلى أعماق الزمن ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ في هذه الدعوة الوطيدة دون لفتة إلى الأهواء المصطرعة حولك وحول دعوتك الموحدة إعلاناً بجديد الإيمان بقديم الدين المتين الذي شرعه الله للنبيين أجمعين.

ولأنك النبيون أجمع حيث تجمع كافة النبوات، وأن هذه أمتهم أمة واحدة، فالمكلفون أجمع أمتك أمة واحدة ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾.

هنالك دعوة تجمع دعوات الرسالات كلها، فاستقامة في هذه الدعوة تجمع الاستقامات كلها، كما أن نبوتك تجمع النبوات كلها، وشرعتك هي الدين كلُّه، وهي الشرائع كلُّها!.

﴿فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ إذ هي تهوي إلى هوّاة الخلافات والتحزبات المذهبية، إلى شفا جرف الهلكات ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾(١) ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾(٢) ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾(٣).

هنا يمنع شرعته عن كيان الشرك أن يقول: أنا على شرعتي وأنتم على شرائعكم إبقاءً على التحزبات المذهبية - لا! وإنما هذه الدعوة دعوة إلى توحيد الأمم أن يتضامّوا تحت راية واحدة.

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الحج، الآية: ٦٧.
(٣) سورة القصص، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

١ - ٢ ﴿فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ﴾ اطلب القوامة: لزوم المنهاج القائم دون عِوَج وعَرَج، طلباً من ربك أن يقيمك كما أمر، ومن الأمم أن يستقيموا كما أمر، دون مواربة ولا مسايرة ولا أنصاف حلول، ومن استقامتك ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(١) ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾(٢) فـ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾(٣) حيث الاستقامة في هذه الدعوة والداعية والمدعوة، إنها كيانها وقوامها، دون أن يحرفها حارف أو يجرفها جارف ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(٤) ﴿... تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾(٥).

لقد أُمرت الأمم قبلئذٍ ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ فلم يأتمروا إلّا قليلاً، ثم الرسول محمد ﷺ يؤمر أخيراً أن يحقق هذا الأمر ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ ومن ثم ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فقد حمّل هو ومن معه تحقيق هذه الرسالة الموحّدة وقد حقق كما حمّل في دعوته الصارمة، وعلى الذين معه حمل هذه الرسالة حتى يحققوها كما وسوف تتحقق في الدولة المباركة المهدوية عليه آلاف التحية والسلام.

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٣.
(٣) سورة التكوير، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ١٣.
(٥) سورة فصلت، الآيات: ٣٠-٣٣.

ولقد كانت هذه الرسالة الجمة الهامة حملاً عليه ثقيلاً لحد «قال: شمروا فما رئي ضاحكاً»[١] وكما يروى عنه ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها» والشورى كبيرة أخواتها حيث تخصه آيتها بالاستقامة إذ قيل له ﷺ: لِمَ ذلك يا رسول الله ﷺ؟ فقال: لأن فيها ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[٢] ولم يذكر ومن تاب معك وإنما ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ فهي في الشورى أعلى منها في هود، ولن تطيق الأمة الإسلامية تحقيق الاستقامة التي أمر بها الرسول ﷺ إلّا على حدها، لأنها الخروج من كافة المعهودات، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق المطلق لتحقيق كافة الرسالات ولُبّها في العالمين.

الدخول في أمر الله - لا سيما إذا كانت الرسالة العليا - هو طبعاً صعب، ولكنما الاستقامة فيه أصعب فإنه التمكن في المأمور به لحد يصبح المأمور راسخاً فيما أُمِر به غير محتمل الزوال ولا الخمول، وحتى يصبح هو هو الأمر والاستقامة في الأمر كما أمر، وقد روي «ما نزلت آية كانت أشق على رسول الله ﷺ من هذه الآية»[٣] حيث تحمل إثباتات ونفياً: ٣ - ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وإنما هوىً واحدة هي هدى الله: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٤] ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٥] ﴿... إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٥١ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن (رضي الله عليه) في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] قال. شمّروا.. أقول: فإذا هو شمر بعد نزول هذه الآية المشتركة بينه وبين من معه فما كانت إذا حالته لمّا نزلت آية الاستقامة الخاصة به ﷺ!.

(٢) تفسير روح البيان للحقي ج ٨ ص ٢٩٩.

(٣) تفسير بيان السعادة ج ٢ ص ٣٤٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)] ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾[(٢)].

٤ - ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ دون فرق في هذا الإيمان وإنما في التطبيق، حيث الكتاب الأخير يحتل دور التطبيق فلا يبقى بما أنزل قبله إلّا إيمان وتصديق، رداً لإيمان العالمين كلهم إلى أصل واحد، ورداً على المفرقين بين الله ورسله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٥٢﴾[(٣)].

فالرسول يؤمن هكذا إيمان، ويأمر الأمم أن يؤمنوا هكذا إيمان: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ...﴾[(٤)] ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾[(٥)].

٥ - ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ ﴿لِأَعۡدِلَ﴾ تعني كلا العِدل والعَدل، فقد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.
(٣) سورة النساء، الآيات: ١٥٠-١٥١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٥) سورة البقرة، الآيات: ١٣٦-١٣٨.

أمرت لأجعلكم عِدل بعض في هذه الدعوة الموحدة، كأسنان مشط على سواء، دونما ترجيح لجماعة على آخرين، وكذلك أن أعدل بينكم بحكم عدل.

فـ ﴿بَيْنَكُمُ﴾ حيث توحي إلى بينونات في هذه الأمم، يؤمر الرسول أن يدعو عدلاً ويحكم عدلاً لكي يزيل هذه البينونات فيجعلهم أُمة واحدة، فيا لها من دعوة عادلة عاقلة لا تتبنى عنصرية أو قومية أو طائفية أو إقليمية أم ماذا، اللّهم إلّا ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[١].

إنها تسوية بين كتب الله إيماناً، وتسوية بين عباد الله دعوة إلى هذا الإيمان.

٦ - ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا أرباب متفرقون لكي نتفرق هنا وهناك وإنما هي إعلام عام بربوبية واحدة فعبودية واحدة، فنحن كلنا كعبيد سواء في هذه الربوبية الواحدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ...﴾[٢] وبعد إعلان الربوبية الواحدة تعلن فردية التبعة:

٧ - ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا ينفعنا صالح أعمالكم ولا يضرنا طالح أعمالكم، وكما لا تنفعكم أو تضركم أعمالنا، فليست هذه الدعوة الموحدة لنا تجارة أو لكم خسارة، وإنما ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣].

إنها ليست دعوة استثمارية لصالح هذه الشرعة الأخيرة أو رسولها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٥.

والمتشرعين لها، وإنما هي بسط الرحمة الإلهية و﴿ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[1] ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾[2] ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾[3].

٨ - ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ وترى وما هي الحجة المنفية في هذا البين؟ وهذه كلها حجج إلهية على هؤلاء الانعزاليين!

أقول: إنها قد تعني بعد هذه الحجج الموحّدة للدين، التي سلفت، حيث أزالت البينونات، فلم تبق حجة لازمة لإزالة البين إلّا بُيِّنت ف ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ...﴾ أم وتعني حجة - بعد ذلك - تبيّن وتفرق.. فبأية حجة نتفرق أيادي سبأ إلى مسلمين وهود ونصارى، فقد استجيبت الحجة الموحدة لمن استسلم لله وأسلم وجهه لله، فلم تبق - إذاً - حجة إلّا داحضة: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ...﴾ ف ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ تنفي الحجة الحقة، سواءً المثبتة لهذه الوحدة وقد تمت، أو المفرقة فليست اللهم إلّا داحضة! أم ولا حجة بيننا وبينكم تثبت رجاحة شرعة على شرعة حيث الكل شرائع الله من دين واحد لله، أم ولا خصوم بيننا وبينكم، ولماذا نتخاصم والوحدة لائحة، اللهم إلّا أن يخاصم داعي الوحدة الدينية دعاة التفرقة.

٩ - ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم إله واحد يجمعنا بجمع واحد في صعيد واحد بحساب واحد، ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[4] ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[5] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ

(١) سورة التكوير، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١١٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٦.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٦.

لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[١] وكما «الله - هناك - يجمع بيننا وبينكم» إنه ربنا جميعاً ف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. إنه يجمع بيننا وبينكم ليوم الجمع التغابن كما جمع بيننا وبينكم هنا ليوم الفرق والتعاون، جمعاً في دينه وشرعته، وسوف يفتح بيننا فيما كنا فيه مختلفين وهو الفتاح العليم.

١٠ - ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ إليه وحده لا شريك له، لا إلى أرباب متفرقين، ف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٢] شرعة واحدة - سير واحد - إله واحد ومصير واحد ففيمَ إذاً نتباغض ونتعارض؟

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾:

الحجة هي الدليل القاصد لإثبات أمر أو إبطاله، والمحاجة هي تبادل الحجة وتضاربها، فقد تكون حقاً بالتي هي أحسن عن علم وحلم، أو تكون باطلاً فيما ليس لهم به علم: ﴿هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾[٣].

والمحاجة في الله قد تكون في كونه أو توحيده وكيانه، أو وحيه وشرعته: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾[٤] ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٥].

---

(١) سورة التغابن، الآية: ٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٩.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

هنا توحي ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أن المحاجة كانت في شرعة الله الأخيرة، واعتبرت الاستجابة الصادقة له حجة قاطعة لا مرد لها ولا حاجة معها إلى حجة أخرى، لا مثبتة حيث ثبتت بالاستجابة، ولا نافية فإنها عند ربهم داحضة.

وترى أن استجابة جماعة لشرعة هي برهانٌ أنها إلهية؟ فلتكن كل شرعة حقة وإلهية! أم لهذه الاستجابة شروط ومقومات، فما هي مقوماتها حيث كانت في الشرعة الأخيرة فلا محاجة - إذاً - إلّا وهي داحضة؟!.

ولأن الدحض هو الزلق، فالحجة الداحضة هي الزالقة، الضعيفة غير الثابتة ولا متماسكة، الواطئ الذي تضعف قدمه فيزلق عن مستوى الأرض ولا يستمر على الوطء، وداحضة بمعنى مدحوضة بنفسها أنها تدحض نفسها بنفسها لضعف سنادها ووهاء عمادها، فهي هي المبطلة لنفسها من غير مبطل غيرها، لظهور أعلام الكذب فيها وقيام شواهد التهافت عليها، وإنما أطلق تعالى اسم الحجة عليها وهي شبهة واهية لاعتقاد المدلي بها أنها حجة، وتسميته لها بذلك في حال النزاع والمناقلة حيث يوردها موردها مورد الحجة، ويسلكها طريقها ويقيمها مقامها.

حجج داحضة:

من حجج اليهود والنصارى أن التوراة أو الإنجيل متفق عليه بينهم وبين الذين أسلموا، والقرآن مختلف فيه، فليأت المسلمون لوحي القرآن ببرهان دوننا حيث الاستجابة للتوراة والإنجيل تجمعنا دون القرآن.

فيقال لهم: إن هذه الحجة داحضة: باطلة زائلة في ميزان الحق لا تستحق إلفات نظر، نسألهم أولاً ما هي ماهية الاتفاق بيننا وبينكم في الكتابين؟ ألأننا كلنا نؤمن بإله واحد، فاستجابتكم لكتاب سابق من الله بآيات صدقه وبينات رسوله تحملنا على تصديقه، فعليكم كذلك تصديق

القرآن لاستجابتنا له بآيات كمثلها أو هي أحرى وأهدى سبيلاً، إذا فحجتهم داحضة!

أم لأن القرآن المستجاب لنا ببينات صدقه القاطعة يحملنا على تصديق الكتابين دون حجة أخرى، حيث الحجة المصدقة لهما ليست فيهما، فإنها منفصلة عنها وهي معجزات موسى وعيسى حيث تحمل من شاهدها بتصديق كتابيهما، إذاً فاستجابة حجة القرآن هي التي تحملنا على تصديق الكتابين فكيف تنقلب حجة علينا تتطلب حجة أخرى بعد المتفق عليها ولا حجة لنا إلّا هيه، إذاً فحجتهم داحضة.

ثم القرآن لا يحملنا إلّا على تصديق الكتابين المبشرين به وبنبيّه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ... وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١)، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٢) ﴿... ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٣)!

إذاً فلا نشارككم في تصديق الكتابين دون شروط، إنما نصدق الذي بشّر بنبينا وبكتابه، إذاً فحجتهم داحضة(٤).

ثم الذي يستندون إليه في استجابتهم لتوراة أو إنجيل ليس إلّا معجزات من الرسولين شهدها من حضرها دونهم، وإنما استجابوهم دون حجة

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٧، ١٥٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢.
(٤) وفي حوار بين الإمام الرضا عليه السلام وجاثليق عظيم النصارى....».

حاضرة، وإنما لحسن الظن بأسلافهم، والكتابان محرفان لا حجة فيهما وحتى قبل التحرُّف إذ لا معجزة فيهما، فهذه إذاً استجابة فاشلة، ولكنما المسلمون يستجيبون دعوة القرآن لأنه معجزة بنفسه وهو أوضح برهان لرسالة رسوله، فقد استجابوا وعلى مر الزمن لوحي القرآن بحجة حاضرة غير محرفة، إذاً فحجة اليهود والنصارى داحضة زائلة عند ربهم، إنْ في إثبات وحي الكتابين أو في رد وحي القرآن، فلما استجيبت دعوة القرآن بحجته الحاضرة لم يكن نكرانهم لما استجيب له إلّا كفراً بالله وآياته، إذاً ف ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾!

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ
(١٧) يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا
وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ
(١٨) ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (١٩) مَن
كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ
ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ
شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ
لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢١) تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ
نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ (٢٣) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ
فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ (٢٥) وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ (٢٦) وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ
لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ

﴿٢٧ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ٢٨﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ١٧﴾:

ترى أليس الكتاب هو الميزان فكيف يردف به الميزان؟ أم هو ميزان ثان[1]؟ لقد ذكر الميزان هنا وفي الحديد عدلاً للكتاب ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ . . .﴾[2] ومن ثم ميزان موضوع في الرحمن مع رفع السماء ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ٨﴾[3] [4].

فهنالك ميزان هو القرآن، أصلاً يرجع إليه كل ميزانٍ حتى نبوَّة نبي القرآن، ثم ميزان فيه وفي السنة المحمدية يعرف بهما معارف القرآن، ومن ثم ميزان متصل به كياناً منفصل عنه كوناً للتعرف إلى القرآن وتطبيقه وتأسيس دولته: هو نبي القرآن ﷺ وخلفاؤه المعصومون عليهم السلام والعلماء الربانيون، ومن قبلُ ميزان الفطرة والعقل والعلم يعرف بها وحي القرآن وأهل بيت القرآن[5]، وميزان العدل والقسط حيث يكرّسهما القرآن، ويكرّسان لتطبيق القرآن في الأولى، وللحساب يوم يقوم الحساب قسطاً وعدلاً وكِتاب الأعمال وكُتّاب الأعمال وقلب محمد ﷺ وقلوب المحمديين المعصومين الطاهرين: عليهم السلام: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن

(١) راجع ج ٢٧ الفرقان حول آية الميزان.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الرحمن، الآيتان: ٧، ٨.
(٤) المصدر ص ١٨ - ٢٠ حول آية الميزان.
(٥) نور الثقلين ٤: ٥٦٨ في تفسير القمي في الآية قال: الميزان أمير المؤمنين عليه السلام والدليل على ذلك قوله عز وجل في سورة الرحمن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمٰن: ٧] قال: يعني الإمام».

كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[١] موازين متصلة كياناً بالقرآن مهما كانت منفصلة كوناً عن القرآن، حيث القرآن هو الأصل في الميزان ثم الفروع هي سائر الميزان.

وقد يعني الكتاب هنا جنس الكتاب قرآناً وما قبله من كتاب، فمن الميزان إذاً المعجزات التي تثبت وحي الكتاب كما سوى القرآن، وأما القرآن فهو أمّ المعجزات كما هو أم الكتاب.

و﴿بِالْحَقِّ﴾ هنا تبيّن موقف الكتاب أنه يصاحب الحق، وأن نزوله بسبب الحق تبياناً وتطبيقاً للحق، ثم الحق في الكتاب الأخير ثابتٌ لا ينسخ، فهو حق مطلق مطبق مهما كان الحق في كل كتاب قبله لردح من الزمن غير مطلق.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٢] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[٣] إن «لعل وعسى» ترجٍّ في ظرف الشك، ظناً دون علم، فـ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ في الأحزاب بيانٌ لحالة الشك في أنها متى؟ أقريب أم بعيدٌ؟ ثم «لعل» فيها وفيما هنا و«عسى» في الأسرى ترجٍّ في قربها يخرجه عن الشك إلى وشك اليقين وأشرافه بأنها قريب، وما يدريه إلّا من أدراه كل ما دراه من وحي الرسالة أنه قريب، كما وأدراه أخيراً بقربها: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾[٤] قريباً في واقعها كقربها في ميزان الفطرة والعقل والعلم والعدل لزمن بعيد أم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥١.
(٤) سورة المعارج، الآيتان: ٦، ٧.

قريب وكل آت قريب. «لعل وعسى» هنا وهناك لا تعني ترجّي الله، وإنما ترجّي الرسول بما أدراه الله، ومن ثم العلم حيث أتم ترجيّه، وعلَّ «لعل وعسى» فيما يؤمر الرسول ﷺ هنا أن يقول مماشاة مع خصومه الناكرين ليوم الدين.

ترى ما هو المأخذ هنا في قرب الساعة حيث الوسط هو زمن نبي الساعة؟[1] هل هو بداية الخلقة؟ والساعة الحساب الجزاء لا تعني أيَّ كائن! أم بداية خلقة المكلفين من النسل الأخير جناً أو إنساناً أو أياً كان فإنه موضوع هذا البيان؟ ولا يخصهم يوم الجمع مهما خصهم هذا البيان! أم هم المكلفون أجمع بمن فيهم هذا النسل الأخير؟ وقد يقربنا أن الخطاب موجه إلى هذا الأخير، ثم لا يجدينا قرب الساعة إذا كان المبدأ بداية خلق المكلفين، إذ لا نعلمها - وإن على وجه التقريب - حتى تفيدنا أن الساعة قريب، فلتكن الساعة أقرب إلى نبي الساعة منه إلى بداية النسل الأخير من الإنس، حيث الجن موقفه كمن سلف من أنسال لا يُدرى متى خلقوا.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾:

يستعجلون بها حيث لا تحس قلوبهم هو لها فلا يحومون حولها إلا هزواً لو أنها آتية فمتى؟ ولماذا لا تأخذنا ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ . . .﴾[2].

وأمّا الذين آمنوا فهم ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ ولأن الإشفاق هي العناية

(١) تأتي الساعة في ٤٨ موضعاً تعني القيامة إلا ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] و﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥] و﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الرُّوم: ٥٥] و﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ [سَبَإ: ٣٠] فـ ٤٤ موضعاً تعني القيامة.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٧.

المختلطة بخوف حيث يحب المشفِق المشفَق عليه ويخاف ما يلحقه تقصيراً منه لا من المشفق عليه، إذاً فهم لا يستعجلونها بل قد يستأجلونها ليتهيؤوا لها حيث ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾!.

ثم العناية قد تربو الخوف كأنه لا خوف: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾[(١)] أم الخوف يربوها كأن لا عناية: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾[(٢)] ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[(٣)] أو الخوف يربوها وهي موجودة: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾[(٤)] أم هما سيان حيث الخوف والرجاء يتساويان كما هنا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا...﴾ وفي أضرابها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[(٥)] ضروب أربعة من الإشفاق تشارك فيها العناية والخوف.

ثم المستعجلون بها يمارون فيها، ظلمات بعضها فوق بعض في نكرانها: «ألا» فانتبهوا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ جدالاً في حجج داحضة، إنهم ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾: بعيد عن النجاة حيث أوغلوا فيه معاندين متعنتين، وبعيد عن الفطرة والعقل والعلم والعدل، فلا يماري في الساعة إلّا من غرب عقله، وحجبت فطرته، وبرزت شقوته.

فالضلال القريب هو الضلال القاصر حيث يرجى بوصول البينة زواله، والضلال البعيد هو المقصر بعد تمام الحجة فلا يرجى إذاً زواله، حيث المماراة هي الجدال في الحق كأنه باطل فيه مرية، ولكي يستأصل فلا تبقى له باقية.

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.
(٥) سورة المعارج، الآية: ٢٧.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩﴾:

اللطيف هو صاحب اللطف الدقيق الذي لا يعزب عن علمه وقدرته وحيطته شيء والله لطيف في ذاته حيث لا تدركه الأبصار، ولطيف بعباده حيث يدرك الأبصار، ولأن اللطيف بعباده عليم بهم خبير لم يوصف اللطيف فيما وصف إلا بالخبير[(١)] ولأنه ﴿هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[(٢)].

إنه ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ لأنه ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ والرازق اللطيف حيث يعلم الحاجة والمصلحة فيلطف قد لا يكون قوياً على مرامه عزيزاً، ولكنه هو ﴿ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فعلمه بعباده وعطفه وقوته وعزته تجعل رزاقيته تامة لا حول لها دون أن يمنعه مانع منه أو سواه، فلا بسط الرزق لمن يبسط له لمزيد اللطف والقوة والعزة، ولا من قدر عليه رزقه لنقصان هنا أو هناك، وإنما كلٌّ لكلٍّ حسب الحكمة، والرزق يعم المعنوي منه كالرسالة وولاية الأمر الإمامة[(٣)] والمادي منه كسائر النعم غير الروحية.

وترى ما هي الرباط بين آية اللطف وما قبلها من آية الساعة وما بعدها من حرث الدنيا والآخرة؟.

هي أن الساعة الحساب الجزاء هي قضية اللطف القوة العزة، وكذلك إيتاء حرث الدنيا لمن يريدها، وزيادة الحرث لمن يريد الأخرى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾[(٤)]:

تشبيه عجيب وتمثيل مصيب، فحرث الآخرة والدنيا هو كدح الكادح

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٦٨ في أصول الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قلت: الله لطيف بعباده يرزق من يشاء؟ قال: ولاية أمير المؤمنين؟

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٣.

(٣) المصدر السابق نفسه رقم (١).

(٤) للاطلاع على تفصيل البحث راجع آية العاجلة في الإسراء.

لثواب الآجلة وحطام العاجلة، حيث الحارث المزدرع إنما يتوقع عاقبة حرثه فيجني ثمار غراسه ويفوز بعوائد ازدراعه.

إن الدنيا بما يُسعى فيها مزرعة قد تُعنى لها نفسها أو تُعنى للآخرة «فالدنيا مزرعة الآخرة» ولذلك يتقدم هنا ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ رغم تقدم الدنيا بحرثها في نقدها على الآخرة، فـ ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].

إنما الدنيا زرع ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2] فمن كان يريد منه حرث الآخرة يزد الله له في حرثه ولا يحرمه دنياه كما يصلح لآخرته، ومن كان يريد منه حرث الدنيا يؤت منها، شيئاً مما أرادها لا كلها، وما له في الآخرة من نصيب.

فانظر إلى طلاب حرث الآخرة والأولى تكشف عن الحماقة الكبرى في إرادة حرث الدنيا، وهو آت لا محالة لمن أرادها أو لم يردها، فلكلٍّ نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدّر له في حكمة الله ثم يبقى حرث الآخرة خالصاً لمن أراده وعمل له ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾[3] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[4].

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الإسراء، الآيات: ١٨-٢١.
(٤) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

من طلاب حرث الدنيا نجد أغنياء وفقراء، ومن طلاب حرث الآخرة نجد فقراء وأغنياء، وأين فقراء من فقراء وأغنياء من أغنياء، فكل ذلك محسوب حسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والاستعدادات الخاصة، وإن كان الأغنياء في طلاب الدنيا أكثر من طلاب الآخرة، وترى كم عمق هذا الحمق الذي يحصر الهم في إرادة حرث الدنيا ويحسره عن إرادة حرث الآخرة؟

إن الزيادة في حرث الآخرة مزيد رحمة من الله لطلابها في تقواهم والتسوية أو النقيصة في حرث الدنيا كذلك مزيد رحمة على العباد ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] وترك لتأييد أهل الدنيا في طغواهم.

ثم وإرادة حرث الدنيا قد تكون بعمل الآخرة فهي أردأ وأنكى وأضل سبيلاً: فـ«من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة»[2] و«إن المال والبنين حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لأقوام فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه واخشوه خشية ليست بتعذير واعملوا في غير رياء ولا سمعة»[3] و«من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»[4] وقد قال ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٧.
(٢) نور الثقلين ٤: ٥٦٩ - ح ٥٢ عن أصول الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام.
(٣) المصدر ح ٥٤ بسند خطب أمير المؤمنين عليه السلام وقال: أما بعد - إلى أن قال -: ...
(٤) مجمع البيان وروي عن النبي ﷺ: ...

نصيب»[١] قال تعالى: «ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك»[٢].

ولما يصل أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى هذه الآية يبكي ويقول: «اللهم إني أسألك إخبات المخبتين وإخلاص الموقنين ومرافقة الأبرار واستحقاق حقائق الإيمان والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم ورجوت رحمتك والفوز بالجنة والنجاة من النار»[٣].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾:

إنما الدين كله لله، والشارع من الدين كله هو الله، لا شريك له لا في الدين ولا في شرع الدين، وإنما المرسلون حملة دين الله وشرائعه، ومبلغو شرعة الله ومؤسسو دولته تطبيقاً لها وذوداً عن ساحتها وسماحتها.

ترى ما هو موقف «أم» هنا وهي لعطف الإعراض؟.. قد يكون المعطوف عليه مما يلي: أليسوا هم بحاجة إلى شرعة من دين الله إذ لا يعبدون الله وإنما أوثانهم وطواغيتهم؟ أم هم شرعوا لأنفسهم من الدّين ما أذن الله أو ما لم يأذن به الله؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم

---

(١) الدر المنثور ٦: ٥ - أخرج أحمد والحاكم وصححه وابن مردويه وابن حبان عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:....

(٢) المصدر - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ...﴾ ثم قال: يقول الله: ابن آدم...

(٣) أخرج ابن النجار في تاريخه عن رزين بن حصين قال: قرأت القرآن من أوّله إلى آخره على علي بن أبي طالب عليه السلام فلما بلغت الحواميم قال لي: قد بلغت عرائس القرآن فلما بلغت اثنتين وعشرين آية من حم عسق بكى ثم قال: اللهم... أقول: هذه الآية حسب ما عندنا هي العشرين ولعله عليه السلام حسب البسملة آية ثم آية أخرى في هذا البين آيتين فأصبحت هذه الآية الثانية والعشرين.

يأذن به الله؟ وشركاؤهم هم الذين اتخذوهم شركاء لله فهم إذاً شركاؤهم لا شركاء الله.

ليس من المعقول أن الدين الطاعة لله، ثم يشرع من دينه مَن سواه دون إذنه، تدخلاً عارماً طاغياً في طاعة الله، ويكأن الله لا يملك شرعة من دينه فشركاؤهم شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله!

فالله وحده هو الشارع لعباده من دينه وطاعته، فإنه مبدئهم ومبدعهم والكون كله، يدبره بالنواميس التكوينية والتشريعية سواء، وليست الحياة البشرية إلّا ترساً صغيراً في عجلة هذا الكون الشاسع الواسع، فليتحكمها شرعة تتمشى مع تلكم النواميس وتمشِّي الإنسان إلى قمم الكمال المعدة له في هديه، فكيف يشرع من دين الله من سوى الله، أوِلاية على الله؟ وهو الولي الحميد! أم حيطة على النواميس ومتطلبات الحياة؟ ولا يحيطون بأنفسهم علماً! أم ماذا.

مع وضوح هذه الحقيقة لحد البداهة فمن الحماقة والبلاهة المحاولات الطائلة لسنّ القوانين لإدارة شؤون الأفراد والجماعات حتى من أعقل العقلاء وأعدل العدول، وحتى المرسلين، فما هم بمشرعين من الدين، إنما هم رسل يحملون شرائع من الدين شرعها الله، ثم لا تدخل لهم في أية كبيرة أو صغيرة.

وليس لمن يستنبط إلّا استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجيات الحياة، على ضوء القرآن والسنة الرسالية والرسولية، دون سنٍّ لأي صغيرة أو كبيرة من عند أنفسهم، وإنما استنباط واجتهاد لأهله على شروطه.

هكذا تدخّل عارم في شرعة الله مما لم يأذن به الله يحق له القضاء الصارم من الله ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ﴾: كلمة التأجيل لأجل إلى الساعة، دون تعجيل قبل الساعة.

يوم الدنيا ليس يوم الفصل وإنما هو يوم الأخرى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[(١)] ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(٢)] ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾[(٣)] ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾[(٤)].

كلمة الفصل تحمل ميقات يوم الفصل، والإمهال والتأجيل ليوم الفصل، كما تحمله آيات الإمهال والتأجيل إلى يوم الفصل، حيث يقضي بينهم ويفصل ففريق في الجنة وفريق في السعير ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهؤلاء من أظلم الظالمين حيث يتدخلون في وِلاية الله بعد إشراكهم بالله: أن شرع لهم شركاءهم من الدين ما لم يأذن به الله.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾:

ترى الظالمين وجلين ما كسبوا على عناية علّهم ينجون وهو واقع بهم، لا جزاءه انتقاماً، بل إن ما كسبوا هو واقع بهم وقوع الشاهد القارع، حيث الأعمال والأقوال تشهد شهادة ذاتية عينية على عامليها، ومن ثم وقوعاً لحقائقها التي تبرز يومها ولا يظلمون نقيراً، حيث ينقلب عذاباً لا مخلص منه ولا محيد.

هؤلاء الظالمون المشفقون مما كسبوا، ومن ثم مؤمنون مشفقون ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ كما قدموها بما كسبوا وعند الله مزيد ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[(٥)] عما يشاؤون، ﴿وَهُمْ

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٢١.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٤٠.
(٣) سورة المرسلات، الآية: ٣٨.
(٤) سورة النبأ، الآية: ١٧.
(٥) سورة ق، الآية: ٣٥.

فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾[١] ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[٢] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[٣].

«ذلك» من روضات الجنات ولهم ما يشاؤون عند ربهم ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾! فهناك جنات هي لسائر أهل الجنة، وهنا روضات الجنات وهي البقاع الشريفة المتميزة فيها للذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا الذين ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[٤].

وترى أن ثواب الجنات بروضاتها ليس عن استحقاق فلا يجب على الله حتى يكون فضلاً كبيراً؟ أقول: نعم وكلا.. كلّا حيث الإيمان وعمل الصالحات لا يرجعان بفائدة إلى الله إلّا إلى العاملين فلا استحقاق لأجر، ونعم: حيث ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٥] ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة، فقد فرض على نفسه الفضل، حيث لا أصل الفضل واجب عليه ولا كبيره، فهو فضل على فضل.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾:

بشارة عظمى بعطية كبرى لعباد الله المؤمنين الصالحين، أترى أن الرسول ﷺ يسألهم على عنت الدعوة بوعثائها وأعبائها والبشارة بعقباها في أولاها وعقباها، أيسألهم عليه أجراً؟..

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾! وهذه سنة الله الدائبة في

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧١.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣١.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

رسله ألّا يسألوا المرسل إليهم أجراً، ولا جزاءً ولا شكوراً، لا مادياً ولا معنوياً، فأجرهم مضمون لهم عند الله، وهم ليس لهم أجورهم ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[1].

وهكذا نسمع الرسل منذ نوح يواجهون الأمم بأمر الله بالقول: ﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] وهود (١٢٧) وصالح (١٤٥) ولوط (١٦٤) وشعيب (١٨٠) ومن قبلهم وبينهم وبعدهم من المرسلين: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[3] كعامة المرسلين وحتى يوصل ويأحرى إلى خاتم المرسلين: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وليست هذه المودة - أياً كان - أجراً وإن كانت بصيغة الأجر: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[4] فهو إذاً أجر لا يرجع بفائدة إلّا لهم في سبيل الإيمان بربه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[5] بعد قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[6] لا تاجراً تتعامل ببلاغ الرسالة، والصيغة المجردة في سلبية الأجر سارية دون تكلف: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾[7] ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[8]؟ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[9].

آيات ثلاث تنفي عنه ﷺ سؤال الأجر كاستمرارية للسنة الرسالية، وثلاث أخرى تعالج موقف المودة في القربى أنها ليست في الحق أجراً

---

(١) سورة الطور، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٠٩.
(٣) سورة يس، الآية: ٢١.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٤٧.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٥٧.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.
(٧) سورة ص، الآيات: ٨٦-٨٨.
(٨) سورة الطور، الآية: ٤٠.
(٩) سورة يوسف، الآية: ١٠٤.

وإنما «هو لكم» وسبيل إلى ربكم، ودخول إلى مدينة علم الرسول من أبوابها المقررة لكم.

إذاً فلتكن المودة في القربى لصالحهم كمسلمين، وسبيلاً إلى رب العالمين، فلتكن مودة في أبواب مدينة علم الرسول، واستمرارية لرسالة الرسول، لا مودة في أقربائه بسبب القرب سببياً أو نسبياً أم ماذا من القرابات التي لا يحسب لها حساب في ميزان الله.

ومن المعلوم دون ريب أن وجهة الخطاب هم المؤمنون المبشر لهم بروضات الجنات حيث آمنوا وعملوا الصالحات، دون الظالمين المشفقين مما كسبوا، إذ الناكرون لأصل الرسالة لا يعقل طلب الأجر منهم جزاءً لهذه الدعوة وهم ناكروها حتى يقول: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ثم يطلب منهم بدل الأجر مودتهم له ﷺ وهم ألدّ أعدائه حيث يسب آلهتهم.

ثم هل من المعقول سؤال الرسول ﷺ المؤمنين برسالته أن يودوه في قرابته منهم، وليسوا هم كلهم من قرابته، ولم يكونوا يعادونه بعد الإيمان حتى يطلب وُدَّه نفسه لقرابته! أم ماذا من تأويلات عليلة.

إن القربى هنا كما تقول آياتها ليست إلّا القربى التي تقربهم المودة فيهم إلى الله زلفى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فإنما هي لهم لا له: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ إذاً فهم الأقربون إلى بيت الرسالة المحمدية «علي وفاطمة والحسن والحسين» تنزيلاً[1] و«التسعة المعصومون

---

(١) الدر المنثور ٦: ٧ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله ﷺ من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وولداهما ورواه مثله أحمد بن حنبل في مسنده عن ابن عباس عنه ﷺ والثعلبي في تفسيره بسند صحيح عنه وابراهيم الحمويني من أعيان علماء السنة بسنده عنه وأبو نعيم صاحب حلية الأبرار بسنده عن الأعمش عن سعيد بن جبير عنه والمالكي في كتاب الفصول المهمة عنه وصاحب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة بسنده=

من ولد الحسين» تأويلاً، وكما أخرجه زهاء اثنين وخمسين من فطاحل . .

= عنه - كل ذلك يرويه ابن عباس عن رسول الله ﷺ

وفي إحقاق الحق ج ١٤: ١٠٦ - أخرج مثله جماعة من أعلام القوم منهم العلامة ابن المغازلي في مناقبه ص ١١٢ مخطوط عنه ﷺ ومنهم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١: ١٣٠ ط بيروت بعدة طرق أخبرنيه الحاكم الوالد. . . وأخبرنيه أبو بكر السكري. . . وأخبرناه أبو عبد الله الشيرازي. . وحدثنيه أبو حازم الحافظ من أصل سماعه. . . وأخبرنا أبو نصر المفسر. . وأخبرنا محمد بن عبد الله الرزجاهي. . . وحدثنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ. . . . وأخبرنا أبو سعد بن علي. . ومنهم العلامة الحضرمي في وسيلة المآل ص ٦٦ نسخة الظاهرية بدمشق، ومنهم العلامة الشيخ عبد القادر الشافعي السنندجي في تقريب المرام في شرح تهذيب الأحكام ص ٣٣٢ مطبعة الأمرية ببولاق، كل ذلك عن ابن عباس أم غيره عن رسول الله ﷺ «هم علي وفاطمة وولداهما»!.

وفي المصدر عن العلامة الحسكاني في شواهد التنزيل ج ٢: ١٤٢ بإسناد متصل عن علي عليه السلام قال: فينا في «آلم حم» آية أنه لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن ثم قرأ ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] ورواه أيضاً مصبح بن هلقام عن عبد الغفور فأسنده إلى النبي ﷺ! وروى مثله العلامة باكثير الحضرمي في وسيلة المآل ص ٦٥ نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق من طريق أبي حيان والواحدي عن علي بعين ما تقدم.

وأخرج أبو نعيم والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى - أن تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم بي، وأخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير إلا المودة في القربى قال: قربى رسول الله ﷺ وروى ما يعنيه من أن القربى قربى رسول الله وآل محمد ﷺ في الجمع بين الصحاح الستة عن ابن عباس وعلي بن الحسين بن محمد الأصبهاني في كتاب مقاتل الطالبيين في خطبة للحسن بن علي عليه السلام بعد استشهاد أبيه عليه السلام: أنا ابن من فرض الله مودتهم في كتابه حيث قال: ومن ﴿يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ والحسنة حبنا أهل البيت، والمالكي عن السدي عن ابن مالك عن ابن عباس عنه ﷺ أن الحسنة هنا هي مودة آل محمد ﷺ وابن المغازلي الشافعي في كتاب المناقب بسنده عن الحكم بن طهير عن السدي مثله، أخرجه كله في علي وفاطمة والحسنين وفي قربى رسول الله وآل محمد وأهل البيت السيد هاشم البحراني في كفاية الخصام ص ٣٩٥ - ٣٩٦ - الباب ٧٢، ثم أخرج من طريق أهل البيت عليهم السلام أنهم هم والأئمة عليهم السلام كلهم اثنين وعشرين حديثاً وكما المخرج من طريق إخواننا سبعة عشر حديثاً وكما أخرج في البرهان ونور الثقلين أحاديث متواترة في هذا المعنى فراجعها.

وأخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين عليه السلام أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي بن=

. . . .

= الحسين عليه السلام أقرأت القرآن؟ قال: نعم - قال: أقرأت آلم حم؟ قال: لا - قال: أما قرأت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم ورواه مثله الثعلبي في تفسيره عن أبي الديلم مثله وبسند آخر عن أم سلمى مثله وفي تفسير البرهان ٤: ١٢٦ ح ٢٥ الثعالبي بسند متصل عن أبي الديلم مثله.

وينقل الآلوسي في تفسيره روح المعاني ج ٢٥ ص ٣٢ شعراً في حب آل البيت عن الإمام الشافعي قائلاً: وأنا أقول قول الشافعي الشافي العي:

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً بساكن خيفها والناهض
إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

وفي مجمع البيان بإسناده إلى القاسم الحسكاني مرفوعاً إلى أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى وخلقت أنا وعلي من شجرة واحدة فأنا أصلها وعلي فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها وأشياعنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا ومن زاغ عنها هوى ولو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالي ثم لم يدرك محبتنا كبه الله على منخريه في النار ثم تلا ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وفي الدر المنثور ٦١: ٧ وأخرج الترمذي وحسنه وابن الأنباري في المصاحف عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما، وفيه أخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي وأخرج البخاري عن أبي بكر الصديق قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته، وأخرج ابن عدي عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: من أبغضنا أهل البيت فهو منافق.

وينقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير عن صاحب الكشاف أنه يروى عن النبي ﷺ: قوله: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة =

إخواننا[١] وكثير من أصحابنا عن رسول الله ﷺ لأنهم أبواب مدينة علمه

= والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، إلا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة.

أقول: ثم يعلق الفخر الرازي على هذا الحديث قوله: «ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضاً اختلف الناس في الآل قيل هم الأقارب وقيل هم أمته فإن حملناه على القرابة فهم الآل وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه؟

(١) منهم أحمد بن حنبل في صحيحه والطبري في تفسيره بثلاثة أسانيد والحاكم في المستدرك والزمخشري في الكشاف وأخطب خوارزم في مقتل الحسين وابن الأثير في جامع الأصول والرازي في تفسيره وابن بطريق في العمدة وابن طلحة في مطالب السؤول والكنجي في كفاية الطالب بسندين والبيضاوي في تفسيره والطبري في ذخائر العقبى بسندين والنسفي في تفسيره والحمويني وصاحب المناقب الفاخرة والنيسابوري في تفسيره وأبو حيان في البحر المحيط وابن كثير في التفسير بسندين والهيتمي في مجمع الزوائد والمهايمي الهندي في تفسير تبصير الرحمن وابن حجر العسقلاني في الكافي الشاف بثلاثة أسانيد وابن صباغ المالكي في الفصول المهمة والسيوطي في الدر المنثور بثلاثة أسانيد وفي الإكليل بتسعة أسانيد وفي إحياء الميت بأربعة أسانيد وابن همام في حبيب السير وابن حجر في الصواعق المحرقة بثلاثة أسانيد والخطيب الشربيني في السراج المنير والبركري في الأربعين والمير محمد صالح الترمذي في مناقب مرتضوي والمحلى في الحدائق الوردية والمولى حسين الكاشفي في روضة الشهداء وفي المواهب والشبراوي في الإتحاف بثلاثة أسانيد والصبان في إسعاف الراغبين من (٣) والشوكاني في فتح القدير (٦) والآلوسي في روح المعاني (٤) وأرجح المطالب والقندوزي في ينابيع المودة (٨) والبرزندي والطبراني وابن حنبل في المناقب وابن أبي حاتم في التفسير والحاكم في المناقب والنيسابوري في الوسيط وابن جرير في جامع البيان والحقاني والشبلنجي في نور الأبصار والسيد صديق حسن خان في هداية السائل في أدلة المسائل (٢) والحضرمي في رشفة الصادي والتونسي في السيف المسلول والحداد في القول الفصل (١٧) والخوارزمي في المقتل والطبري في ذخائر العقبى هؤلاء الفطاحل رووا عن رسول الله ﷺ نزول آية ذوي القربى في الخمسة الطاهرة عليهم السلام.

وفي ملحقات الإحقاق ٩: ٩٢ يستدرك ما أخرجه في ٣ كما هنا بقوله ومنهم الثعلبي في الكشف والبيان والخواجة محمد پارسا البخاري في فصل الخطاب على ما في الينابيع ٣٦٨ والبدخشي في مفتاح النجا ١٣ والقندوزي في ينابيع المودة ١٠٦ والطبراني في المعجم الكبير ١٣١ =

وهم الثقل الثاني: عترته، وهم خلفاؤه في أمته، كما تواترت بذلك الروايات من طريق الفريقين، مهما يهرف الهارفون ويخرف الخارفون في اختلاق روايات تناقضها أو تأويلات، حيث القرآن هو الميزان لا سواه، وهنا ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾ لا «للقربى» ولا «مودة القربى» حيث القربى جعلوا مكاناً للمودة، أن تتمكن المودة فيهم كسبل إلى الله، لا مودتهم والمودة لهم لكي يتخذوا أصولاً

= وأبو نعيم الأصبهاني في نزول القرآن مخطوط والزمخشري في تفسيره ٣: ٤٠٢٠ والأمر تسري في أرجح المطالب ٦٢ والحضرمي في القول الفصل ١: ٤٨٢.

وعبد الكافي الحسيني في السيف اليماني المسلول ٦٤ والخوارزمي في مقتل الحسين ٥٧ والطبري في ذخائر العقبى ٢٥ وابن تيمية في منهاج السنة ٣: ٢٥٠ والتفتازاني في شرح المقاصد ٢: ٢١٩ والقسطلاني في المواهب اللدنية ٧: ٣ و١٢٣ والعسقلاني في الكاف الشاف ١٤٥ ومحمد صديق حسن خان ملك بهوپال في فتح البيان ٨: ٢٧٠ والسيوطي في إحياء الميت ١١٠ والميبدي في شرح ديوان أمير المؤمنين مخطوط والحضرمي في رشفة الصادي ٢٢ والشبراوي في الإتحاف ٥ و١٣ والشافعي في المناقب ٧٠ مخطوط والأمر تسري في أرجح المطالب ٥٧ والبدخشي في مفتاح النجا ١٢ مخطوط والبلخي في ينابيع المودة ٢٦١ والإدريسي في رفع اللبس والشبهات ٨ والقاضي بهجت أفندي في تاريخ آل محمد ٤٤ والنبهاني في الشرف المؤيد ٧٢ وفي الأنوار المحمدية ٤٣٣ والساعاتي في بلوغ الأماني المطبوع ذيل الفتح الرباني ١٨: ٢٦٥ وابن حنبل في فضائل الصحابة ٢١٨ مخطوط وفي مسنده على ما في الينابيع والزمخشري في تفسيره ٣: ٤٠٢ والخوارزمي في مقتل الحسين ١ و٧٥ والرازي في تفسيره ٢٧: ١٦٦ وابن بطريق الحلي في العمدة ٢٣ والكنجي في كفاية الطالب والشافعي في مطالب السؤول ٨ والبيضاوي في تفسيره ٤: ١٢٣ والنسفي في تفسيره ٩٥ والحمويني في فرائد السمطين والنيسابوري في تفسيره ٢٥: ٣١ وأبو حيان في البحر المحيط ٧: ٥١٦ وابن كثير في تفسيره ٤: ١١٢ والهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٣ والكوكني في تفسيره تبصير الرحمن ٣: ٢٤٧ والصباغ في الفصول المهمة «والسيوطي في تفسيره ٦: ٧ وفي إكليله ١٩٠ وفي إحياء الميت ١١٠ وخواند مير في حبيب السير والترمذي في المناقب المرتضوية ٤٩ والكاشفي في المواهب ٢: ٢٤٣ والشبراوي في الإتحاف ٥ والطبراني في المعجم الكبير وابن أبي حاتم في تفسيره والحاكم في المناقب والواحدي في الوسيط وأبو نعيم في حلية الأولياء والزرندي في نظم درر السمطين وابن حنبل في المناقب والحقاني في فلك النجاة والطبري في جامع البيان وعبد الكافي الحسني في السيف المسلول ٩ والحداد في القول الفصل.

وأهدافاً، لا! وإنما هم السبل إلى الله والأدلاء على مرضاة الله، إذاً فليس واجب المودة هنا ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حيث توصلكم إلى الله!.

إن «القربى» هي مؤنث الأقرب كما وهي مصدر - وبطبيعة الحال - هي بمعنى الأقربية، ولا تخلو في سائر القرآن عن كونها فعلي التفضيل أو مصدره[1] ولا تجد القربى مجردة عن «ذي - ذوي - أولي» إلّا هنا، حيث الأقربية الرسالية هي المعنية دون ذويها وأوليها، ولذلك قال ﴿فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لا «للقربى» أو «القربى».

فحاصل المعني من المودة في القربى هو المودة في القربى إلى الرسول كمدينة علم الرسالة، فإلى الله حيث الرسالة تكرّس ككلّ إلى الله: ﴿... إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فكانوا هم السبيل إليه والمسلك إلى رضوانه.

فليست القربى إذاً - فقط - أقربية الرسول إلى الله ممن سواه وإن كانت تشملها كأصل، ولكنما المودة في القربى إنما تكون لهم كسبيل كاملة إلى الله إذا اتخذوا إلى مدينة علمه سبيلاً هي أبوابها: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾[2].

فالرسول ﷺ هو أفضل السبل إلى الله، فالسبيل مع الرسول ليس هو الرسول وإنما سبيل مع الرسول إلى الله، هل لأن الرسول لا يكفي سبيلاً إلى الله حتى يثنّى بسبيل معه؟ أم إن السبيل معه هو القرآن؟ والقائل: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، لا ينقصه إلّا سبيل مع الرسول، وأما الرسول والقرآن فهما توأمان، حيث الإيمان بأحدهما إيمان بالآخر، والقرآن هو

---

(١) كما في ستة عشر موضعاً من ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] و﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧] و﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٨] و﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ [المائدة: ١٠٦] و﴿أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].

(٢) سورة الفرقان، الآيات: ٢٧-٢٩.

الدليل لرسالته، فكيف يُتخذ الرسول سبيلاً دون القرآن، فالسبيل هنا ليس هو الرسول ولا القرآن، وإنما هو سبيل إلى رسول القرآن. وقرآن الرسول فإلى الله، وليس إلّا ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الأقربين إلى الرسالة، فإن مودتهم - لأنهم أبواب مدينة علم الرسول ﷺ - تتبع اتخاذهم سبيلاً مع الرسول وكما تواتر عنه ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

ثم ولا تعني القربى - وبأحرى - أقربية الرسول إليهم[١] ولا أقربيتهم إليه، لو تعني قرابة نسبية أم ماذا من غير الرسالية، فإنها ليست لهم ولصالحهم في اتخاذها سبيلاً إلى ربه، على أن المخاطبين وهم المؤمنون برسالته آمنوا به لرسالته وهي قربى روحية فهي أقرب وأحرى في المودة من القربى غير الروحية الرسالية[٢].

فالمودة في القربى - التي لها صلة بأجر الرسالة وليست به فإنها لهم، وهي ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً - إنها ليست هي الرسالة حيث صدقوها، وليست أجراً لنفسها، اللهم إلا تعرّفاً سليماً إلى الرسالة واستمرارية لها وليس إلّا بـ﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عترته ﷺ الأقربون إليه في معرفة الرسالة وحملها.

هنالك مودة في الرسالة تجعلهم يتعلمون من الرسول ويطيعونه كما يستطيعون حسب ما يودون رسالة الله ويحبون الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

---

(١) كما في الدر المنثور ٦: ٦ - أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال لهم رسول الله ﷺ: لا اسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم - أقول وهذا خلاف المستفاد من القربى كما عرفناها من الآية وخلاف النقل المتواتر عن ابن عباس نفسه وخلاف إجماع أهل البيت عليهم السلام.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٧٨ ح ٨٥ في روضة الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: وقال لأعداء الله أولياء الشيطان.

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[١] وهذه المودة تتطلب مودة السبل إلى الرسالة ومدينة علم الرسول، وليست إلّا ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ حيث تقربهم إلى الرسول فإلى الله زلفى، ثم لا نجد قربى إلّا هيه، اللهم إلّا واهية، إلّا قربى الله وليست لغير المعصومين اللّهم إلا سبلاً إلى الله، وهم السبيل الأعظم والصراط الأقوم، وهم أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومهبط الوحي، ومعدن الرحمة، وهم الدعوة الحسنى، وحجج الله على أهل الدنيا والآخرة والأولى، وهم الدعاة إلى الله، والأدلّاء على مرضاة الله، والمستقرين في أمر الله والتامين في محبة الله.

في الحق إن المودة في القربى ليست أجراً للرسالة، وإنما هي طلب المزيد من تصديق الرسالة بالمودة في الملاصقين الأولين بالرسالة، وداً تحملهم على ملازمتهم في الأخذ عنهم أهل البيت، فأهل البيت أدرى بما في البيت!.

فلأن الأجر هو أجر الرسالة لا أجر محمد إلا كرسول، فلتكن المودة في القربى هي في قربى الرسالة: من هو أقرب إليها من بيت الرسالة، ثم وهو لهم كمؤمنين بالرسالة وهو ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، لا قرب محمد كسائر البشر إليهم ولا قربهم إليه، فإن المودة في هذا القرب وذاك ليست إسلامية ولا تمتّ بصلة لرسالته أم ماذا؟

ثم المودة في قرباه إليكم ليست إلّا له لا لهم ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ كذلك هي والمودة في قرباهم إليه ليست اتخاذ سبيل إلى الرب اللهم إلّا قربى الرسالة، سبيلاً إليها فإلى الله وهي الأئمة من عترته عليهم السلام.

فلئن قلت لا قربى أقرب من قربى الله فلتكن هذه المودة في قربى الله

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

«أن تتقربوا إليه بطاعته»[١]؟ قلنا: كما المودة في طاعة الله تحملكم عليها ثم قربى بها إلى الله، كذلك المودة في الأدلّاء إلى الرسول فإلى الله، فلولا معرفة الرسول والرسالة كاملة لم تعرفوا طاعة الله حتى تقربكم إلى الله زلفى ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[٢] فلو كان السبيل إلى الرب هي الطاعة المعروفة لكل أحد فكيف يسألهم المودة فيها كأجر الرسالة، فإنما هذه سبيل جديدة يعرّفها لهم حيث هم يعلّمونهم ما خفي عنهم وعزب عن علمهم فهم أبواب مدينة علم الرسول ﷺ.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ تصديقاً للرسالة الإلهية، وتذرعاً بالمودة في القربى إليها فإلى الله زلفى، أم ماذا من حسنة عقائدية أو عملية؟

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ حسناً على حسنة نوراً على نور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ حيث التقصير والقصور في اقتراف حسنة لمن استغفر وأناب ﴿شَكُورٌ﴾ لمن يقترف حسنة، ولمن يتوب بعد السيئة وقد ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[٣].

ولقد كانت هذه الآية الغرة اليتيمة تذكرة لهم أمام مشهد روضات الجنات وحرية المشيئات فيها، وهي حصيلة الدعوة الرسالية الصعبة الملتوية ليل نهار، ذكرى أنه لا يسألهم على هذا أجراً إلّا المودة في القربى وهي لهم، وإلّا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً.

لقد كان الاستثناء منقطعاً معنوياً حيث المودة هذه لم تكن أجراً، وإن كان متصلاً لفظياً حيث سماها أجراً وما هي بأجر، ثم وليس مجرد عدم

---

(١) الدر المنثور ٦: ٦ - أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الآية: قل لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجراً إلّا أن تودوا الله وأن تتقربوا إليه بطاعته.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٧.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

تناول الأجر بل ويتناولون هم أجراً وزيادة ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا...﴾! ثم ومن بعد الأجر وزيادته غفراً وشكراً.

فخصيصة هذه المودّة أنها ليست أجراً له، وهي لهم، وهي السبيل إلى ربهم، وليست القربى أشخاصاً، وإنما هي الأقربية إلى الرسول رسالياً وإلى الله بعد الرسول معرفياً وعبودياً، المتمثلة في الأئمة من عترته المعصومين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾:

هذه الآية لا تمت بصلة لآية الأجر إلّا كونها موضع ريبة لجماعة من المسلمين، كما القرآن كله عند الناكرين، قولة في الجو الإسلامي الذي لم يسلم تماماً عن الانحراف ممن ثقلت عليهم المودة في القربى[(١)] حيث قلبها بعضهم إلى العداوة كما عادوا النبي كالمنافقين، وآخرون مذبذبون عواناً دون عناد ولا وداد إلّا مودة كسائر المسلمين أو هي أعلى دون أن تتخذ إلى الرب سبيلاً، ثم قليل منهم متعهدون.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٧٦ ح ٨٢ في تفسير علي بن إبراهيم بسند عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله عزّ وجلّ : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قل لا أسألكم عليه اجراً.. إلى أن قال: ففرض الله عليهم المودة في القربى فإن أخذوا أخذوا مفروضاً وان تركوا تركوا مفروضاً قال: فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا فقال لا - قاتلوا عن أهل بيتي من بعدي وقالت طائفة: ما قال هذا رسول الله وجحدوه وقالوا كما حكى الله عزّ وجلّ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ - فقال عزّ وجلّ : ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال: لو افتريت ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ يعني: يبطله ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ يعني بالأئمة والقائم من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

وفي الدر المنثور ٦: ٧ - أخرج الطبراني والخطيب من طريق أبي الضحى عن ابن عباس قال: جاء العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنك تركت فينا ضغائن منذ صنعت الذي صنعت فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا يبلغوا الخير أو الإيمان حتى يحبوكم.

ثم قولة لغير المسلمين إن القرآن ككلّ مفترى على الله، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾(١) ﴿... فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾(٢) ﴿... إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾(٣) ﴿... إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾(٤).

أو أن بعضه مفترى كالمودة في القربى عند البعض من المسلمين، أم ماذا من غير المرغوب عندهم حيث يقولون: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ...﴾(٥) والجواب الحاسم هنا وفي الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾(٦).

و﴿أَمْ﴾ هنا عطف إعراض عما لا يستحق الذكر كأن كذب الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ...﴾. فهنالك مفترون على الله الكذب من غير رسل الله، وهم مفضوحون إذ لا حجة لهم - فيما يفترون - باهظة، إلّا داحضة، وهم لا يصدَّقون في صدقهم على الله دونما رسالة إلهية أم ماذا، فكيف يصدَّقون في فريتهم على الله.

وأما أن رسولاً صادق الرسالة بآياته يفتري الكذب على الله، ثم الله يستمر في رسالته دون أن يأخذ منه بيمين القدرة ويقطع عنه وتين الرسالة، فهذه خيانة إلهية أن يأتمن الخائن في رسالته، وإضلال في موقف الهداية.

(١) سورة يونس، الآية: ٣٨.
(٢) سورة هود، الآية: ١٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٨.
(٥) سورة يونس، الآية: ١٥.
(٦) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٨.

فـ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لا يرسل ويأتمن الخائن، ولو أرسل من تتأتى منه الخيانة فليختم على قلبه، قلباً لقلب الرسالة ولسانها وأحوالها وآياتها إلى غيرها، حسماً لمادة الخيانة، ثم قلباً إلى غير الإيمان جزاءً بما خان.

وسنة الله دائبة على محو الباطل وإحقاق الحق أياً كان ومن أي كان، فهلا يمح الباطل من رسول الحق، وهلا يحق الحق في رسول الحق؟ أجل: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ بكلماته ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

علمه بذات الصدور لا يدعه يرسل الخَوَنة، ولو أرسل فلأنه يعلم موضع الخيانة يختم على قلب الخائن، ولأنه يعلم الحق والباطل ككل، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ ودلالاته.

فما كان الله ليخفى عليه ما يدور بخلد الرسول قبل أن يرسله أو يقول، فكيف بما بعده ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾!

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾:

و«هو» لا سواه ﴿ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فلماذا القنوط من رحمته واللجاج في معصيته أو اللجوء إلى سواه، فباب التوبة مفتوحة على مصراعيها لمن تاب إلى الله، وقبول التوبة لمن أرادها، أن يتوب الله على العاصي ليتوب إلى الله ثم يتوب الله عليه ليقبلها عنه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾[2] والتوبة

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

الصالحة هي بعد الاستغفار: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[(١)] ومن بعد التوبة الإيمان والاهتداء والعمل الصالح: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾[(٢)] ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[(٣)].

وقد تنتهي التوبة إلى الاجتباء كما في آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[(٤)] فقد عصى فتاب إلى الله فتاب الله عليه ثم هداه هدى ثانية بعد ما اهتدى في توبته ثم اجتباه بالرسالة.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وترى العفو هنا عن السيئات بتوبة؟ وقبول التوبة يشمله! أم دون توبة فكيف هو؟! إن السيئات هي ما دون الكبائر، والعفو عن السيئات دون توبة موعود شريطة اجتناب الكبائر: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[(٥)] فمقترف الكبائر والسيئات دون توبة لا تعفى عنه السيئات دون توبة.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الله فيما دعاهم إلى دينه والتوبة إليه كما ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ الله دعاءهم وتوبتهم ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ في استجابتهم إياه واستجابته إياهم ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وأما «الكافرون» فـ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ إذ لم يستجيبوا لربهم فلا يستجيبهم ربهم، ولهم عذاب شديد.

وقد تعني التوبة هنا - والاستجابة فيما تعني - توبة من تقوّل عليه أنه افترى آية القربى على الله كذباً واستجابته[(٦)].

---

(١) سورة هود، الآية: ٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٩.
(٣) سورة طه، الآية: ٨٢.
(٤) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٦) نور الثقلين في المجمع وذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره حدثني عثمان بن سعيد بن عمير =

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾:

ولـــكـــن: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[1] فـ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[2].

فلأنه تعالى بعباده خبير ما هي طبيعتهم، وبصير إلى ما تصير حالتهم لو بسط في رزقهم ككل، لذلك جرت سنته على أن ينزل من رزقه لهم بقدر: كميَّة معيَّنة معنيّة، وهندسة خاصة مقضية، من سعة وقُدرٍ وعوان بين ذلك.

فغزارة الحياة الأخرى للمؤمنين أن رزقهم كما يشتهون ولدى الله مزيد مصلحة لهم إذ لا تنازع هناك ولا طغوى وبغي حيث يخرج أضغانهم فهم صالحون.

ونزارة الحياة الدنيا بجنب تلك الغزارة لحد لا تحسب بشيء، هذه النزارة مُهندَسة مقدرة لهم بقدر، فإن الخبير البصير يعلم أن عباده كهؤلاء البشر لا يطيقون الرزق إلّا بقدر، فهم صغار لا يملكون التوازن حيث هم في بلاء الأرض، فسيبقى فيضه المبسوط بغير حساب لمن ينجحون في محنة الدنيا وابتلائها، وقد يبسط هناك لمن لا ينجحون ويبغون بسنن أخرى

= عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة واستحكم الإسلام قالت الأنصار فيما بينهم: نأتي رسول الله ﷺ فنقول له إن تعرك أمور فهذه أموالنا تحكم فيها غير حرج ولا محظور عليك فأتوه في ذلك فنزلت ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] فقرأها عليهم وقال: تودون قرابتي من بعدي فخرجوا من عنده مسلمين لقوله فقال المنافقون: إن هذا شيء افتراه في مجلسه أراد أن يذللنا لقرابته من بعده فنزلت ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤] فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتد عليهم فأنزل الله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥] الآية فأرسل في أثرهم فبشرهم وقال: ويستجيب الذين آمنوا - وهم الذين سلموا لقوله.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٠.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

حاكمة على هذه السنة، كسنة تعجيل العاجلة لمن كان يريدها دون الآجلة توفية الجزاء فيها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[١].

وسنة الاستدراج والإملاء: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾[٢].

فسنة الإصلاح ككلّ بتقدير الأرزاق، سنة ابتدائية عامة تتبنى صالح المجموعة، وسنة الاستدراج وتوفية الجزاء، سنة هامشية خاصة لمن يستحقونها.

ففي حديث قدسي: «إن من عبادي من لا يُصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده وذلك أني أُدبِّر عبادي لعلمي بقلوبهم»[٣].

فـ «لو فعل لفعلوا ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض واستعبدهم بذلك ولو جعلهم أغنياء لبغوا ولكن ينزل بقدر ما يشاء مما يعلم أنه يصلحهم في دينهم ودنياهم إنه بعباده خبير بصير»[٤].

وقال رسول الله ﷺ: إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال له رجل: يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ فقال:

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢، ١٨٣.
(٣) نور الثقلين ٤ : ٥٧٩ - عن مجمع البيان روى أنس عن النبي ﷺ عن جبرائيل عن الله: .
(٤) المصدر في تفسير علي بن إبراهيم في الآية عن الصادق عليه السلام.

إن الخير لا يأتي بالشر وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى امتلأت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت، وإن المال حلوة خضرة، ونعم صاحبها المسلم هو أن وصل الرحم وأنفق في سبيل الله ومثل الذي يأخذه بغير حقه كمثل الذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة»[(١)].

وفي نص آخر عنه ﷺ جواب آخر هي هذه الآية ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ...﴾ ثم استمر في جوابه ﷺ[(٢)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾:

الغيث هو ما يُغيث العِطاش نشطاً بعد فتور إلى نعاش، إن روحياً فأنبل وأحرى، وإن جسمياً عن كبد حرّى، فهو المغيث هنا وهناك لا سواه، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ عن ريٍّ، ودخلوا في غيّ ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ بغيث يغيث جسماً أم روحاً ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يلي من أمر عباده ما لا يليه إلّا هو، ولا يقدر عليه إلّا هو، فـ ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ حميداً في ولايته دون قصور ولا تقصير.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ في ولايته الحميدة الرحيمة ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ...﴾:

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٨ - أخرج أحمد والطيالسي والبخاري ومسلم والنسائي وأبو يعلى وابن حبان عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ وبين سؤال السائل وجوابه - فسكت عنه رسول الله ﷺ فرأينا أنه ينزل عليه فقيل له ما شأنك تكلم رسول الله ﷺ ولا يكلمك فسرى عن رسول الله ﷺ فجعل يمسح عنه الرخصاء فقال: اين السائل فرأينا أنه حمد فقال: . . .

(٢) المصدر أخرج ابن جرير عن قتادة في الآية ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: . . .

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ
جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ
كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤)
وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ
فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
(٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ
(٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ
مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ
ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣) وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ
إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ
يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ

خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ
(٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا
لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ
ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ (٤٧) فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ
فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا
ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ
فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ (٤٨) لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ
يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا
وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ (٥٠) وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن
يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ
بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ
أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ
مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ
ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ (٥٣)﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ (٢٩)﴾:

آية غرة بين الغرر، تأتي بملاحم غيبية لم تسطع البشرية حتى الآن أن تتطلعها فتطّلع عليها، رغم سبرها الأغوار العميقة الواسعة في أرجاء الكون بالأسفار الجوية وسواها من وسائل حديثة، فلم تسطع إلّا على أشراف مما تحمله هذه الآية القصيرة من غرر:

١ - إن في السماوات دواباً كما في الأرض: هذه أم سائر الأرض من السبع، كما في السماوات السبع - ٢ - ومنها عقلاء كإنسان هذه الأرض - ٣ - والله سوف يجمع بين عقلاء السماوات والأرض!!!.

أسرار مستسرة لم ينفذ إلى طبيعتها أحد، فضلاً عن التطلُّع إلى إنشائها وكيفياتها، فكل المحاولات العلمية التي بذلت للبحث عن حياة في السماء حتى النباتية، فضلاً عن أحياء فيها حيوانية أم إنسانية أم ماذا إنها أغلقت دونها الأبواب، وانحسرت عندها الأسباب، حيث انقلب البصر إلى أهلها خاسئاً وهو حسير.

إنسان الأرض لم يحط علماً لحد الآن بدواب الأرض وهو ساكنها وماكنها، فكيف له التطلُّع إلى السماء ليرى ساكنها وماكنها، اللّهم إلّا أن يُطلعه إله الأرض والسماء كما في هذه الآية وأضرابها، حيث تبث فيهما من دابة بعد خلقها، ثم تجمعهما هنا وليوم الجمع في هذه اللمحة اللامعة، فيشهد القلب مشاهد ثلاثة أو أربعة قبل أن ينتهي اللسان من آية واحدة قصيرة من الذكر الحكيم!.

وماذا تعني دابة السماوات والأرض؟... إن الدبّ - لغوياً - مشيء خفيف، والدابة وهي المبالغة فيه، تعني الماشية فوق الخفيف، وأرض مدبوبة: كثيرة ذوات الدبيب فيها، فالدابة - إذاً - حيوان يمشي على أرض مّا في أرض أم سماء: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

إذاً فكل دابة تمشي، فلا تطير في جو الأرض: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.

طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ...﴾[1] ولا في جو السماء كالملائكة: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[2] وهذه الآية تكفي نصاً على أن الدابة لا تشمل الملائكة، وتأخر الملائكة هنا ذكراً على تقدمها شأناً علّه للإطاحة باحتمال تخصص الدابة بالأرض.

وفيما تُطلق الدابة تعني كل دابة في الكون، بثًّا لها كما هنا، أو أخذاً بناصيتها: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾[3] أو خلقاً لها من ماءٍ مشياً على بطن أو رجلين أم أربع[4] أم قضاء عليها كلها لولا أجل مسمى بظلم ناسها: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾[5] أم رزقاً لها حيث لا تحمل رزقها: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾[6].

اللّهم إلّا بقرينة قاطعة تحصرها بالأرض: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾[7] ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ...﴾[8] هذه الأرض أم كل السبع إلّا بقرينة تخصها: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾[9] ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[10].

فـ ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ هنا وفي أضرابها تدلنا على وجود دواب في السماوات كما في الأرض، أترى أن فيها دابة الإنسان حيث يمشي على رجلين أم ماذا كما في الأرض؟

أجل! لمكان «هم» في «جمعهم» هنا حيث ترجع إلى ذوي العقول دون

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٩.
(٣) سورة هود، الآية: ٥٦.
(٤) سورة النور، الآية: ٤٥.
(٥) سورة النحل، الآية: ٦١.
(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٦٠.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٨) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٩) سورة سبأ، الآية: ١٤.
(١٠) سورة النمل، الآية: ٨٢.

«ها» فإنها لغير ذوي العقول، وقد يكون من «هم» ناس ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(١) فحيث لا مرجع هنا للضمير ﴿عَلَيْهَا﴾ فلترجع إلى الدنيا كلها من أرضها وسمائها، كما وهما تذكران بآيات قبلها ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا. . .﴾(٢) فالناس المأخوذون هنا لولا أجل مسمى هم ناس السماوات والأرض، ودليلاً ثانياً أن دواب السماوات لا تؤخذ بما ظلم ناس الأرض، فأخذ الدابة بما يظلم الناس أخذ لما ينفع الناس مع الناس.

وقد تعني آية الحج من ثالث الثلاثة في المساجد كثيراً من ناس السماوات والأرضين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ. . .﴾(٣) فـ ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ والأرض من ملائكة أو إنسان أم أية دابة أم من ذا؟ ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وغيرهما من نجوم السماء ﴿وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ﴾ من الأرض والسماء. ﴿وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ فيهما اختياراً ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ تكوينياً واضطراراً.

وإذا السجدة هنا تعم ذوي العقول وسواهم ففي النحل يخصهم دون سواهم: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾(٤) حيث تتأخر الملائكة الساجدة لكي تعم الدابة الساجدة السماوات والأرض» وهم لا يستكبرون يخافون. . !

ثم الدابة العاقلة بين دواب السماء قد تكون إنساناً يمشي على رجلين أم

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦١.
(٢) سورة النحل، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الحج، الآية: ١٨.
(٤) سورة النحل، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

ماذا؟ فلا مشاحة في الأسماء، أم تكون أياً كان من العقلاء من جان أمن ذا، فالعالمون في آياتهم دليل على فرقة ثالثة بعد الإنس والجان - لأقل تقدير - قضية أقل الجمع.

ففي (٧٣) موضعاً من آي الذكر الحكيم يأتي العالمون والعالمين جمع العالم وهو العاقل ممن سوى الله، نعرف من هذا الجمع عالم الإنس والجن ولا نعرف ثالثاً أم زاد إلا إجمالاً من آية البث والبعض من آيات الدابة وآيات العالمين: كـ «رب العالمين» و﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] مما يدل على أفضلية هؤلاء المرسلين على مرسلي الجن وسائر العالمين، كما القرآن ورسوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] ذكراً ورسالة لعامة المكلفين ورحمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] ونذارة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٤].

وقد تدلنا روايات عدة على مدن سماوية كما يروى عن الإمام علي عليه السلام: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودين من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين وخمسين سنة»[٥].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في كل واحدة من السماوات السبع خلقاً كثيراً وكذا في ما بينها»[٦].

وكما عن الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت في السماء السابعة ميادين

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٥) تفسير علي بن إبراهيم القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عنه عليه السلام.
(٦) بحار الأنوار عن كتاب مثنّى بن الوليد الحفاظ عن أبي بصير عنه عليه السلام.

كميادين أرضكم هذه»[١] فالميادين كميادين أرضكم والمدائن مثل التي في الأرض والخلق الكثير والبقاع الكثيرة والمساكن الطيبة، كل ذلك تؤيد أن «هم» في آية البث تعني وجود عقلاء في السماوات كما في الأرض وكما تدلنا متظافر الروايات[٢].

(١) البحار عن الفخر الرازي بإسناده عنه ﷺ.

(٢) وعن الصادق: «إن الله تعالى خلق بقاعاً كثيرة ومساكن طيبة فخلف مغربكم هذا تسعة وثلاثون مغرباً، مدينة تشرق فيها الشمس وتغرب وهي مملوءة من خلق عقلاء يتمتعون بمعرفة الله ونعمته لم يدنس ساحتهم إثم ولا خبرة لهم عنه.

وعن باقر العلوم عليه السلام: «إن وراء شمسكم هذه أربعون عين شمس بين كل واحدة أربعون سنة وفي كل منها خلائق كثيرون لا يدرون هل خلق الله آدم أم لا؟ وإن وراء قمركم هذا أربعون قمراً وبين كل واحدة أربعون سنة فيها خلائق كثيرون لم يطلعوا على خلق الإنسان ولقد ألهمهم الله كمثل النحل غريزة سنن المعيشة (تفسير القمي).

وفي مجمع البحرين نقلاً عن الفخر الرازي في جواهر القرآن عن رسول الله ﷺ إن لله أرضاً بيضاء تسير الشمس فيها ثلاثين يوماً وسعتها ثلاثين أضعاف أرضنا.

وروى الشيخ أبو الليث السمرقندي (٣٧٣ هـ) في كتابه عنه ﷺ مثله بزيادة أن هذه الأرض مليئة من الأحياء.

وفي بحار الأنوار وبصائر الدرجات عن الإمام الصادق عليه السلام أن وراء أرضنا هذه أرض بيضاء نورها منا يعيش فيها خلق يعبدون الله ولا يشركون به أحداً.

ويروي المفيد في الاختصاص عن الإمام الصادق عليه السلام أن علياً عليه السلام سار الأرضين السبع ثلاث خربة وأربع عامرة، وروي مثله في بصائر الدرجات، وعن الإمام الباقر عليه السلام مثله في ذي القرنين.

ويروي الصفار في البصائر عن الإمام الباقر عليه السلام أن صاحبكم يركب الصعب ويرقى في السماوات السبع والأرضين السبع خمس عوامر واثنتان خربتان.

وفي زيارة العاشور «فلقد عظمت بك الرزية وجلت في المؤمنين والمسلمين وفي أهل السماوات وأهل الأرضين أجمعين».

ويروي الصدوق في كتاب التوحيد عن رسول الله ﷺ أن لسائر الأرضين السبع سكنة وقرأ: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وفي البحار عن السرائر بإسناده عن بريدة الأسلمي عنه ﷺ في حديث المعراج: يا علي! إن الله أشهدك معي سبعة مواطن - إلى أن قال - في الموطن الثاني أتاني جبرائيل فأسري بي إلى السماء... فكشط لي عن السماوات السبع والأرضين السبع حتى رأيت سكانها وعمّارها=

وترى أن استعمال «هم» أحياناً في غير ذوي العقول بمحسنات مجازية، يهدم صرح دلالتها على ذوي العقول دون قرينة كما قيل[(١)].

كلّا، وإنها ضابطة لغوية أن «هم» أياً كان لا تعني إلّا ذوي العقول، أو هم مع غيرهم من غير ذوي العقول قضية التغليب، اللهم إلّا بقرينة قاطعة تصرف «هم» عنهم إلى سواهم، ولا نجد هذا الأخير إلّا في ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(٢)] حيث السباحة العاقلة هكذا تسمح إرجاع ضمير العاقل إلى هذه السابحات، إذ تسبح دون فتور ولا اصطدام وأعقل من العقلاء، حيث تسبح بأمر خالق العقلاء!

ثم ونجد الجمع بين العقلاء وسواهم في آيات: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[(٣)] فـ «هم» راجع إلى «دابة» إذ تشمل العقلاء وسواهم، وكذلك «من» في آية النور ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن...﴾[(٤)] مَن.. مَن..»

= وموضع كل ملك منها فلم أر شيئاً من ذلك إلا وقد رأيته كما رأيته.

أقول: ليس السكان والعمار هنالك من الملائكة فإنهم لا يمشون في الأرض: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

وفي البحار (٦ : ٥٠٧) عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام أن جبرائيل احتمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - إلى أن قال في حديث المعراج -.. ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيه خلق كثير يموج بعضهم في بعض، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيه خلق كثير وملائكة.. وفيها الكروبيون.

وفيه عن مثنى بن وليد الخياط عن الصادق عليه السلام قال: في كل من السماوات السبع خلق وبينها خلق، قلت: وكيف الأرض؟ قال: سبع أرضون في خمس منها خلائق وليس في الأخريين.

(١) القائل هو العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان.

(٢) سورة يس، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٤) سورة النور، الآية: ٤٥.

فإن «كل دابة» تشمل الإنسان وسواه من دابة عاقلة وسواها، فليكن موصوله موصول ذوي العقول.

إذاً ففي السماوات دواب عاقلة وسواها وكما في الأرض ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾:

فهل إن هذا الجمع يعني جمعهم يوم الجمع؟ ويوم الجمع لا يخص العقلاء كما تدلنا آية الأنعام ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[١]: كل دابة، ولم يستحقوا هنا ضمير العاقل إلّا لأنهم أمم أمثالنا في الأولى ومن ثم يحشرون يوم الأخرى!

أم يخص الجمع يوم الدنيا في أسفار جوية متقابلة بين عقلاء الأرض والسماء؟ فلأنه جمعٌ بعد البث، وأنه جمعٌ للبعض من المجموعين ليوم الجمع[٢] فليكن في الأولى، أم نجمع بين الجمعين، في الأولى للعقلاء وفي الأخرى لكل دابة.

فقد جمعت هذه الآية على اختصارها ملاحم غيبية من وجود دواب في السماوات كما في الأرض، ولزامها الماء والكلأ والهواء حيث تتبنى حياة الدواب، ومن عقلاء الدواب إنساناً أم من ذا، وإن الله سوف يجمع بين عقلاء السماوات والأرض، هل في تسافر إلى بعض بالسفن الفضائية فيجتمعان بين السماوات والأرض، أم يسبق إنسان الأرض إنسان السماء إلى السماء أم إنسان السماء إلى إنسان الأرض؟ لا ندري!.

وترى الأوامر التشريعية خاصة بأرضنا هذه أم تعم كافة العقلاء المكلفين في أرجاء الكون؟.. في بحث مسبق عن الآية ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾ عرفنا أن الرسالة الإسلامية تشملهم كلهم كما الرسالات

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) حيث الجمع هناك يخص الدابة بل والطير والملائكة وغيرهما من غير الدابة.

التي قبلها، وفيما يروى عن الإمام الرضا عليه السلام «فأما صاحب الأمر فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والوصي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات والأرضين»(١).

وقد يعنيه ما يرويه ابن عباس «سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وإبراهيم كإبراهيم وموسى كموسى وعيسى كعيسى»(٢).

إن وجود الحياة العاقلة وسواها في سائر العوالم قد يكون من الواضح وفي صورة مبهمة قبل أن يدل عليه دليل الوحي أم دليل علمي آخر، فمن البعيد كل البعد انحصار الحياة في هذه الكرة الصغيرة الهزيلة، ثم لا حياة في بليارات من الكرات!.

نظرة ثانية إلى الآية:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ آيات علمه ورحمته وقدرته، وآياته الدالة على أن هذا القرآن نازل بعلمه، وآياته الدالة على وجوده أم ماذا من دلالات بينات:

﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جنس الأرض الشامل لسائر السبع(٣).

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾: أخلقاً ثم بثًّا لما خلق؟ أم بث الخلق أن خلق

---

(١) رواه علي بن إبراهيم القمي عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام حول الآية ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] قلت: نحن على أرض واحدة؟ قال: نعم.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٣٨ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب وفي الأسماء والصفات عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾ [الطلاق: ١٢]:

أقول: راجع ج ٢٨ من الفرقان تفسير الآية ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

(٣) قد يطلق الأرض ويراد بها هذه الأرض بقرينة تصرفها عن جنسها، أو تطلق ويراد بها جنسها الشامل للسبع، كما السماء قد تعني جو الأرض، أو السماء الأولى أو السماوات السبع كلها، كما السماوات تعني السبع.

في كلّ ما خَلَق؟.. إن بثه تعالى يعمهما، وقد يشهد الواقع الملموس عندنا أنه بث الخلق، إذ لم نر خلقاً هنا يصعد إلى السماء! ولكنما الآية بمضيِّها تعني ماضي البث ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ...﴾[١] فضلاً عن أن يلمسوا بث الخلق أم بثاً لما خلق - اللهم إلّا أبا البشر وأمه حيث القرآن يهبطهما إلى الأرض - لا بثهما بعد خلقهما، أو يقال: اسكتوا عما سكت الله عنه، اللّهم إلّا أن كل دابة تحتاج جواً يناسبها، فإنسان الأرض لا يسطع الحياة على القمر أم ماذا، فأحرى بالبث أن تعني هنا بث الخلق.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾:

المصيبة في الأصل هي الرمية التي تصيب الهدف، ثم اختصت بالنائبة، اعتباراً أنها ليست رمية من غير رام، وهذه الآية تختص كل نائبة بما كسبت أيديكم، وإن كانت من عند الله، فإنها من أنفسكم، يرميكم بنصلكم الذي كسبتم، إذاً فهي رمية قاصدة برامٍ عادل وأن الله ليس بظلام للعبيد.

هناك فرق بين الحسنة والسيئة أن الحسنة من الله ومن عند الله، ولكنما السيئة هي من أنفسكم ثم من عند الله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٢] ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ...﴾[٣].

وترى إذا كانت المصيبة الداهية هي بما كسبتها ورمتها أيدي المصابين بها جزاءً بما كسبت، فكيف تلائم كون الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء؟.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.
(٢) سورة التغابن، الآية: ١١.
(٣) سورة النساء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

والجواب: إن الدنيا دار عمل ككل ويجزى فيها أحياناً، والآخرة دار جزاء ككل، ومصائب الدنيا قد تمحو من سيئات أو تحذّر أصحابها من عقوبات ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾(١) أو أنها إصابة استئصال لسيئات موبقات لا تُحمل حيث لا تحملها الحياة الجماهيرية: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾(٢) ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾(٣).

ذلك ولكن الله ليس ليصيب الذين كسبوا السيئات بكل ما كسبوا، فقد ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ هنا حتى يستوفيها في الأخرى، أم ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ إذا اجتنبوا كبائر ما ينهون عنه: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾(٤) ثم الإصابة ببعض ما كسبوا إنذارٌ عليهم كيلا يتورطوا.

وترى هؤلاء المسيئون تصيبهم بعض ما كسبوا فما بال المعصومين يصابون بما لم يكسبوا، وما بال غيرهم من الصالحين يصابون فيما تصاب جماهير بينهم عصاة، أو من يصابون في سبيل الله جرحاً أو قتلاً أو تشريداً أم ماذا؟.

الجواب: أن «كم» في ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ وفي ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ قد تعني الجمع وجاه الجمع، في فتنة ومصيبة ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾(٥) فبما كسبت أيدي الظالمين هم يصابون مع غير الظالمين، أولاء لهم رحمة وهؤلاء عليهم نقمة، فقد أصابتكم مصيبة بما كسبت أيديكم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٥١.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

فليست إذاً داهية ومصيبة من الله دون رامية، فالظالمون يرمون وهم يصابون مع غير الظالمين، فـ «كم» في الرامية أخص من «كم» في المصابين، ثم الذين يصابون في سبيل الله ليس الله ليجرحهم أو يقتلهم بسيئاتهم، وإنما هم يصابون بسيئات الظالمين الصادين عن سبيل الله، فـ «كم» في ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ هم الرامية الظالمون، وفي ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ هم المرميون المظلومون، أولاء لهم ما لهم، وهؤلاء عليهم ما عليهم، فـ «إن الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب»(١) أو يقال إن إصابة البريئين أيضاً هي بما كسبت أيديهم من حسنات، فقد تكسب اليد حسنة يمانعها السيئون، وهذه الممانعة والمطاردة نتيجة طبيعية في هذه الحياة الدنيا، وعلى الذين يصابون مظلومين الدفاع الصارم ما أمكن ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾(٢) والتصبّر على المصيبات في سبيل الله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ...﴾(٣) ﴿... وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(٤) ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٥) ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟

---

(١) نور الثقلين ٤: ٥٨١ ح ٩٨ عن الكافي بإسناده عن علي بن رئاب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية «أرأيت ما أصاب علياً وأهل بيته عليهم السلام من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتوب إلى الله ويستغفر في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب أن الله يخص... وعن قرب الإسناد عن عبد الله بن بكير مثله إلى – من غير ذنب.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

(٥) سورة لقمان، الآية: ١٧.

وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ﴾[(١)] ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ﴾[(٢)] ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾[(٣)].

فقد يصيب الإنسان داهية في جماعة بما رماه البعض منهم، أو تصيبه بما رماه نفسه، أو تصيبه في سبيل الله بما يرميه الصاد عن سبيل الله، وقد تشمل كلها ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ...﴾ على اختلاف درجات الدلالة.

وإنها أرجى آية للمؤمنين الذين يرجون رحمة الله فـ «ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه»[(٤)] فذلك للمخاطبين المؤمنين.

وإنها أنكى آية للذين لا يرجون رحمة الله حيث تنبِّههم ببعض ذنوبهم ويعفو هنا عن كثير ومن ثم العذاب الأليم.

ثم قد لا تشمل الآية المعصومين عليهم السلام [(٥)] أو تشمل بخفاء ﴿وَيَعْفُواْ عَن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٥.

(٤) الدر المنثور ٦: ٩ - أخرج أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم والترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وما أصابكم... وسأفسرها لك يا علي:...

وفيه أخرج جماعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم إلّا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر وأخرج مثله جماعات آخرون.

(٥) نور الثقلين ٤: ٥٨٠ ح ٩٥ في تفسير علي بن إبراهيم قال الصادق عليه السلام: لما دخل علي بن الحسين عليه السلام على يزيد نظر إليه ثم قال له: يا علي! ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، فقال علي بن الحسين عليه السلام كلا! ما هذه فينا نزلت، إنما نزل فينا: ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير =

كَثِيرٍ﴾ بالنسبة لهم إنه يصد كثيراً من كيد الظالمين عليهم فما تصيبهم هي قليلٌ من كثير.

إن إصابات المؤمنين خيرٌ لهم وحَظْوَةٌ، تنبيهاً في الدنيا وعفواً عن كثير في الدارين فـ «ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلّا كان أحلم وأجود وأمجد من أن يعود في عتابه يوم القيامة..»(١)

ومهما يكن من أمر فالمؤمنون المسيئون هم أظهر مصاديق هذه الآية - إذاً فـ «توقوا الذنوب فما من نكبة ولا نقص رزق إلّا بذنب حتى الخدش والكبوة والمصيبة، فما زالت نعمة ولا نضارة عيش إلا بذنوب اجترحوها إن الله ليس بظلام للعبيد، ولو أنهم استقبلوا ذلك بالدعاء والإنابة لما نزلت، ولو أنهم إذا نزلت بهم النقم وزالت عنهم النعم فزعوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصدق من نياتهم ولم يهنوا ولم يسرفوا لأصلح لهم كل فاسد ولردّ عليهم كل صالح»(٢).

وهذه سطوة إلهية على البر والمسيء والفاجر تطهيراً للحياة عما يقضي

= لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا من أمر الدينا ولا نفرح بما أوتينا.

أقول: إنما تحوّل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذه الآية لأنها أوسع دلالة على الإصابات الظالمة غير المستحقة وأما آية ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم...﴾ فلا يبلغ تفهمها مثل يزيد، والرواية (٩٨) دليل شمول الآية لهم بما بينت وبينّا.

(١) نور الثقلين ٤: ٥٨٠ ح ٩٤ في تفسير علي بن إبراهيم عن الأصبغ بن نباته عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: إني سمعته يقول: إني أحدثكم بحديث ينبغي لكل مسلم أن يعيه ثم أقبل علينا فقال:... ثم قال: وقد يبتلي الله عَزَّوَجَلَّ المؤمن بالبلية في بدنه أو ماله أو ولده أو أهله ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم...﴾.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٨٢ ح ١٠١ في كتاب الخصال فيما علم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح المسلم في دينه ودنياه: توقوا...

والمصيبة قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم...﴾ ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤] إذا عاهدتم» فما زلت...

عليها، وسنة إلهية للدعاة إلى الله تصبّراً على ما يصيبهم في سبيل الله، فالإصابات إذاً هي خيرات وألطاف خفية إلهية تصلح الحياة[1] ولا رادَّ لها إلا الله:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾:

لا أنتم: أهل الأرض بمعجزين الله في الأرض في تخلفاتكم عن حكم الله، حيث لا تضر إلّا أنفسكم دون مسّ من كرامة الألوهية، ولا أنتم بمعجزين الله إذ يصيبكم ببعض ذنوبكم، وما لكم من دون الله من ولي يلي أموركم ولا نصير ينصركم وجاه الإصابة الإلهية، فأين يذهب هذا الذليل الحقير إلّا أن يلتجي إلى الولي النصير!.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾:

إن الجوار المنشآت في البحر كالأعلام من آياته، فإنها له: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾[2] [3].

والجواري جمع الجارية ومنها ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[4] ومنها الجارية في البحر المحيط: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾[5]

(١) المصدر ح (١٠٥) عن أصول الكافي عن أبي السامة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: تعوذوا من سطوات الله بالليل والنهار قال: قلت وما سطوات اللّه؟ قال: الأخذ على المعاصي وح ١٠٤ عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من نكبة تصيب العبد إلا بذنب وما يعفو الله أكثر وعنه (١٠٦) قال: إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٤.

(٣) راجع تفسير الآية في ٢٧ :من الفرقان ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ. . .﴾ [الرَّحمٰن: ٢٤].

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٥) سورة الحاقة، الآية: ١١.

ومنها الكواكب الجارية في الفضاء أم ماذا: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾[١] ومنها الطائرات الجارية في خضمّ البحر السماوي ومنها ما لا نعلمها..

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ هنا ﴿ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الماء - لا الفضاء ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ فإنَّ سكن الريح إنما يركد جواري البحر دون الفضاء، فإنه يساعد على جريها كما يراد دون التطام بصدامها.

إن لجريان الريح دخلاً حيوياً في جريان الجوار في البحر، إن يشأ الله يسكن الريح فيظللن الجواري على ظهر البحر رواكد لا تجري، فماذا يصنع الإنسان الضعيف إذاً على ظهر البحر؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ آية القدرة الإلهية في الريح وحراكه برحمته، وسكونه بنقمته، فليصبر الساكن نظرة الرحمة، وليشكر الجاري لواقع الرحمة.

وترى أن القرآن يواجه فقط المكلفين زمن الجواري التي تجري بالريح، حتى ينذر بسكونه ركودها على ظهر البحر؟.. كلّا! وإنما يأتي بعامل حراكها الطبيعي الذي لا صنع للإنسان فيه، وقد يأتي بما يشمله وسواه مما كان أو هو كائن أم سوف يكون: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] فالفلك تجري بأمر الله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾[٣] ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[٤] وبنعمته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٥].

فليست الريح - فقط - من نعمة الله، بل الكون كله من نعمة الله،

(١) سورة الذاريات، الآية: ٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٦٦.
(٥) سورة لقمان، الآية: ٣١.

فلجري الجواري في البحر نعم سابقة وعلى مر الزمن: (الريح) ونعم سابغة بعدها من بترول أم ماذا، وقد تشمله الآيات لكل صبار شكور، حيث التصبر في محاولة دائبة لاستكشاف نعم إلهية ينتج طاقات أخرى للسفن الجارية.

ثم قد تشمله ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ حيث الإيباق: الإهلاك، ليس من مخلّفات سكون الريح فركودها على ظهره أو يقل وعلى فرض بعيد، وهو كائن في نفاد سائر الطاقات التي يخترعها الإنسان لجريها أم ماذا؟ من غرقها في خِضمّ البحر الملتطم، بريح عاصف، أم تصارعها في عراك الريح دون بترول ولا وسائل أخرى تهديها بها الرياح أم ماذا من أسباب الهلاك ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ المهلكون أم سواهم ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ مما كسبوا دون تعجيل، وإنما تأجيلاً إلى يوم الحساب، أم عفواً للذين يستحقونه فلهم محيص عن كثير ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾:

ثم ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كما نجدها في أربع[1] كيف يقترن فيها صبار بشكور؟ إن الصبر هو على الابتلاء، والشكر على النعماء، وهما قوام النفس المؤمنة المطمئنة في الضراء والسراء، تصبُّر في محنة البحر أم ماذا نظرة النعمة، ويشكر في نعمته مخافة النقمة.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

آيات أربع - هذه والثلاث التي بعدها، تحمل صفات عشر للصالحين، من إيمان وهو الركيزة الأصيلة - والأولى و﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ هي الأخرى، وبينهما متوسطات ثمان ومن أهمها سابعها: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾!.

(١) كما هنا وفي لقمان (٣١) وابراهيم (٥) وسبأ (١٩).

فهنا إيمان بالرب وتوكّل على الرب يحفظان الإنسان في معترك الحياة الدنيا بمتاعها، فهنا التوكل على الله بعد الإيمان بالله هو للإبقاء على الإيمان والاستزادة فيه.

وكيف نعلم ما لنا عند الله؟ قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يعلم ما له عند الله فليعلم ما لله عنده»(١).

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ تشمل كل شيء لنا: من أنفسنا وما أوتيت، في ذواتنا، أم منفصلة عنها مربوطة بها حيث تملكها(٢)، كل ذلك ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ترى وماذا تعني «متاع» و﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهل لهما صلة بالحياة الأخرى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ فلتؤخذ ذريعة للوصول إليها، أم هما تطاردانها فتطردان فلماذا أوتينا إياهما؟.

المتاع هو كل ما ينتفع به ويتمتع على وجهٍ مّا، أما بنفسه ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(٣) فهو إذاً متاع الغرور: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا

---

(١) نور الثقلين ٤: ٥٨٣ ح ١١٠ في محاسن البرقي عنه عن الحسين بن يزيد النوفلي عن إسماعيل ابن زياد السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله ﷺ:..

(٢) إن قال قائل إن المخاطبين في ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ هم المؤتى لهم فما يؤتى لهم هو غيرهم ضرورة اختلاف المؤتى والمؤتى له، وأن الإيتاء بحاجة طبيعية إلى المؤتى له؟

فالجواب: إن المخاطب في الإيتاء التكويني لا يجب له كون قبل الإيتاء كما في سائر التكوين ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فقوله فعله وهو كلمة التكوين، حيث التكوين قد يعني إيجاد ما لم يكن، أو تحويل الكائن إلى حالة أو ماهية أخرى، ولا يتعلق بالمستحيل ذاتياً ومصلحياً، حيث الأول ليس شيئاً والثاني شيء لإمكانية وجوده ذاتياً واستحالته مصلحياً، فالشيء المتعلّق للتكوين والقدرة الإلهية قد يكون كائناً فتكوينه تحويله، وهذا هو الشيء الحقيقي، وقد يمكن تكوينه ذاتياً ومصلحيا فهو شيء باعتبار ما يؤول، وهو المعني في الآية التكوين ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا...﴾ أي أراد تكوينه، وكذلك المعنى في آية الإيتاء ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ...﴾ [الشورى: ٣٦] فمن المؤتى هم المخاطبون ومنه ما لهم من نعم أنفسية وآفاقية، ثم المستحيل الذاتي ليس شيئاً حتى يتعلق به القدرة والله على كل شيء قدير، والمستحيل لا شيء.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾(١) فالمغترون به باغون على أنفسهم: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾(٢).

أم هو متاع للمعاملة المزايدة تجارة رابحة لن تبور: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٣) قليلٌ يجزى به كثير ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾(٤) ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾(٥).

والحياة الدنيا قد تعني أدنى الحياة العقلية لنا وهي هي دنواً إلينا، أم تعني الأفعل من الدانية الرذيلة وهي هي لمن أبصر إليها وأخلد إلى شهواتها، وقد تعنيهما كما هنا ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ﴾ بمعنييه ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ كذلك الأمر، نتمتع بها مبصرين بها نتذرعها إلى ما ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإنه ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ فإذا كان متاع الحياة الدنيا باقياً بقاء عمرك، أم بقاء الدنيا، فما عند الله أبقى، وإذا كان فيه خير فما عند الله خير منه حين تتذرعه إلى ما عند الله ﴿خَيۡرٞ ... لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فبإيمانهم يجعلونه متاعاً في الآخرة، وبتكلانهم على الله يوفقون في هذه المهمة.

فمهما كان متاع الحياة الدنيا خيراً للمؤمنين المتوكلين على ربهم ف ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ جزاءً عما قدموا من متاع قليل ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾.

وكما الإيمان الصالح ليس إلّا بالله وحده، كذلك التوكل فيه ليس إلّا على الله وحده، كما يوحي به تقديم الجار ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فالإيمان بالرب يقتضي التوكيل في تداومه، أن يكون على الرَّب ولكي ينجح الإيمان ويفلح المؤمن.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ٧٧.

وترى لماذا التوكل على ربهم بعد الإيمان بربهم بدل العمل الصالح الذي هو لزام الإيمان في سائر القرآن؟.

هنا التوكل وليس الاتكال، فالاتكال بعد الإيمان أن يبقى المؤمن صفر اليد عما يقتضيه الإيمان، ولكنما التوكل بعد الإيمان يقتضي تكريس كافة الطاقات للحفاظ على الإيمان وتداومه والاستزادة فيه وتطبيقه، ثم الاستنجاد بالله والتوكل عيه إعانة له على ما يقصر أو يقصّر، إذاً فالتوكل بعد الإيمان هو عمل الإيمان ويزيد.

إنه ليس بعد الإيمان بالرب إلّا التوكل على الرب في عقيدة الإيمان وعمله، ثم تبنى الحياة الإيمانية على اجتناب كبائر الإثم والفواحش.. :

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

إن اجتناب كبائر الإثم والفواحش هو ضمان إلهي في تكفير السيئات: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[(١)] وشرط آخر في هذه السبيل ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فكما الله يغفر السيئات كذلك المؤمنون يغفرون سيئاتهم بعضهم لبعض دون توبة، ويغفرون كبائرهم بعضهم لبعض بتوبة فـ «المؤمن مرآة المؤمن» و«من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة ومن ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا غضب حرم الله جسده على النار»[(٢)] وإنه «خير خلائق الدنيا والآخرة»[(٣)].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٨٣ ح ١١١ في تفسير علي بن إبراهيم القمي في الآية قال أبو جعفر عليه السلام من كظم غيظاً...

(٣) المصدر ح ١١٢ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة: ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة: العفو عمن ظلمك وتصل من قطعك والإحسان إلى من أساء إليك وإعطاء من حرمك وح ١١٣ عن أبي جعفر عليه السلام قال: الندامة على العفو=

والفواحش أفحش وأكبر من كبائر الإثم فاجتنابهما لزام الإيمان والتوكل على الرب.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

بعد الإيمان بالله فالتوكل على الله واجتناب كبائر الإثم والفواحش والغفران إذا ما غضبوا، بعد هذه الخطوات الخمس إلى الله يأتي دور الاستجابة لربهم و.. ألأنهم لم يستجيبوا لربهم وحتى الآن؟ إذاً فما هذا الإيمان بإيمان بما فيه جانبان إيجابيان وسلبيات ثلاث ﴿ءَامَنُوا... يَتَوَكَّلُونَ... يَجْتَنِبُونَ... وَإِذَا مَا غَضِبُوا...﴾؟!.

إن الاستجابة للرب هنا هي المكينة المتينة التي لا عوج لها، فكثير هؤلاء الذين يؤمنون وعلى ربهم يتوكلون، وكبائر الإثم والفواحش يجتنبون وإذا ما غضبوا هم يغفرون، ولكنهم بعد لم يستجيبوا بكيانهم ككل لربهم، إلّا أن يستجيبوا حقاً تداوماً لما استجابوا: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(١) ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ...﴾(٢) استجابة لا تقف لحد العقيدة ومظاهر من الأعمال الإيمانية وإنما التي تحيي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٣).

= أفضل واليسر من الندامة على العقوبة وح ١١٤ عن سيف بن عميرة حدثني من سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه وح ١١٥ عن علي بن الحسين عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أحب السبيل إلى الله عزّ وجلّ جرعتان: جرعة غيظ تردها بحلم وجرعة مصيبة تردها بصبر وح ١١٦ عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه».

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٨.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

هنا على محور الاستجابة لربهم يأتي دور إقام الصلاة أولاً كصِلة عريقة بين المستجيب وربه، ثم أمر جماعي لصالح المسلمين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ حفاظاً على كيانهم، ومن ثم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في كلتا الصلتين الإلهية والبشرية، تكريساً لكافة الإمكانيات.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

آية لا ثانية لها في القرآن كله إلّا ما تأمر الرسول أن يشاورهم في الأمـر: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١] فهذه في شورى الرسول معهم وتلك في شوراهم فيما بينهم وأين شورى من شورى؟!.

ليست مشاورة الرسول إياهم في الأمر إلا تشجيعاً لهم وتدريباً لحاجتهم إليه كمعلم يشاوِر، لا حاجة منه إليهم فإنه كرسول وحي كلّه فكيف يشاور غيره فيتبعهم؟

ونص الآية ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ يرجع الأمر إليه في النهاية كما البداية»[٢] وكما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) نور الثقلين ١: ٤٠٥ ح ٤١٤ في تفسير العياشي أحمد بن محمد عن علي بن مهزيار قال: كتب إلي أبو جعفر عليه السلام أن سل فلاناً أن يشير علي ويتخير لنفسه فهو يعلم ما يجوز في بلده وكيف يعامل السلاطين فإن المشورة مباركة قال الله لنبيه في محكم كتابه ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...﴾ فإن كان ما يقول مما يجوز كنت أصوّب رأيه وإن كان غير ذلك رجوت أن أضعه على الطريق الواضح إن شاء الله ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...﴾ يعني الاستخارة.

وفي النسائي قسامة ٤٠ «إن النبي استشار الناس» وفي حم ٣ - ٢٤٣ «استشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الأسارى يوم بدر» أقول: ولا تعني استشارته إياهم إلا ما تعنيه إستشارة الله إياه صلى الله عليه وآله وسلم كما في حم ٣٩٣ / ٥ : «إن ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي».

وفي سنن الترمذي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا كانت أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير من بطنها.

وفي الوسائل ٨: ٢٢٤ عنه صلى الله عليه وآله وسلم استرشدوا العاقل ولا تعصوه فتندموا، وفيه عنه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا =

قال ﷺ حين نزلت هذه الآية: «أما إن الله ورسوله الغنيان عنها ولكن جعلها الله رحمة لأمتي من استشار منهم لم يعدم رشداً ومن تركها لم يعدم غياً»(١).

إن الرسول يحكم بين الناس بما أراه الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾(٢) ولا يعني الحكم بينهم - فقط - أحكام العبادات والعلاقات الشخصية وإن كان يشملها، ولكن ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ تلمح أو تصرح بالأحكام الجماعية، سياسية

= سئل عن الحزم ما هو؟ قال ﷺ مشاورة ذوي الرأي واتّباعهم. وفيه ٨: ٤٠٩ عنه ﷺ لا مظاهرة أوثق من المشاورة ولا عقل كالتدبير.

وفي النهج الخطبة ٢١٤ عن الإمام علي عليه السلام فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل.

وفي الوسائل ٨: ٤٢٩ في وصيته عليه السلام إلى ابنه محمد بن الحنفية: اضمم آراء الرجال بعضها إلى بعض ثم اختر أقربها من الصواب وأبعدها من الارتياب قد خاطر بنفسه من استغنى برأيه ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ.

وعنه عليه السلام واستشر العاقل من الرجال الورع فإنه لا يأمر إلا بخير وإياك والخلاف فإن في مخالفة الورع العاقل مفسدة في الدين والدنيا.

وعن الإمام زين العابدين في الحقوق الخمسين: وأما حق المستشير فإن حضرك له وجه رأي جهدت له في النصيحة وأشرت عليه بما تعلم أنك لو كنت مكانه عملت به وذلك ليكن منك في رحمة ولين فإن اللين يؤنس الوحشة وإن الغلظة يوحش موضع الأنس وإن لم يحضرك له رأي عرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه وأرشدته إليه فكنت تأله خيراً ولم تدخر نصحاً ولا حول ولا قوة إلا بالله وأما حق المشير عليك فلا تتهمه فيما وافقك عليه من رأيه إذا أشار عليك فإنما هي الآراء ويصرف الناس فيها واختلافهم فكن في رأيه بالخيار إذ اتهمت رأيه فأما تهمته فلا تجوز لك إذا كان عندك ممن يستحق المشاورة ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه وحسن رأيه وحسن وجه مشورته فإذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك بالشكر والإرصاد بالمكافأة في مثلها إن فزع إليك ولا قوة إلا بالله، الوسائل ٨: ٤٢٦

وعنه ﷺ ما يستغني رجل من مشورة ومن أراد امراً فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الأمور

وفي النهج باب الحكم الرقم ٣٢١ قال وقد أشار ابن عباس على الإمام علي ما لم يوافق رأيه: لك أن تشير علي وأرى فإن عصيتك فأطعني.

(١) كتاب الشورى بين النظرية والتطبيق ص ٣٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

أمّاذا، إذاً فأحكامه بين الناس كلها مما أراه الله، فهل هو بعد بحاجة إلى ما أراه الناس؟.

كل ما يقوله الرسول أو يفعله وحي يوحى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[١] وإذا كانت صناعة فلك نوح بأعين الوحي وفيها نجاة الأبدان، أفليست إذاً صناعة الأمة الإسلامية بقيادة حكيمة بأعين الوحي وفيها نجاة الأبدان والأرواح: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[٢].

وكيف يتبع الرسول رأي الشورى تاركاً رأي الوحي و﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ...﴾[٣] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤].

ثم وكيف يكون للمؤمنين التقدم بين يدي الله ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٥] ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٦] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[٧].

ثم وما هي المصلحة في إرجاع أمر المسلمين إلى الشورى وبينهم الرسول والوحي متواتر يقضي كل حاجة، فلماذا يكلّف حامل الوحي أن يستوحي المؤمنين في الأمر، هل في أمر الرسالة؟ وهو وحي يوحى! أم أمر المرسل إليهم؟ ويكفيهم أمر الرسالة! أو أمر الأحكام فـ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٨] أم أمر القيادة السياسية وهو مما أراه الله!.

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.
(٥) سورة الحجرات، الآية: ١.
(٦) سورة القصص، الآية: ٦٨.
(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

فلا شورى يتخذ الرسول رأيها وإنما تشير الشورى لمن بعد الرسول والوحي منقطع كما يروى عن علي عليه السلام: قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء؟ قال: اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد»[١]. فهنا جمع للعابد من الأمة، أن يجعلوا أمرهم شورى بينهم، شورى جماهيرية تجمع العابد من أمة الإسلام لكي يتشاوروا في المشكوك حكمه، ولا يعني العابد القشريّ المتقشّف، وإنما الذي يعيش عبادة الله وطاعته، ويتبنّى شرعة الله في حياته علمياً وعقائدياً وأخلاقياً وعملياً أم ماذا.

فليس كل مسلم أهلاً للشورى في الأحكام شرعية أو سياسية، وإنما الواجب على الجماعة المسلمة انتخاب النخبة العابدة ولكي يتشاوروا فيما يحتارون من أمر الأمة.

ثم ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ يبحث عنها في أمرين: «هم» و«أمرهم» أما «هم، فهم المؤمنون أجمع بسند الإيمان، وشورى بينهم هو أوضح سبل الإيمان، فلا يعني إلّا أمر الإيمان.

وأما «أمرهم» فهل تعني شيئهم فإنه من معانيه؟ ولا محصّل له شيئاً أياً كان!

أم «أمرهم» وجاه نهيهم؟ وليس إلّا لأولي الأمر، ولا يختص أمرهم بالأمر فإنه يعم النهي والأمر! وليس فيه شورى.

أم «أمرهم» في ولاية الأمر؟ وهو تضييق لأمرهم دون دليل، مهما كان من أمرهم وأهمه!.

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٠ - أخرج الخطيب في رواة مالك عن علي رضي الله عنه قال: . . . أقول: هنا الرسول ناظر إلى مجموعة المسلمين حيث ليس بينهم واحد من المعصومين، فليس يشمل واجب الشورى بين العابدين من أمة الإسلام زمن الأئمة المعصومين كما لا يشمل زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

أم «أمرهم» هو فعلهم في جانحة وجارحة، شخصية أم جماعية؟ وليس كل فعلهم بحاجة إلى شورى بينهم! فمنه الواضح الذي لا غبار عليه، ومنه ما يتضح بتأمل دون حاجة إلى شورى، ومنه ما لن يتضح على أية حال، ولا مجال في هذه الثلاث للشورى.

ثم ومنه الغامض المختلف فيه بينهم، من أمور شخصية أم جماعية، سياسية، وسواها، فلأن المؤمن غير المعصوم - أياً كان - ليس مطلقاً في العلم والعرفان فليستعن بالشورى الصالحة، ومن أهم الأمور الإيمانية انتخاب النخبة الصالحة لقيادة الأمة في كل مجالاتها، ومنها أحكام القيادة المختلف فيها، سواء السياسية منها والأحكامية، فإنهما من أصدق مصاديق «أمرهم» حيث يتطلبان ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فلا أمر لهم هكذا إلّا شورى بينهم، كما هو قضية الحصر في ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فالأمر الذي يمضي دون شورى ليس إلّا إمراً وغيّاً!.

و«الشورى» من شار العسل: استخرجه من الوقبة واجتناه، وأشرني على العسل أعنّي، والمشور: عود يكون مع مستشار العسل، فحصالة الشورى الإسلامية هي العسالة المستخرجة من وقبة آراء النخبة الصالحة.

وترى الشورى مصدر الشَّور، مثل الرُّجعى؟ أو هو الأمر الذي يتشاور فيه اسماً لمادة الشَّور؟ أم هي فعلى من الأشور صفة للمراجعة أو الحوار، فـ «أمرهم - حوار - شورى» يستشيرون بعضهم البعض ممن له رأي في حوار متواصل شورى كأفضل وأحوط ما يكون، ولكي يتّبع من الأقوال أحسنها: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾[1] إذاً فأمرهم لا يتخطى ﴿شُورَىٰ

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.

بَيْنَهُمْ﴾ أن يستبد أحدهم بِرهانه، أو يستقل ببرهانه، وإنما الشورى والشورى فقط هي سبيل المؤمنين في معتركات الآراء الحيوية.

ترى وما هو أمرهم الشورى؟ هل هي الأمور الشخصية، أو الجماعية، أم هما؟ قد تعنيهما «أمرهم» حيث تعني الجميع والمجموع، وهي لمكان «هم.. بينهم» نص في المجموع ظاهر في الجميع.

وما هو «أمرهم» حيث يتطلَّب إيمانُهم أن يكون شورى بينهم؟ إنه ولاية أمر السياسة والديانة! حيث الأمر منه الإمارة، ومنه فعلهم، وطبعاً لا كل فعلهم وإنما المشكوك صوابه ونجاحه، يزيحون شكه بشورى بينهم حيث يتبناها العلم والإيمان على ضوء القرآن والسنة، فليس كل أمرهم شورى، فمنه ضروري الصواب لا يحتاج إلى شورى، وإنما أمرهم المشكوك صوابه بعد الإياس عن الحصول على صوابه من مصادره، هذا الأمر شورى بينهم.

فالشورى إذاً سبيل المؤمنين ومن أفضلها فيما لا سبيل إليه قاطعاً - لتبين الحق، لا سيما في الأمور الجماعية الإسلامية - إلّا بالشورى الصالحة، سواء أكان أمر الولاية الإسلامية من المرجعية الدينية والسياسية ومن سائر الأمور، ومن أهمها أمر الفتوى في معترك آراء الفقهاء، فعليهم إزالة المفاصلات أو تقليلها بالشورى بين الرعيل الأعلى منهم، ولكي يحصل على الوحدة بينهم، أو يؤخذ برأي الأكثر منهم، فاتّباعه هو اتباع الأحسن.

هذا النص على مكيته يتبنى حياة جماعية متراصة في دولة كريمة إسلامية تدير شؤونها الشوراءات الصالحة بين من لهم آراء صالحة، لكل حقلٍ أهله ولكلّ أهل حقله، أن يجعلوا أمرهم في حوار بالتي هي أحسن لكي يستخرجوا رأياً صائباً ثاقباً ليس فيه خطأ أو يقل.

ولكي يتأدبوا بأدب الشورى ويتدربوا فيها يؤمر الرسول ﷺ على

عصمته ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[(١)] تدريباً لهم فيما عليهم كسبيل دائبة لا حول عنها والرسول فيهم، فكيف إذا غاب عنهم وذووه المعصومون، فهم إذاً بأمس الحاجة إلى الشورى.

والروايات القائلة إن الرسول ﷺ شاورهم في بعض الأمور فترك رأيه إلى آراء الأكثرية أمّاهيه، إنها مخالفة لعقلية الوحي الحافلة لكل المصالح الجماهيرية، الكافلة لحاجيات الأمة ومطاليبهم كما تخالف نصوصاً من الكتاب والسنة.

و﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ تصبغ الحياة الإسلامية بهذه الصبغة المتكاملة المتكافلة لصالح المسلمين، كطابع مبتكر ليس له مثيل، حيث المشاركون في الشورى ليس في كل أمر كل من يشهد الشهادتين، وإنما «العابد من أمتي» على حدّ تعبير الرسول ﷺ لكي يشير فيما يستشار بما عرفه من عقلية إسلامية أم ماذا.

فالشورى طابع ذاتي للجماعة المؤمنة، وسمة مميزة لهم، وسبيل إيماني يسلكونها في حياتهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[(٢)].

ليس يعني ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ألاّ أمر لهم ولا شغل إلّا شورى، وإنما الأمر الذي فيه يتحيرون، ويتخيرون لصوابه بعد قصور العقليات الفردية ولا سيما في الأمور الجماعية، يتخيرونه ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ استخراجاً لصالح الرأي من وقبة الآراء، كما يستخرج العسل من وقبته فيصبح خالصاً دون خليط، كذلك الأمر في الشورى الصالحة.

والشورى في أمور المسلمين درجات، شورى لصالح الجماعة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٥.

المسلمة، وللدولة الإسلامية، وشورى لصالح الأفراد، وتلك ممتازة عن هذه وأهم منها أهمية الجماعة على الفرد، وفي القسمين لا شورى في الضروريات المتفق عليها، وإنما فيما تختلف فيه الفتيا لاختلاف الاستنباطات عن أدلتها، أحكاماً شرعية أم سياسية، أصلية أم في شاكلة تطبيقها، فليس الشكل الذي تتم به الشورى مصبوباً في قوالب حديدية لا تتغير، وإنما يترك للصورة الملائمة لكل زمان وبيئة، كما النّظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة.

في الشوراءات الفردية إنما يستشار المؤتمن[(١)] الأخصّائي فيما يستشار، وفي الجماعة إنما يتشاور الجماعة المعنية العارفة بما يُتشاور فيه، ثم يؤخذ بالأكثر رأياً فإنه أحسن قولاً، ولا تعني الأكثرية في الكمية هنا إلّا دعماً للكثرة الكيفية.

فللشورى ضوابط عدة تجمعها «العابد من أمتي» كما في حديث الرسول ﷺ حيث يتبنّى طاعة الله وعبادته في الشورى، أن تكون على خبرة وعقلية وعلم واطلاع وأمانة واضطلاع[(٢)] فـ «لا ظهير

(١) في د - أدب ١١٤ عن النبي ﷺ قال: المستشار مؤتمن وفي المجمع روي عنه ﷺ: ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلى الرشد (٥: ٥٨٤ نور الثقلين).

(٢) وفي الدر المنثور ٦: ١٠ قال رسول الله ﷺ: من أراد أمراً فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الأمور وقال سليمان بن داود عليه السلام لابنه: يا بني! عليك بخشية الله فإنها إعانة كل شيء يا بني لا تقطع امراً حتى توامر مرشداً فإنك إذا فعلت ذلك رشدت عليه، يا بني عليك بالأول فإن الأخير لا يعدله.

وفي سفينة البحار ٧١٨ عن الصادق عليه السلام: لا تستشر السفلة في أمرك وإياك والخلاف فإن خلاف الورع العاقل مفسدة في الدين والدنيا وقيل لرسول الله ﷺ ما الحزم؟ قال: مشاورة ذوي الرأي واتباعهم وعن الصادق عليه السلام ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع وقال: إن المشورة لا تكون إلا بحدودها فمن عرف بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير أكثر من منفعتها له فأولها أن يكون الذي يشاوره عاقلاً، ثانيها أن يكون حراً متديناً، ثالثها أن يكون صديقاً مواخياً، والرابعة أن تطلعه على سرك=

كالمشاورة[١] إذاً، كما أنها تكسر الظهر إذا لم تتوفر فيها شروطها.

وإذا كانت المشورة في أمور شخصية بحاجة إلى هذه الضوابط، ففي الأمور الجماعية أحق وأحرى.

فالشورى في الفتيا الأحكامية تقتضي الرعيل الأعلى من أهل الفتوى حتى يحاوروا في جد واجتهاد وقوة وسداد للحصول على رأي واحد فأحسن، أو أكثرية فحسن، فاتباعها إذاً اتباع للقول الأحسن، فلا يصلح اتباع رأي واحدٍ وإن كان أفضلهم.

كما الشورى في الفتيا السياسية تتطلب ذلك الرعيل من أهلها على ضوء الكتاب والسنة، وهم نواب المجلس النيابي للشورى الإسلامية.

وبما أن الزمالة بين الدين والسياسة عريقة جوهرية أم هو هي وهي هو، فعلى الرعيل الأول أن يكونوا ساسة وإن لم يصبحوا بتلك المثابة، وإن كان الأخصائيون في السياسة الإسلامية لهم الأولوية من الأخصائيين في الفتيا الأحكامية، فيحكم - إذاً - الفقهاء فقهياً والساسة سياسياً على رعاية الفقهاء الأحكامية فـ «العلماء حكام على الملوك والملوك حكام على الناس» وكما نرى في طالوت إذ بعثه الله ملكاً على بني إسرائيل لقيادة الحرب على رعاية نبي لهم.

ترى ومن ذا الذي يعرفهم فيعرِّفهم للجماعة المسلمة، من أولاء وهؤلاء حيث يجمعها «العابد من أمتي»؟ طبعاً إنهم العارفون من المسلمين في كل

= فيكون علمه به كعلمك بنفسك ثم يستر ذلك ويكتمه فإنه إذا كان عاقلاً انتفعت بمشورته وإذا كان حراً متديناً جهد نفسه في النصيحة لك، وإذا كان صديقاً مواخياً كتم سرك إذا أطلعته عليه وإذا أطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك تمت المشورة وكملت النصيحة.

(١) نهج البلاغة ح ٥٤ وفي ح ١١٣ لا ظهير أوثق من المشاورة.

من الحقلين «اجمعوا له العابد من أمتي» وكيف يجمعون؟ طبعاً بالشورى بينهم «واجعلوه»: هذا الجمع «بينكم شورى» والمخاطبون - بطبيعة الحال - هم العارفون ميزانية العلم والتقوى في الرعيلين على اختلاف مراتبهم.

إن معرفة التقوى السياسية والتقيّ السياسي لا تتطلب أكثر من لمس للسياسة الإسلامية وإخلاص إيماني ممن ينتخبونه، فنواب المسلمين فمجلس الشورى الإسلامية هم نخبة سياسة إسلامية، يجعل المسلمون ككل أمرهم شورى بينهم، ثم هم يجعلون أمور المسلمين شورى بينهم.

ولكن معرفة التقوى العلمية بحاجة إلى ارتحال مراحل من علم الدين يميز بها الغث عن السمين، فالرعيل الأعلى من أهل الفتوى هم نخبة ينتجها أهلوها أم أهل العلم أجمع.

هذان من أهم الأمور الإسلامية التي يجب أن تحصل بالشورى الصالحة، حيث يتبنّيان الخلافة الإسلامية في حقلي الفتوى والسياسة فتديران أمور الدولة الإسلامية وتدبّرانها.

ثم المسؤوليات الجماعية الأخرى في هذه الدولة المباركة أيضاً تكون ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لكل حقل أهل، فوزير الصحة لا ينتخبه إلّا الأطباء المسلمون العارفون بشؤون الصحة ومتطلبات الوزارة فيها، كما وزير التربية والمالية والدفاع أم من ذا؟ فلكلٍّ شورى خاصة تصلح لانتخاب نخبتها للحصول على بلغتها دون هرج مرج لا يدري أيٌّ من أين.

ولماذا الشورى والشورى فقط تتبنّى أمرهم، وفيهم الأعاظم من فقهائهم وهم خلفاء الرسول والأئمة من عترته عليهم السلام، فبأيديهم إذاً أزمة الأمور؟.

هناك في حل الأمور أبعاد أربعة: ١ - الوحي الرسالي، وهو مختص بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ٢ - العلم الرسالي وهو خاص بأئمة أهل البيت عليهم السلام،

٣ - وحي الشورى في الرعيل الأعلى من الخلفاء العامين للرسول والأئمة،
٤ - الفتاوى الخاصة لكلٍّ من هؤلاء.

نحن نعيش زمن انقطاع الوحي وخلافة العصمة، فهل نأخذ بفتوى واحد من ذلك الرعيل: الأعلم الأورع الأتقى الأشجع الأبصر أم من ذا؟ والتعرّف إلى شخصية هكذا غير يسير، وقد يكون من المستحيل، أولاً تجتمع عليها الآراء، وبذلك تنفصم عرى الوحدة الإسلامية، وإذا عُرِفت وتوحدت الكلمة في اتباعها، فلا يخلو هذا العبقري من أخطاء، وعلينا أن نزيلها أو نقللها بالشورى، حيث الطاقات المتداخلة المتشاورة أقرب إلى الصواب، وهي أحسن قولاً، كما وتوحّد القيادة الروحية السياسية في أهل الشورى، حيث البعد الثاني فيها هو الأخذ بالأكثر، فعلى المسلمين أجمع اتّباعه، وإن كانت القلة من أهلها لا يتبعونها إلّا في الأحكام الجماعية السياسية أم ماذا؟.

فكل أمر ينزل بالمسلمين بعد زمن الوحي وزمن حملة الوحي، ما لم ينزل فيه قرآن في نصه، ولم يسمع من الرسول بخصوصه، فليجمع المسلمون العابد من أمة الإسلام بشورى عامة، حتى يحل العباد المنتخبون مشكلة هذا الأمر بـ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: حيث تقرّبهم إلى الحق زلفى، وتنوب مناب عقلية العصمة شيئاً كثيراً.

ولأن ضمير الجمع في ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ راجع إلى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾. . . فإنما الشورى الصالحة لأمرهم بين من يحمل هذه المواصفات الخمس، وهم النخبة الصالحة من شورى الأمة الصالحة، ثم وهؤلاء الأكارم ينتخبون فيما بينهم الرعيل الأعلى من فقهاء الأمة، الأحسن رأياً وقولاً حيث هم أفضل فقهاً وعدلاً وفضلاً. ثم وهؤلاء ينتخبون

فيما بينهم رئيس الشورى وقائد الأمة، شورى ثالثة هي سلالة الأخريين، ثم هناك الشوراءات المتواصلة على رعاية القائد المنتخب لتقرير مسير الأمة ومصيرها أحكامياً وسياسياً دون أن يستبد القائد برهان القيادة لفقدان العصمة.

ولا موقع للأكثرية في ميزان الحق، إلّا الأكثرية بين الأقلية الصالحة. فإن ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] و﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾[2] و﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾[4] و﴿يَجْهَلُونَ﴾[5] ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾[6] ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[7] ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾[8] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[9] ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[10] ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[11] ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾[12].

إذاً فالشورى الصالحة ليست إلّا بين الأقلية الصالحة العالمة الشاكرة العاقلة المؤمنة المتبعة علماً العادلة المحبة للحق الهادية المتعهدة، ويجمعها الفقيه الزاهد البصير الخبير.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إنفاقاً في هذه السبيل وكل سبل الله، إنفاقاً لعقلياتهم وتجريباتهم، أفكارهم وعلومهم، أموالهم وكل ما يملكون من طاقات ذاتية أو منفصلة، ولكي يحلّوا مشاكلهم التي لا حِوَل عنها ولا مرجع معصوماً لها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.
(٣) سورة هود، الآية: ١٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٦) سورة يونس، الآية: ٣٦.
(٧) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.
(٩) سورة الزخرف، الآية: ٧٨.
(١٠) سورة الإسراء، الآية: ٨٩.
(١١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(١٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.

إن مكية آية الشورى - ولم تكن هناك دولة إسلامية ولم تخلد بخلد أحد إلا الرسول - وإن المسلمين يعيشون الرسول. وحصر أمرهم في ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ - تدلنا على مدى أهمية الشورى، حيث تعم الحيوية الإسلامية في كل عصر ومصر، ومهما كان في غنى عنها زمن قيادة العصمة، ولكن عليهم التدرب فيها فقد نرى الشورى في شاكلتها ونتاجها في أبعاد أربعة:

١ - يستشير المحتار ذا رأي صائب لكي يحصل على الرأي المختار دون خطاءٍ كما يُستشار المعصوم[(١)]، أو قليل الخطاء كما يستشار غيره.

٢ - يشاور المعصوم غيره ليدله على خطئه ويرشده إلى صوابه، ويبتليه كيف يفكر وكيف يحصل على الحق، ولكي تصبح الشورى سنة دائبة للمسلمين، وعقلية منفصلة لهم تساعد عقلياتهم الذاتية، ولكي تنبع فكرتهم فتنبغ بالتقاء الآراء واصطكاكها، كما أمر الرسول ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ولا رأي مطاعاً فيها إلا رأيه وعزمه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[(٢)].

٣ - يتشاور من هم على سواء أو كاد، ولكي تجتمع عقلياتهم على ركيزة واحدة، إزالة لأخطاء وخلافات، فتوحيداً للرأي أم تقريباً للآراء، وأخيراً إذا بقي اختلاف أخذاً بأكثرية الآراء، حين تدل على أقربية الرأي إلى الحق، فلا مكانة للعدّة إلّا إذا دلت على عُدَّة، ولا نفضل الأكثر عِدَّة هناً إلّا لدلالته على الأكثر عُدةً، فإذا تساوى الفريقان عِدّة نفضّل الأقوى رأياً وهو الذي فيه الأقوى رأياً، وحتى إذا اختلفا عِدةً قد نفضل الأقل لو كان فيه

---

(١) تفسير البرهان ٤: ١٢٨ علي بن إبراهيم القمي قال قال في إقامة الإمام ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أي يقبلون ما أمروا به ويشاورون الإمام فيما يحتاجون إليه في أمر دينهم كما قال الله ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النّساء: ٨٣].

أقول: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لو خص بشورى الإمام كان حق التعبير وأمرهم أن يشاوروا.. ولكنها لشمولها كافة الشوراءات الأربع فالجامع بينها هو ﴿بَيْنَهُمْ﴾.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الأعلم الأعقل، وهكذا نتابع القول الأحسن، وفي الأكثر هو مع الأكثر حيث المتشاورون أضراب.

٤ - يتشاور من ليسوا على سواء، ليفيد الأقوى من دونه كما ويستفيد ممن دونه.

والشورى فيما سوى الأولى بحاجة إلى تحضير قبلها، أن يفكِّر أهلوها قبلها فيما يتشاورون، ثم بالشورى يتفاوضون ويستنجدون.

وحصالة البحث في حقل الشورى أنها سبيل دائبة هي لزام الإيمان فيما لم يتبين رشده بوحي أم سواه، من أحكام شرعية أم سياسية، ومن انتخاب النخبة في كل حقل، يتبنّى في كل ذلك العقلية الإسلامية في كاملها بكافة الجهات، ولكي يحصل بالشورات الإسلامية ركامات من العقليات المجتناة من وقباتها، من عسيلات الآراء حيث تستخلص من مزيجات لا تصلح.

فلا شورى في انتخاب الرسول ﷺ والأئمة بعد الرسول حيث الانتصاب بوحي الله يغني عن الانتخاب، ولا في الأحكام الضرورية شرعية وسياسية، حيث الشورى ضرورة عند الاضطرار، وإنما الشورى في انتخاب النخبة التي تتشاور فيما تحتار فيه الأمة الإسلامية وهم «العابد من أمتي» ثم هم يتشاورون فيما يصلح الأمة ويخرجها عن الحيرة، حيث يوضّح الحق جماهيرياً ويوحد كلمة المسلمين على القول الأحسن، دون تفرّد واستبداد.

فالشورى تنوب مناب ما نخسره من غياب العصمة، فإنها اجتهاد متراصٌّ دائب يجعل من المسلمين مفكرين متفاوضين في أفكارهم، دون أن يظلوا أجساداً بلا أرواح لا يفكرون ولا يتدبرون.

فكما العصمة في القيادة صالحة ضرورية لتبني أساس الإسلام، كذلك الشورى النائبة عن العصمة حيث تسد عن كل نائبة، هي أيضاً صالحة لاستمرار الحيوية البناءة الإسلامية، غير الجامدة.

فحين ما نخسر قيادة العصمة زمن الغيبة، نربح بديلها استمرارية عصمة الشورى حين تعصمنا عن التمزق والانزلاق، وتقليلاً من أخطاء القيادة غير المعصومة، ثم لا يضر الأمة الإسلامية أخطاءها القليلة وجاه عوائدها الكثيرة، ومن أهمها صراع العقليات الإسلامية وسباقها على ضوء الكتاب والسنة والسياسة حيث تصنع أمة صارمة متكاملة غير جامدة.

وكما نرى القرآن المبين - على بيانه النور المتين - يحرّضنا على التدبر في آياته، ولكي نستنبط من خفياته، سبراً لأغواره، ولكي نحصل بكل جد واجتهاد، على ما أسرّه، دون أن يوضّح لنا كل شيء وضح النهار، كيلا تبطل عقولنا، أو تجمد أفكارنا، بل نكون دائبين في التدبر والتفكير، ولكي يصنع أمة لها حيويتها البنّاءة، في استقلاليتها وقوامتها، قائمة على سوقها على ضوء القرآن والسنة المحمدية ﷺ.

فعصمة القرآن ثم السنة القاطعة تعصم المسلمين عن التفلّت والانحراف، إذا عاشوا القرآن في شورى دائبة من النخبة العابدة، دونما استبداد واستقلال فاستغلال الكتلة المؤمنة، وإنما الشورى والشورى فقط تكفل تلك الحيوية المجيدة المستغنية عن كل شارد ووارد، حضوراً لمختلف شعوب المسلمين في مصالحهم الجماعية، أخذاً لأزمّتهم بأيديهم، فلا يحكمهم إلّا الله ومن يحكم بحكم الله، فـ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[(١)]!.

فلنكرّس طاقاتنا كلها للشوراءات المتواصلة عبر زمن غيبة القيادة المعصومة، ولكي نقوم على سوقنا ونحيى حياة طيبة سلمية إسلامية، لا استسلامية تقليدية ذليلة.

وترى إذا كانت الشورى هي المرجع زمن الغيبة الكبرى فما هو موقف ولاية الفقيه؟.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

أقول: إن ولي الأمر أيضاً هو منتخب الشورى يرأسها على ضوء الشورى، وهو يلي أمر المسلمين ولاية محددة بها دون استقلال له فيما يرتئيه، فقد يتفق رأي الشورى أو أكثريتها المطلقة على واحدٍ من أهلها، فهو الذي يرأسها، أم يتفقون أو أكثرهم على أكثر من واحد، إذاً فحصيلة الشورى هي شورى الولاية والقيادة.

إنّ ولي الأمر - واحداً أو أكثر - هو الذي يحكم، لكنما الحكم ليس إلّا بالشورى، حيث تجبر الأخطاء الطارئة لشخص أو أشخاص يُولّون أمور المسلمين، دون استقلال لأحد ولا استبداد برأي.

إتباع الأحسن هو سبيل المؤمنين حيث يبشرهم الله ويأمرهم ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾(١).

أترى أن رأي الواحد غير المعصوم أحسن، مهما كان أعلم ممن سواه، أم الأكثرية من الرعيل الأعلى نتيجة الشورى؟ لا ريب أنها الأحسن فاتباعه قضيّة اللب والهداية الإلهية.

أترى إذاً تساووا أعضاء الشورى في فريقين اثنين فأي الفريقين أولى بالاتّباع؟ هنا الأولوية للفريق الذي فيه القائد بميّزة القيادة، وأنه هو الذي ينظر إلى الأصلح بحال الأمة عند تضارب الآراء فعلى المؤمنين - ككل - الشورى العامة لانتخاب النخبة الصالحة لانتخاب أعضاء الشورى، وليكونوا الأمثل بين الأمة والأمثال فيما بينهم للحصول على الرأي الأحسن وليكون في العدد الأكثر عند التضارب دلالة على الأحسن والأقرب إلى الحق.

ثم على هؤلاء انتخاب القائد الرئيسي للشورى، فإن اتفقوا على رأي

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.

وإلّا فالأكثر عدداً، وإلّا فالفريق الذي فيه القائد لأن فيه الرجاحة عند تساوي العدد، وهكذا تسير الشورى مصيرها إلى انتخاب الأحسن فالأحسن لتقليل الأخطاء فالقيادة الأصلح لصالح الأمة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إنفاقاً لكافة الطاقات والإمكانيات الصالحة لهذه القيادة المباركة على ضوء الكتاب والسنة.

وإذا مات منهم واحد أم سقط عن الصلاحية فأمر الانتخاب البديل إلى سائر أعضاء الشورى.

ثم الشورى القيادية بحذافيرها ليست لها الولاية المطلقة على الأمة فلهم أن يخطّئوها، ولا أولوية إلا ترجيحاً لصالح المجتمع على صالح الأفراد إذا تعارضا، كما ولا ولاية لهم على الفقهاء.

وهنا أصلان أصيلان، أصالة الولاية لكل مؤمن بالنسبة للآخرين، بمعنى المحبة والنصرة والمعاضدة، وأصالة عدم الولاية بمعنى الأولوية على النواميس الخمسة إلّا في مقام الضرورة، وهي ضرورة الحكم وفرض القرارات الحاكمة لرئيس الدولة الإسلامية على الجماهير المسلمة ترجيحاً لصالح الجماهير على الأشخاص، وأما الأشخاص على الأشخاص فلا ضرورة ولا ولاية ولا سيما على أشخاص الفقهاء، إشخاصاً لهم عما هم عائشوه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

ليس البغي: التجاوز إلى غيرك - فقط - محظوراً، بل وكذلك التصبّر عليه دون انتصار محظور.

حيث الظلم والانظلام كلاهما من المحظورات في شرعة الله، وهكذا مظلوم هو مع ظالمه في النار.

وترى ألّا تناحر بين صفتي المؤمنين، هذه ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؟

الغضب قد يكون بباطل فالغفر عنده صفة الإيمان، أو يكون بحق حيث بغي عليه، فإنما البغي بغيان، بغي يُعفى أثره إذا غفرت وهو الغفر المصلح: ﴿...فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾(١) وغفر يفسد حيث لا يتحمله المؤمن لإيمانه كأن يفترى عليه وهو يسكت، ظلماً بنفسه، أم سكوتاً عن حقه وحق الغير إذ يسكت، ظلماً ذا بعدين، فالانتصار إذاً من صفات الإيمان، كما الغفر حين يصلح من صفات الإيمان.

آيات ثلاث تأمر بالانتصار بعد الظلم، هذه والتي بعدها: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ...﴾(٢) وفي الشعراء ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(٣) وكما الله ينتصر لهم إلا ابتلاءً ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(٤) ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥).

ويا لها من آية مكية تتبنّى الانتصار في البغي والمؤمنون في مكة ما كانوا يستطيعونه أبداً، فهي ذات دلالة لصفة أساسية في المؤمنين: عدم التصبّر على الظلم والتخاذل أمام الظالم حسب المستطاع، وإن كانت هناك في مكة فترة مقتضية للتصبر، ولكنها متقضّية بعد ردح قصير، ثم المؤمنون لا يتصبرون.

لقد كانت هناك اعتبارات في العهد المكي تقتضي سياسة المسالمة والصبر، مع تقرير الطابع الإسلامي غير الاستسلامي لهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤١.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.
(٤) سورة محمد، الآية: ٤.
(٥) سورة الروم، الآية: ٤٧.

فالانتصار البنّاء، صداً عن تفشي الظلم يتبناه الإسلام كأصل من أصول الحياة الإيمانية، سواء كان البغي عليك أم سواك أم على جمهرة أو جماهير من المسلمين، لأن أنفس المسلمين نفس واحدة بعضها من بعض، فلم يقل «والذي إذا أصابه البغي هو ينتصر» وإنما ﴿أَصَابَهُمُ ... يَنتَصِرُونَ﴾ لتشمل الجميع والمجموعة، أن ينتصر المؤمن لمظلوم غيره كما ينتصر لنفسه، وأن ينتصر الفرد للجماعة كما تنتصر الجماعة للفرد، فالانتصار عند البغي صفة الإيمان جماعات وفرادى.

إن الانتصار لإزالة البغي أو مكافأته ضابطة عامة لكل من بغي عليه، ولكن حسب ما يقتضيه العدل، والعفو خير إن كان في محله وليس العفو المصلح أو الصالح غير المفسد إلّا في البغي على الأشخاص، وأما البغي على الدين أو جموع أهل الدين فلا عفو فيه، وحتى إذا تاب الباغي اللهم فيما أصلح وبيّن أنه بغى، ولا يعني الانتصار عند البغي إلّا صداً عن البغي، ممن بغي عليه ومن تتطاول أيدي البغي عليه لولا الانتصار.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾:

هنالك قضية العدل مماثلة بين سيئة وجزائها في كل شيء، ولا يصلح العفو عن المسيء إلا إذا أصلحه ويصد عن ظلمه، وإذاً ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(١)

(١) الدر المنثور ٦: ١١ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا ليقم من كان له على الله أجر فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا وذلك قوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] وفي نقل آخر زيادة «فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله، وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ينادي مناد يوم القيامة لا يقوم اليوم أحد إلا من له عند الله يد فيقول الخلائق سبحانك بل لك اليد فيقول بلى من عفا في الدنيا بعد قدرة، وبنفس السند عنه ﷺ قال موسى بن عمران عليه السلام: يا رب من أعز عبادك عندك قال من إذا قدر عفا، وأخرج أحمد وأبو داود =

وأما العفو المفسد أن يتجرأ المسيء على ظلمك، أو تتطاول يده على سواك، فهذا العفو ظلم على نفسك وسواك ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكما إذا اعتديت على المسيء أكثر مما أساء، إنه جزاءٌ ظالم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وإنما عدل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾[1] ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾[2] أو فضل: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ دون ظلم مُفرِط أو مُفرِّط.

آية الجزاء ترسم ضابطة عادلة عامة في كافة الموازين، فالمماثلة بين السيئة وجزائها قاعدة لا تستثنى، اللهم إلا عفواً فيما يصلح، أم لا يصلح ولا يفسد، فهما إذاً من الفضل والأفضل، وأما أن تربو جزاء سيئة عليها، فهذه الربوة ظلم من أيّ كان وأيا كان وأيان، إذاً فكيف يفترى على أرحم الراحمين أنه يجازي بعض العصاة دون نهاية في الآخرة، وهل هناك مماثلة بين سيئة محدودة في زمن محدود وأثر محدود من مسيء محدود، وبين سيئة لا محدودة من إله غير محدود؟ وأدنى المماثلة بين سيئة وسيئة مماثلة النهاية في سيئة محدودة في الكيف والأثر وإن لم يكن في الكم والزمن.

= عن أبي هريرة أن رجلاً شتم أبا بكر والنبي ﷺ جالس فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله فغضب النبي ﷺ وقام فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله ﷺ كان يشتمني وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت؟ قال: إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان فلم أكن اقعد مع الشيطان ثم قال: يا أبا بكر نلت من حق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها للّه إلا أعز الله بها نصره وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة.
وفي نور الثقلين ٤: ٥٨٥ ح ١٢٣ - الكافي العدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ عليكم بالعفو فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فتعافوا يعزكم الله و١٢٤ في كتاب الخصال عنه عليه السلام قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل خصال الإيمان من صبر على الظلم وكظم غيظه واحتسب وعفى وغفر كان ممن يدخله الله الجنة بغير حساب ويشفعه في مثل ربيعة ومضر.

(١) سورة غافر، الآية: ٤٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

جزاء سيئة سيئة مثلها عدلاً، وسيئة دونها أو عفو وإصلاح فضلاً ورحمة، فإذا يأمرنا الله تعالى بالعفو عن السيئة إصلاحاً أم جزاءها المثل عدلاً فكيف يجازي هو ظلماً أن يخلّد بسيئات أهلها إلى غير نهاية، وما هذا إلا كذب مفترى ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١)!.

ثم المماثلة بين السيئة والجزاء والسيئة المجازى بها لا تقتضي إلّا اعتداءً بالمثل، وليست هي اعتداء، وأما إذا كانت سيئة بنفسها دونما استثناء فلا، فمن ضربك تضربه كما ضرب مراعياً كمّه وكيفه، وأما من زنى بحليلتك فليست جزاؤه أن تزني بحليلته، وإنما هي الحد المحدد له في الشرع، والضابطة العامة هي أن السيئات المتعدية التي لا حدّ لها في الشرع تجازى بمثلها ممن أسيء إليه، إذا لم يكن الجزاء محرماً، وأما المحرمة كمثل اللواط والزنا والسباب والإضلال أم ماذا فلا، وقد توحي ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ أن السيئة هنا تعني ما تقبل العفو ممن أسيء إليه، فلا تشمل إذاً مثل اللواط والزنا والإضلال، وإن شملت مثل القتل والسباب أم ماذا؟.

فإذا قال لك: أخزاك الله، تقول له مثل قوله: أخزاك الله، وإذا قال لك: أنت فاسق إهانة دون حجة، تقول له: أنت فاسق جزاءً بحجة. . .

وأما إذا قذفك بما يوجب الحد، فليس لك أن تقذفه حيث يوجب الحد، وإنما جزاؤه إلى الله حيث سن حداً للقذف، وكما إذا زنى أو لاط أم أساء سيئة من أضرابهما مما يوجب الحد فجزاؤه إلى الله فيما حدَّد.

فلا تعني مماثلة سيئة سيئة أنك حرٌّ أن تجازى أية سيئة بمثلها، وإنما هي كضابطة، فقد يجوز لك أن تجازي بمثلها، وقد لا يجوز فالله هو الذي يجازي بما سنّ من حد أم ماذا، ومن ثم فهي محددة بما يجوز العفو عنها.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾:

ليس على المنتصر بعد ظلمه من سبيل، سواء أكان انتصاره فرضاً أم راجحاً أم - وعلى أقل تقدير - مسموحاً، حيث الانتقام أو الدفاع وجاه الظالم حق مشروع على أية حال.

قد يكون الإنتصار بعد الظلم من واجبات الإيمان ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ فهنالك الانتصار والانتصار فقط، دون انتظار فإنه احتضار واهتدار، فحين يُظلم القرآن وشرعته ويظلم شعبه ورعيته فالانتصار هنا واجب ذو بعدين، والانظلام والسكوت محرم ذو بعدين و﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١] فـ «حق من أساءك أن تعفو عنه، وإن علمت أن العفو يضر انتصرت»[٢] كما والقائم عليه السلام ينتصر للإسلام[٣].

إن للمظلومين سبيلاً معبَّدة إلى الدفاع ولا سبيل عليهم، والظالمون ما لهم من سبيل وإنما السبيل كل سبيل عليهم لتقطع عنهم سبل الظلم والبغي،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٨٥ عن الخصال ١٢٥ في الحقوق المروية عن علي بن الحسين عليه السلام . . . ثم يستدل بالآية ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

(٣) المصدر ١٢٧ في تفسير القمي بسند عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الآية ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ قال يعني القائم صلوات الله عليه وأصحابه ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] والقائم إذا قام انتصر من بني أمية والمكذبين والنصاب هو وأصحابه وهو قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. . .﴾ [الشورى: ٤٢].
وفي ملحقات الإحقاق ١٤ : ٤٩٣ العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في «الإشاعة في أشراط الساعة ص ٦٩ ط مصر قال: قوله: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ الآية - اشارة إلى الحسين ابن علي عليه السلام وقيامه على يزيد وقتاله على حق إلى أن قتل هو وأهل بيته.

و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الدنيا انتصاراً عليهم من المظلومين، وفي الآخرة من ملجإ المظلومين.

وفيما إذا لم يكن ترك الانتصار والتصبر على الظالم ظلماً، وإنما صنيعة حسنة ومحاولة لتوبة الظالم، أو تخجيله حتى يكف عن ظلمه، هنالك ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

ثم للانتصار مراتب عدة حسب المستطاع أقله «من دعى على من ظلمه فقد انتصر»[١] وأكثره الانتصار بالقتال، وبينهما متوسطات.

ثم من الانتصار شخصي أن تكرّس طاقاتك للذود عن الظلم، ومنه جماعي أن تستعين بمن يعينك، ولكلٍّ مجالٌ حسب ما تقتضيه الحال.

إن الصبر على الظلم والغفر ليس إلّا عند المقدرة على الانتصار والجزاء، حين يشعر ظالمك أنك تصبر وتغفر على قدرة فيستحي، وأما أن تصبر على ظلمه مغلوباً عاجزاً فليس إلّا تخاذلاً، إذاً فانتصر في دفع الظلم.

لا تخلو حال المظلوم أنه أقوى من ظالمه أو أضعف أو هما على سواء، ففي الأولى على الأغلب ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ فإنه عفوٌ على قدرة وهو يصلح، اللهم إلا إذا أفسد، وفي الثانية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ حيث الصبر على الظلم تخاذل وتقوية للظالم اللهم إلا إذا أصلح، والثالثة مورد الآيتين حسب إحدى المصلحتين، وقد يكون الصبر راجحاً غير واجب كما يكون محرماً أو واجباً حسب مختلف الظروف والمقتضيات.

(١) الدر المنثور ٦ : ١١ - أخرج ابن أبي شيبة والترمذي والبزاز وابن مردويه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ من دعا : . . . .

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾:

ولا يضل الله إلّا من ضلّ ظالماً ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[1] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[3] فليس الله ليُضل من لا يَضل فإنه ظلم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[4] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[5].

وليس إضلاله تعالى من ضل دفعاً له إلى ضلال بعد ضلال، وإنما ترك له يستمر في الضلال دون أن يوفقه لترك الضلال حملاً له عليه: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[6] ثم ختم على قلبه جزاءً بما خَتَم حتى إذا أراد أن يهتدي لم يكن له سبيل ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[7]، تركٌ أو ختم ثم لا دفع إلى ضلال.

الله هو الولي يلي أمور عباده، فإذ يترك ولايته لمن يَضل فيُضله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ إذ لا هادي إلا الله.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ وهم بين الموت والحياة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ إلى الحياة الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ لنعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾[8].

ثم ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ إذ يدخلون الجحيم ﴿يَقُولُونَ هَلْ

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٢) سورة غافر، الآية: ٧٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٣٤.
(٤) سورة غافر، الآية: ٣١.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٨) سورة المؤمنون، الآيات: ٩٩-١٠١.

إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(١).

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ الظالمين ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ لا خشوع العبادة والطاعة من العز ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ على يأس إلى أية بارقة للخلاص ولات حين مناص، فالطرف منه جلي حين ينظر المتقون إلى رحمة الله وكما وعدوها، ومنه خفي حين ينظر الظالمون الآيسون من رحمة الله وقد منعوها، كما وينظرون إلى النار التي عرضوا عليها من طرف خفي مغبّة ألّا يدخلوها وهم داخلون ولا يجترئون أن يملؤوا عيونهم بها فيخفون طرفهم كيلا يروها وهم إليها داخلون، فإن نظرهم نظر المخالف الذليل والمرتاب الظنين، فهو لا ينظر إلا مسترقاً ولا يغضي إلا مشفقاً، من عظيم الخيفة وتوقع العقوبة.

هنالك تتهاوى كبرياؤهم إلى هوات النار، إياساً من خلاص مع كل لهفة وانهيار، منكّسي الرؤوس والأبصار إلى جهنم يصلونها وبئس القرار.

وترى كيف لهم بصر حتى ينظروا من طرف خفي وهم عميٌ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٢) علّه لأن

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

آية العرض تعنيه قبل الحشر في سكرة الموت، وفي البرزخ، أو يسمح له أن ينظر من طرف خفي يوم القيامة عذاباً فوق العذاب، لفترة، كما يحشر أعمى عذاباً فوق العذاب، أو أن حشرهم عمياً لا يعني إلا حشرهم ولفترة، وأما أن يضلوا عمياً فلا وكما و﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[١] ولو كانوا بكماً وصماً دوماً فكيف التخاصم: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[٢] ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾[٣] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[٤].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إذ هم يعرضون على الجنة ناظرين إلى أهل النار ومنهم أصحاب الأعراف ﴿إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إذ ضلوا ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ إذ أضلوهم خسروا أنفسهم وإياهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

وهذه مقالة الرسول يرددها المؤمنون به يوم القيامة ﴿... قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[٥] فقولهم يوم الأخرى تأويل لقوله ﷺ يوم الدنيا.

وترى هؤلاء الذين خسروا أنفسهم إذ هم ظلموا فما بال أهليهم إذ يخسرونهم؟.. أهلوهم هنا هم المخسرون وليسوا معهم خاسرين، فإن كان أهلوهم أمثالهم حيث اتبعوهم فقد خسروهم مع أنفسهم فهما معاً في الجحيم، فهم إذاً خاسرون أهليهم كما خسروا أنفسهم، سواء أكانوا معهم أم مفترقين.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.
(٢) سورة ص، الآية: ٦٤.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٦، ٩٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٣١.
(٥) سورة الزمر، الآية: ١٥.

ثم القول الفصل الأخير من رب العالمين يصدق مقالة الرسول والمؤمنين: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ يقيم معهم إذ يقيمهم فيه، لا حِوَل لهم عنه وهم فيما قدمت أيديهم خالدون.

أو أنه أيضاً من مقالة المؤمنين خبراً لـ ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾ وصفهم، لا خبراً عنهم، وقد يقربه عدم الفصل بـ «هم» «بين الخاسرين الذين» فالمعنى أن الخاسرين الذين خسروا.. ألا أن الظالمين (وهم هؤلاء الخاسرون) ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ...﴾ والمعنيان علهما معنيّان حيث تتحملهما الآية.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾:

الاستجابة للرب تمتد في الحياة الدنيا ما دامت قائمة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مهما كان له مرد من نفسه حسب حسبانه، وهو يوم البرزخ ومن ثم القيامة، وهل يستجاب للرب قبل القيامة يوم البرزخ؟ ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾(١) وإنما هي قبل البرزخ، وهل يستجاب له قبل الموت فينفع الإيمان حتى عند رؤية البأس؟ كلا فيما لا مرد له من الله، حيث الإيمان قشريٌ خوف البأس، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾(٢) ونعم إذا كان حق الاستجابة والإيمان حيث له مرد من الله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١) فالمردّ المنفي أيام ثلاثة، يوم البأس زمن التكليف فلا مردّ من استحقاق العقوبة إلى سواها، ثم اليومان الآخران.

فواجب الاستجابة هو كونها في حياة التكليف، حقاً حالة الاختيار، لا جزافاً في نفاق أم خاوياً عند رؤية البأس، فما للمستجيب مردٌ من الله قبل الموت وبحقها فالإجابة حاصلة والإيمان ينفع، وإذ ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ فلا مرد له ممن سواه: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ تلجؤون إليه من دون الله ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾: منكم تنكرون عذابه أو تنكرون أسبابه، حيث الأسباب بارزة يومئذ والعذاب لا محالة كائن، ولا ﴿مِّن نَّكِيرٍ﴾ من سواكم، ينكر عذابكم فإنه ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾(٢).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ عن الاستجابة فلم يحفظوا أنفسهم عن الكفر اختياراً، ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ﴾ تكرههم على الإيمان إجباراً ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ إراءة الطريق، لا الإيصال إلى المطلوب.

وحالة الإنسان الكفور النسيان ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ﴾ شكوراً أو يظن أنه يحق لها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لا أيدينا ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ يكفر بالله وينسى رحمة الله، فهو في الحالتين كفور، وإن تظاهر حالة النعمة أنه شكور.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾:

.. لأن ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ لا سواه، فبيده ملكوت كل

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.
(٢) سورة هود، الآية: ١٠٥.

شيء وناصيته لا سواه، فهو ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ دون ما يشاء سواه، ومما يخلقه إناث وذكور كهبة لخلقه في خلقه حيث الأولاد مظهر من مظاهر المنح والعطاء، يقدم هبة الإناث على الذكور فـ «من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى»[(١)] والناس يتقدمون إلى الذكور قبل الإناث! ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ والعقم يكرهه كل الناس و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ...﴾ توحي بأن الأولاد من هبات الله فكأن الوالدين يملكانهم، وهذه الآية هي مصدر ما اشتهر عن الرسول ﷺ: «أنت ومالك لأبيك» و«إن أولادكم هبة الله يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور فهم وأموالهم لكم إذا احتجتم إليها»[(٢)].

فـ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[(٣)] فإذ يختار لك الذي له ملك السماوات والأرض أنثى كهبة ومنحة ربانية فهل لك أن تردها أو تبغضها؟ أو يختار لك ذكراً فهل لك أن تتبجح حيث لم يهبك أنثى؟ أم إذا جعلك عقيماً حرماناً عن هبة الأولاد ذكراناً وإناثاً فهل لك أن تغضب لماذا جعلك عقيماً؟ كلا ثم كلا! فإن هبات الله كلها مرضية والله يقدم هنا ﴿إِنَٰثًا﴾ لكي يقضي على ثورة حمقاء: بغض

(١) الدر المنثور ٦: ١٢ - أخرج ابن مردويه عن ابن عمران رسول الله ﷺ قال:... لأن الله قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.
وفي نور الثقلين ٤: ٥٨٧ عن تهذيب الأحكام بإسناده عن زيد بن علي عن آبائه عن علي عليه السلام قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله ﷺ إن أبي عمد إلى مملوك لي فأعتقه كهيئة المضرة لي؟ فقال رسول الله ﷺ: أنت ومالك من هبة الله لأبيك أنت سهم من كنانة ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ... وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] جازت عتاقة أبيك، يتناول والدك من مالك وبدنك وليس لك أن تتناول من ماله ولا من بدنه شيئاً إلا بإذنه».

(٢) الدر المنثور ٦: ١٢ - أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ:...

(٣) سورة القصص، الآية: ٦٨.

الإناث، ثم يقدم ذكراناً لكي يفهمك أنها في هبة الله على سواء «أرأيت لو أن الله أوحى إليك أن أختار لك أو تختار لنفسك ما كنت تقول؟ (طبعاً) يا رب تختار لي، فإن الله اختار لك..»(١).

وقد يختار الله أنثى هي مفتاح كل خير وبركة كما كانت فاطمة بنت الرسول ﷺ أم الأئمة النقباء النجباء، كوثراً عظيماً من كوثر الرسول ﷺ، وقد قال ﷺ عن البنات: «نعم الولد البنات ملطفات مجهزات مؤنسات مباركات مفليات»(٢).

وترى ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ تخص من يوهب - فقط - البنات ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فقط - الذكور؟ علّه نعم إذ تعني الهبة طيلة

(١) وسائل الشيعة ج ١٧ ص ١٠٢ ح ٤ عن الحسين بن سعيد اللحمي قال: ولد لرجل من أصحابنا جارية فدخل على أبي عبد الله فرآه متسخطاً فقال له أرأيت... ما كنت تقول؟ قال كنت أقول: يا رب تختار لي ثم قال: إن الغلام الذي قتله العالم الذي كان مع موسى عليه السلام وهو قول الله عز وجل: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] أبدلهما الله عز وجل به جارية ولدت سبعين سنة.

(٢) المصدر ص ١٠٠ وفيه ١٠٢ ح ٣ عن الجارود بن المنذر قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام بلغني أنه ولد لك ابنة فتسخطها وما عليك منها! ريحانة تشمها وقد كفيت رزقها وكان رسول الله ﷺ أبا بنات و..

وح (٥) محمد بن علي بن الحسين قال بشر النبي ﷺ بابنة فنظر إلى وجه أصحابه فرأى الكراهة فيهم قال: فما بالكم ريحانة أشمها ورزقها على الله عز وجل وكان أبا بنات.

وح ٨ عيون أخبار عن الحسن بن علي العسكري عن آبائه عن الصادق عليه السلام أن رجلاً شكا إليه غمه ببناته فقال: الذي ترجوه لتضعيف حسناتك ومحو سيئاتك فارجه لصلاح حال بناتك أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: لما جاوزت سدرة المنتهى وبلغت قضبانها وأغصانها رأيت بعض ثمار قضبانها أثداءها معلقة يقطر من بعضها اللبن ومن بعضها العسل ومن بعضها الدهن ومن بعضها شبه دقيق السميد ومن بعضها الشياب (النبات) ومن بعضها كالنبق فيهوي ذلك كله نحو الأرض فقلت في نفسي: أين مقر هذه الخارجات؟ فناداني ربي يا محمد! هذه ابنتها من هذا المكان لأغذو منها بنات المؤمنين من أمتك وبنيهم فقل لآباء البنات لا تضيقن صدوركم على بناتكم فإني كما خلقتهن أرزقهن.

العمر، ولكنها قلة قليلة، أن يوهب الوالدان فقط بنات أو كذلك البنين! إلّا أن ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ تعني الكثرة الكثيرة، أو أن ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ تعني كل ولادة وولادة، فقد تكون أنثى وقد تكون ذكراً وقد تكون توأماً ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾؟ علّ الآية تعنيهما.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ تعني يهب لهم زوجاً: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ في ولادة أم ولادات.

وترى ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ يعني عقماً مّا، وإن كان لمانع ترفعه الدواء أو عملية أخرى؟ وليس هذا عقماً لا هبة فيه، حيث العقيم لمانع مّا حين يرزق ولداً كان من هبات الله فتشمله ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ...﴾.

فهذا العقم هو عقم في العمق حيث لا علاج له، ولا عادياً بعلاج، ولا خارجاً عن العادة بمعجزة إلهية كما في أم إسحاق على حد قولها ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾(١).

ثم ترى لماذا «الذكور» بعد «إناثاً» معرفة وهي منكرة؟ ومن ثم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ بعكسه ومنكرين؟.

تقدّم الإناث هنا جبرٌ لتأخرهن عند الناس، ولأنهن في كونهن مظاهر العطف الرباني أعطف، والهبة تقتضي في البداية أعطف العطف وكما يستلهم الرسول ﷺ من هذا التقدم قوله: «من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى لأن الله قال..».

وتعريف الذكور مجاراة لمن يقدمونهم على الإناث أو للإشارة إلى واقع التقدم، وتأخير ذكرهم يقضي على هذا العرف الخاطئ أو للتعديل في تقدّم وتأخّر، ثم تقديم ﴿ذُكْرَانًا﴾ على «إناثاً» للتدليل على أنهما سواء، أو جبرٌ لتقدم الإناث قبله، ولم يعرّف هنا ﴿ذُكْرَانًا﴾ كيلا يخيل إلى الذكران أنهم فوق

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٩.

الإناث كضابطة، أو لا يزعم أن في تقديمهم تقدّم على «إناثاً» ويا لها من صيغة سائغة كأنها صاعقة تحرق التخيلات الجارفة الحمقاء حول الإناث بين هؤلاء الناس النسناس، لحد كانوا يعتبرونهن حيواناً أو أدنى، فقد رفعهن الله كما وضعن، وسوى بين القبيلين إلا فيما يسعى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

هنالك تكليم لله في مثلث لا رابع له، فما هو تكليمه، ومن ثم ما هو ﴿وَحْيًا﴾ ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾؟ فهل إن ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ وحي كـ ﴿وَحْيًا﴾ فكيف يقابله؟ أم ليس وحياً فليكن بإرسال رسول فكيف يقابل ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾؟.

التكليم الإلهي:

إن التكليم الإلهي يعني فيما يعنيه الرباط العلمي وحياً إلى بشر، كلاماً إلى سمع أو معنى إلى قلب، بواسطة أو دون وسيط، بحجاب أو دون حجاب إلّا حجاب ذات الألوهية حيث يستحيل ارتفاعه، لارتفاع ذات الألوهية وسموها عن أن يدرك دون حجاب «فلا يحس ولا يمس ولا يجس ولا يدرك بالحواس الخمس».

ليس كلامه بآلة في ذاته لساناً أم ماذا كمن سواه، إنما هو إيحاء يحمل صوتاً أو معنى دون صوت، يخلقه الله تعالى كسائر خلقه، إلّا أنه يختصه من يصلح من ملائكته ورسله دون سائر خلقه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١] .. وليس الله مكلم الذين كفروا لا في الدنيا ولا في الآخرة مهما كان مكلّم المؤمنين في الآخرة: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾[٢] فلا تكليم إلهياً يوم الدنيا إلّا مع المرسلين.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ سلب للكيان البشري، يضرب إلى عمق الماضي أن يتحمل كلام الله مواجهة برؤية أو بسماع لفظة كما يلفظ البشر فيسمع، لا هذا ولا ذاك، وإنما ﴿وَحْيًا أَوْ...﴾ وجوه ثلاثة لا رابع لها وكلها كلام الوحي.

فالوحي وهو الإشارة في رمز قد يكون من أرقاه في أعلى القمم الممكنة، وهو وحي دون حجاب ودون رسول، إلقاء في قلب الرسول دون وسيط من شجرة كما أوحي بها إلى موسى، أو كلام لفظي كما ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٣] أو حجاب المنام، وإنما المعنى والمعنى فقط يلقى دون أي وسيط إلى قلب الرسول، في حين ليس بين الرسول وبين الله أحدٌ حتى نفسه حيث يتناسى حينه عنها، ارتفاعاً لحجب الظلمة والنور إلّا نور الذات المقدسة حيث تبقى حجاباً لن يزول.

هنا لا يبقى حجاب للوحي إلّا حجاب هو لزام ذات الألوهية لمن سواه[٤]، فهو وحي دون أي حجاب ممكن الكون والارتفاع، وكما الوحي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٤.

(٤) نور الثقلين ٤ : ٥٨٧ ح ١٣٤ في كتاب توحيد المفضل بن عمر المنقول عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في الرد على الدهرية قال عليه السلام بعد أن ذكر الله عز وجل ، والعجز عن أن يدرك فإن قالوا : ولم أستتر؟ قيل لهم ما يستتر بحيلة يخلص إليها كم يحتجب عن الناس بالأبواب والستور، وإنما معنى قولنا : استتر أنه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام كما لطف النفس وهي خلق من خلقه وارتفعت عن إدراكها بالنظر. =

إلى الرسول الأقدس محمد ﷺ ليلة القدر وليلة المعراج كان وحياً بلا حجاب، حيث لا كلام ولا منام ولا شجرة أم ماذا؟ ولا جبريل ولا حجاب نفس الرسول المقدسة النورانية، حيث «لم يكن بينه وبين الله احد»(١).

ولم يسبق هكذا وحي لأحد من المرسلين، ولا الملائكة المقربين، لأنه يتطلب مقام ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾(٢) حيث لم يسطع الرسول إلى الرسل: جبريل عليه السلام، أن يعرج إلى معراج الرسول ولا بجسمه فضلاً عن روحه(٣).

هذا تكليم إلهي متحلل عن لفظية الكلام وعن أي وسيط، ثم يأتي دور

= وفي كتاب التوحيد عن الرضا عليه السلام كلام طويل في التوحيد وفيه: لا تشمله المشاعر ولا تحجبه الحجاب فالحجاب بينه وبين خلقه لامتناعه مما يمكن في ذواتهم ولإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته ولافتراق الصانع والمصنوع والرب والمربوب والحاد والمحدود.

وفيه عن الرضا عليه السلام أيضاً كلام وفيه قال الرجل: فلم احتجب؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الحجاب على الخلق لكثرة ذنوبها فأما هو فلا تخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار.

(١) في التوحيد بإسناده عن زرارة قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي؟ قال فقال: ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد ذاك إذا تجلى الله له - قال ثم قال: تلك النبوة يا زرارة واقبل يتخشع.

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال بعض أصحابنا: أصلحك الله كان رسول الله ﷺ يقول: قال جبرائيل وهذا جبرائيل يأمرني ثم يكون في حال أخرى يغمى عليه؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنه إذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرائيل أصابه ذلك لثقل الوحي من الله وإذا كان بينهما جبرائيل لم يصبه ذلك فقال: قال لي جبرائيل وهذا جبرائيل.

وفي الدر المنثور أخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ قال: أحياناً يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وهو أشده عليَّ وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول - أقول: وهو أشده علّه خاص بما يوحي إليه بواسطة ملك الوحي، فإن أشده ككل ما يوحى إليه دون وسيط.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) راجع الفرقان ج ٢٧ من سورة النجم حول آية التدلّي.

تكليمه ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ ولا يعني الوراء وراء مكانياً للمكلِّم، وإنما الوراء لكلامه الموحى إلى رسول، سواء كان وراء الكلام اللفظ وهو أبسطه، أم وراء النوم، أم وراء شجرة كما لموسى، أم أي وراء هو حجاب، وليس رسولاً للوحي، وإن كان هو أيضاً من الحجاب، إلّا أنَّ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يختصه بوحي بعد ﴿وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ فلا يشمله هنا ﴿حِجَابٍ﴾ والوحيان يعنيان ما لا وسيط له رسالياً، ومن ثم:

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إلى بشر ﴿فَيُوحِيَ﴾ الرسول الملك إلى رسول البشر ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: الله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ الله، فالموحي الأصيل هو الله، والموحي الملك هو رسول الوحي، يشير في رمزٍ ما تلقاه من الله إلى الرسول البشري.

إن الوحي - حيث يحمل تكويناً أو تشريعاً - ليس إلّا من الله، سواءً أكان رمزاً في التكوين: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾[١] أو في الغريزة: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[٢].

أو إلهاماً يحمل حكماً خاصاً إرشادياً: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣].

ومن ثمّ الوحي التشريعي الذي يحمل أحكاماً شرعية للموحى إليه شخصياً، أم له ورسالة إلى جماعة قلوا أو كثروا، أم إلى العالمين أجمعين.

و﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ حيث يحمل وحي التشريع من ملك الوحي بإذن الله، آية يتيمة في القرآن كله، على احتمال أن الموحي بإذنه هنا أيضاً

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٨.
(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

هو الله، حيث الآية تتبنى التكليم الإلهي في هذا المثلث البارع، فليكن المكلّم الموحي في ثالثه هو الله كما في الأولين.

إذاً ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ الله ﴿رَسُولًا﴾ ملائكياً ﴿فَيُوحِيَ﴾ بواسطته كحجاب يعقل ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ تعالى لا بإذن الملك أو الموحى إليه أو مسيّراً في وحيه ﴿مَا يَشَآءُ﴾ الله - لا ما يشاء الرسول الملك أو الرسول البشر ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن أن يواجه في كلامه بذاته، أو يكلم غير رسله وأنبيائه ﴿حَكِيمٌ﴾ يوحي بحكمة بارعة إلى كلٍّ كما يحق له ويتحمل، وكما يجب في رسالته.

لقد جمع لمحمد ﷺ بين مثلث الوحي: دون حجاب - ومن وراء حجاب المنام أو الكلام - وبواسطة جبريل، ووحيه الأول دليل أن الآخرين لم يكونا لحاجة منه إلى حجاب أو ملك، وإنما هو تثبيت للمؤمنين حتى لا يقولوا فيه ما قالوه في المسيح عليه السلام: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1] «وكان جبرئيل إذا أتى النبي ﷺ قعد بين يديه قعدة العبد وكان لا يدخل حتى يستأذنه»[2].

ولئن قلت: تنزيل جبريل لم يكن بمشهد للمؤمنين فكيف يصدقونه حتى يثبتوا على الإيمان أنه ليس كما قيل في المسيح عليه السلام؟

فالجواب نجده من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حيث يصدقونه - لإيمانهم - قوله: إن تنزيل القرآن بواسطة روح القدس.

أو قلت: هلّا كلم الله تعالى إبليس وكما في مواضيع من خطابه له، فهل يدخل في مثلث الوحي أم ماذا؟.

فالجواب: إن الآية تتحدث عن تكليمه لبشر دون أي كائن من جن وشيطان أم من ذا؟ ثم قد يكون وحيه إلى إبليس من وراء حجاب الغضب

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٢) علل الشرائع بإسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال: . . .

والظلام دون حجب النور الذي كانت لرسل الله، أو أنه لا يدخل في مثلث الوحي إذ لم يكن وحي رسالة وإنما وحي تنديد وتبكيت.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي يوحي ربك ﴿وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ والوحي إلى محمد ﷺ شمل هذا المثلث كله ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ إن كان روح القرآن فمحكمه وما أوحي إليه ليلة القدر والمعراج أم ماذا ﴿وَحْيًا﴾ ومفصله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ...﴾ وعوان بين ذلك في المنام أم ماذا.

أم «كذلك» الذي يوحي من وحي الكتاب ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ الروح القدسي الرسالي الذي هو سند العصمة ولزام المرسلين وسائر المعصومين، وكلٌّ منهما روح من أمر الله وفعله، لا صنع للموحى إليهم فيه ولا أمر، اللهم إلّا تحضيراً مستطاعاً لهم بتوفيق الله وجهودهم لكي يستأهلوا لنزولهما عليهم ووحيهما إليهم، وحي التكوين: روح العصمة، ووحي التشريع: روح الكتاب.

وقد يشملهما «كذلك» وكما في سائر القرآن، فالروح القرآن وهو روح الأرواح كلها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١) وهي تشمل روح القدس أيضاً، ولكن الروح المنزّل هو القرآن: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾(٢) اللهم إلا أن يعني التنزل التدريج الأرواح العدة التي تتنزل عليهم واحداً تلو الآخر، أو يشملهما معاً، ثم الروح الملقى هو روح

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٢.

القدس، وروح الكتاب النازل دفعة كالقرآن المحكم أم ماذا: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾(١) فبالروح القدسي الرسالي يتم الإنذار ويطمّ في الجو الملتطم، وبكتاب الوحي يبلغ الروح القدسي، فلولا عصمة القرآن لم يكف الروح القدس، ولولاه لم تكف عصمة القرآن، فالروحان متجاوبان متناصران في الدعوة الرسالية المتحللة عن أية أخطاء.

وكما أن من وحي القرآن إلى محمد «وحياً» دون حجاب أو رسول، كذلك وحي الروح القدس إليه دون وسيط، فقد يلقيه الله كذلك أو ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ حيث يشمل روح القدس.

وقد يختلف ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ عن «روح من أمرنا» فـ «نا» حيث تلمح إلى جمعية الصفات تجمع - للموحى إليه في الروح الموحى - كتاباً وروحاً قدسياً، تجمع كافة الصفات والرحمات الإلهية، عصمة فوق العصم، وكتاباً فوق الكتب، كما العصمة المحمدية وكتابه يجمعان ما بالإمكان أن يوحى من الله.

ثم الرسول الحامل لوحي الكتاب هو جبريل - ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(٢) و﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾(٣) والحامل لوحي العصمة:- الروح القدسي الرسالي في وحيه الوسيط - قد يكون هو أو الروح الذي ليس من الملائكة وهو يرأسهم، فهو يحمل هذه الروح القدسية إلى المعصومين، أنبياء وسواهم، ويتنزل مع الملائكة ليلة القدر من كل أمر ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾(٤) كما ﴿يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(٥) و﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ

(١) سورة غافر، الآية: ١٥.
(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٨٧ و٢٥٣. وسورة المائدة، الآية: ١١٠.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣.
(٤) سورة القدر، الآية: ٤.
(٥) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

سَنَةٍ﴾[١]، ولكنما الروح القدس النازل على محمد ﷺ هو كمحكم القرآن نازلان عليه دون أي وسيط، وحياً دون أي حجاب، كما وأن قبض روحه ﷺ عند ارتحاله لم يكن بوسيط.

فهنالك أرواح أربع من الله إلى رسل الله، روحان ينزلان وحياً: روح القدس وروح الكتاب، وروحان ينزّلان وحياً: - ١ - جبريل - روح القدس: الروح الأمين، وسيطاً في وحي الكتاب، - ٢ - والروح وسيطاً في وحي الروح القدسي أم ماذا من أمر، والرسول الأقدس محمد ﷺ يتلقى وحي الروح القدسي دون أي وسيط، كما قد يتلقى روح القرآن دون وسيط، وقد يوحى إليه القرآن - كما في مفصله - بوسيط، أو يلقى إليه ليلة القدر من كل أمر بواسطة الروح.

و﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هنا تشمل الروحين، وعلّ أظهرهما روح القرآن، كما تلمح إليه «كذلك» وألمح منه ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ فالروح القدسي ليس لزامه دراية الكتاب والايمان القرآني، لأنه أعم، وروح القرآن الموحى إليه لزامه الروح القدسي، وقد يكون تفسير ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هنا بروح العصمة تفسيراً باللازم أو بمصداق خفي[٢].

اللهم إلّا أن تعني دراية الكتاب والإيمان دراية إجمالية عنهما كما يحق للقمة الرسالية، ومن ثم تفصيل الكتاب، فالروح القدسي بما يوحى إليه من

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٨٩ ح ١٣٩ في أصول الكافي بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا . . .﴾ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا . . . قال: خلق من خلق الله عزّ وجلّ أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده وفي ح ١٤٠ بإسناده إلى أسباط بن سالم قال: سأله رجل من أهل هيت وأنا حاضر عن الآية فقال: منذ أنزل الله عزّ وجلّ الروح على محمد ما صعد إلى السماء وانه لفينا وفي معناها روايات عدة وفي بعضها إنه من الملكوت.

محكم الكتاب يتقدم تفصيل الكتاب، فـ ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يشملهما أولاً الأول وثانياً الثاني، وهما اللذان يتبنيان الرسالة القدسية المحمدية كسائر الرسالات على شتى مراتبها.

أم يعكس الأمر فـ ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ تعني أولاً الروح الرسالي لمكان ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ الضارب إلى أعمق الماضي من زمن الرسالة، فلا يعني إلّا هذا الروح السابق وحيه على وحي الكتاب محكماً ومفصلاً، أم ووحي الكتاب محكماً ليلة القدر بعد بداية البعثة قرابة خمسين ليلة.

ثم ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ شاهد ثان أنه قبل هذا الوحي ما كان يدريهما، ولو كان - فقط - روح القرآن المتأخر عن روح الرسالة فإنه كان يدري ما الكتاب والإيمان إجمالياً قبل وحي القرآن، كما دراهما ليلة القدر أكثر، ثم درى تفصيلهما بنزول تفصيل القرآن، إذاً فهو روح الرسالة أولاً ومن ثم روح القرآن.

وقد يعتبر الروحان واحداً كما هنا ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وفي الخبر «روح القدس فيه حمل النبوة»(١) ولأنهما متلازمان كلٌّ يلازم زميله في حمل النبوة وتبنّي الرسالة.

وترى أن الرسول قبل هذا الوحي ما كان مؤمناً كما لم يكن يدري القرآن؟.

إنه كان مؤمناً منذ كان فطيماً «ولقد قرن الله به من لدَن كان فطيماً أعظم

(١) سفينة البحار ١: ٥٣٧ زع ١٩١ ير عن المفضل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا مفضل إن الله جعل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسة أرواح روح الحياة فبه دب ودرج وروح القوة فبه نهض وجاهد وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال وروح الإيمان فبه أمر وعدل وروح القدس فبه حمل النبوة.

ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»[١].

ولكنما الإيمان درجات، ولأن «الكتاب» هنا القرآن أم وسواه «والإيمان» على ضوء وحي العصمة الرسالية والقرآن، فهو كبشر قبل الوحين ما كان يدري ما هذا الكتاب ولا ذلك الإيمان، على إيمانه العقائدي والعملي بما كان يسلكه الروح الأمين.

فما كان يدري هو من نفسه أو بأيّة دراسة وارتياض ما القرآن ولا الإيمان القرآني ﴿وَلَكِن جَعَلْنَهُ نُورًا...﴾.

أجل ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٢] ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

لقد كان مؤمناً نبياً أم سواه قبل رسالته، وما كان يعلم الكتاب قرآناً وسواه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٤] ما كان يتلو ولا يخط بما أحال الله تعالى عليه قبل الوحي الرسالي ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فعدم القراءة والخط لهذه الغاية كمال حيث يتبنى قوام الرسالة.

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام - راجع «شريعة محمد قبل الإسلام» في ج ٣٠ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ الفرقان.

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل وابن عساكر عن علي قال: قيل للنبي ﷺ هل عبدت وثناً قط؟ قال: لا - قالوا: فهل شربت خمراً قط؟

قال: لا - وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان وبذلك نزل القرآن ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

وما كان يدري ذلك الإيمان الحاصل بوحي الروحين ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾(١).

فالإيمان هنا معرَّف معروف حسب المقام إنه إيمان خاص، بحاجة إلى تعريف الوحي، كما علم الكتاب بحاجة إلى الوحي، دون أن يملك الرسول قبل رسالته هذا العلم أو يدري هذا الإيمان!.

هنالك بالنسبة لإيمان الرسول قبل رسالته مفرط ومفرّط، قولاً أنه كان ضالاً لم يؤمن، وآخر أنه كان يعلم ما أوحي إليه قبل أن يوحى، والحق المستفاد من القرآن عوان بين ذلك(٢).

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ ما كنت تدري ولكن أدريناك بما ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: روحاً من أمرنا والكتاب والإيمان ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ هداية الدلالة والإيصال إلى الهدى، فخصوص الهداية الدلالة عام، والهداية الإيصال خاص بـ ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ وهم من يشاؤون الهدى ويعملون لها ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾(٣)، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقط هداية الدلالة دون إيصال تكويني إلى الهدى(٤).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.

(٢) وإذ لم يكن الرسول ليعلم القرآن قبل وحيه فبأحرى لم يعلمه غيره، فالروايات القائلة إن الإمام علياً عليه السلام قرأ سورة المؤمنون حين ولادته مزورة مقحمة تعني تفضيله على الرسول، ونبوته قبل الرسول!.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٤) تفسير البرهان ٤: ١٣٣ ح ٩ بإسناد عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] قال: ذاك علي بن أبي طالب - أقول: عله يعني روح القدس النازل على علي عليه السلام بعد الرسول، كما القرآن يعلمه علي بعد الرسول فهو عليه السلام مزود بالروحيين دون وحي إلا في روح القدس الذي هو مع الأئمة يسددهم كما كان مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلّ الهداية الأولى هي الهداية بوحي الروحين، ثم الثانية هي العامة وأين هدى من هدى؟.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾:

لله صراطان، صراط الربوبية المختص بالله ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] وصراط العبودية المختص بعباد الله، حيث رسمه الله وخططه لعباده وجعل عليه الأدلاء إليه وأمرهم أن يدلوا العباد إليه ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

شرعة الرسول قبل الإسلام:

ترى أن محمداً ﷺ كان نبيّاً موحى إليه بشرعة تخصه قبل رسالته؟! أم كان يسترشد فيها بأعظم ملك من ملائكة الوحي دون أن يوحى إليه أم كان متعبداً بالشرعة المحكّمة زمنه: شريعة الناموس التوراة حسب الإنجيل؟ بيد التدليل - وحياً أم ماذا - على مواضع التحريف والتجديف - ٣ -؟ أم دون تدليل، ٤ -؟ أم كان على شرعة إبراهيم: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾[2]، ٥ - رغم أنها نسخت بشرعة التوراة والإنجيل؟ فضلاً عن شريعة نوح؟ أم لم يكن على أية شرعة وإنما على الفطرة الطاهرة التي فطره الله عليها - ٦ - أم كان ضالاً عن كل هذه الشرائع، ٧ -: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[3].

من المؤكد قرآنياً وفي السنة أن الله اصطفاه بين العالمين على العالمين

---

(١) سورة هود، الآية: ٥٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.
(٣) سورة الضحى، الآية: ٧.

أجمعين، وفيهم - طول الأربعين - عباد الله المخلصون من أهل الكتاب الموحدين، واصطفائه عليهم يتطلب - ولأقل تقدير - أنه كان مؤمناً كما هم، وعاملاً بالشرعة المحكمة زمنه كما هم، ولكنما الاصطفاء يقتضي أنه كان بينهم أوّل المؤمنين والعابدين، إضافة إلى تحضير رباني وتسديد دائب طول الأربعين ولكي يصلح للرسالة على العالمين أجمعين، هذه الرسالة السامية القمة التي تربو الرسالات كلها ربوة تطمّها وتتممها، أفلا يقتضي ذلك لمحمد ﷺ نبوءة قبل رسالته، أم استرشاداً بأعظم ملك من ملائكة الوحي يسلك به سبيل المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، وإن لم يكن بوحي، أم لا أقل من اتباعه شرعة التوراة الأصيلة على ضوء الإنجيل الأصيل، تدليلاً بوحي أم سواه في موارد التحريف أم ماذا.

ومهما يكن من شيء فهو كان أفضل المؤمنين العابدين على الإطلاق وإن كان «ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان» قرآنياً قبل نزوله ونزوح روح القدس عليه.

وقد تعني نبوءته الشخصية قبل رسالته قوله: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» واقع النبوة منذ كان فطيماً حتى رسالته، ونبأ النبوة وآدم بين الماء والطين.

أم يعني نبوّته في وجوب تصديقه قبل بعثته طول التاريخ الرسالي للرسل والنبيين أجمعين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

٤٣

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

سُورَةُ الزُّخۡرُفِ

مكيّة وآياتها تسع وثمانون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ
تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ
عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا
مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ
﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم
مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ
﴿١٠﴾ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ
تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ
وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا
ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ
﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ
ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم
بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ

مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿حمٓ﴾ رابعة الحواميم السبع، تبدأ بالكتاب المبين وكما في الدخان، إلا أن هنا يجعل قرآناً عربياً، وهناك ينزل في ليلة مباركة، ثم لا إنزال للكتاب في سائر السبع إلا تنزيلاً كما يسبقها أيضاً تنزيل الزمر دون ﴿حمٓ﴾ إذاً ففي مفتتحات الحواميم تنزيلات ستة للكتاب، منها ما هنا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾ تعني تفصيل الكتاب، وإنزال واحد في الدخان يعني محكم الكتاب النازل ليلة القدر جملة واحدة.

أترى ما هو الكتاب المبين؟ إن له حسب القرآن مصاديق ثلاثة، أعلاها أمُّ الكتاب لدى الله ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ كما هنا و﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾(١) كما في الدخان أم ماذا.. وأدناها القرآن

(١) فإن ضمير الغائب المفرد في ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ [الدخان: ٣] راجع إلى القرآن قبل الإنزال لا بعده حيث الجمع بين حالتي النزول وقبله محال، فـ«ه» يعني أم الكتاب والله تعالى أنزله من عل =

المفصل: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾(١) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾(٢) وأوسطها القرآن المحكم النازل في ليلة مباركة على قلب الرسول محمد ﷺ: ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾(٣) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾(٤).

فقد يعني الكتاب المبين هنا أم الكتاب فجعله قرآناً عربياً جعل ثان بعد إنزاله في ليلة القدر، أو يعني النازل فيها فجعله جعل أول، وقد يلوح من ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أنه الكتاب المبين الأوسط، وهنا يلوح ﴿حم﴾ خطاباً لـ(أحمد - محمد) قسماً بالكتاب المبين الذي أنزلناه عليك في ليلة مباركة ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إذ لم يكن قبله بمحكمه النازل فيها لا قرآناً: يقرأ بألفاظ، ولا عربياً: لائحاً لغير الرسول ﷺ، ولقد كان قبل النزول الأول: المحكم ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ﴾ من أن تناله الأفهام حتى الرسول ﷺ و﴿حَكِيمٌ﴾ لا يُتخلل حتى للرسول ﷺ!. إذ لم يكن له سبيل إلى علم الله قبل وحيه اللهم إلا بوحيه بما أنزل عليه من علمه تعالى.

= الربوبية إلى دنو العبودية حتى تلقاه الرسول ﷺ بصورة محكمة، ومن ثم نزل هذا المنزل آيات مفصلات لعلهم يعقلون.

وقد يحتمل أن الضمير راجع إلى الحالة الحاضرة لدى الجميع وهو القرآن المفصل وإن كان أنزل وأدنى من المنزل ليلة القدر، فهناك حالة قبل الإنزال في أم الكتاب، وحالة الإنزال في ليلة القدر وحالة التنزيل في الكتاب المفصل والحقيقة واحدة، إلا أن للكتاب الأم فضله حيث الآخران من ولده، فإنه علم الله المحيط بكل شيء، وللكتاب للحكم فضله على المفصل بإحكامه وأنه يشمل ما يختص بالرسول نفسه، وهذا المختص بارز في الحروف المقطعة التي هي مفاتيح كنوز القرآن، إضافة إلى علم التأويل الخارج عن دلالة التنزيل، فهنا اختصاصان للرسول من القرآن.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٥.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٩.

(٣) سورة الدخان، الآيات: ١-٣.

(٤) سورة القدر، الآية: ١.

فقد أنزله الله مرة أولى في ليلة مباركة حتى وعاه الرسول محكماً، ثم جعله قرآناً عربياً إنزالاً ثانياً تفصيلاً: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(١)

وترى ما هو الكتاب المبين الأم؟ وما هو الفرق بين الكتب الثلاث؟

للكتاب الأم مواصفات عدة في سائر القرآن تميِّزه عن الآخرين على وحدة في الثلاثة.

إنه العلم المطلق بكل شيء: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾(٢) ومفاتح الغيب تشمل العلمين الإلهيين الذاتي والفعلي، ثم يستعرض الثاني ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ والكتاب المبين الثاني: القرآن المحكم، ولا الثالث: القرآن المفصل، لا يشملان العلم الفعلي كله فضلاً عن الذاتي الذي هو عين ذاته تعالى فلا يحدث وينفصل عنه والفعلي حادث منفصل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾(٣) هنا الآية تختص باستعراض العلم الفعلي الإلهي ككلٍ، وتختصها بالكتاب الأم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾(٤) ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾(٥) ﴿... عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ

(١) سورة هود، الآية: ١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٦١.
(٤) سورة هود، الآية: ٦.
(٥) سورة النمل، الآية: ٧٥.

وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[١] ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٢].

وذلك الكتاب الأم المبين هو الإمام المبين: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[٣] وهو من لوح محفوظ ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾[٤] ولوح محفوظ هو الكتاب الأم، لائح لدى الله، محفوظ عند الله، والنازل منه ليلة القدر على لوح قلب الرسول ﷺ المحفوظ بالعصمة الإلهية، ثم المنزل طول البعثة لائح في صدور الحفاظ، محفوظ عن التحريف، وأخيراً في ألواح الأوراق أم ماذا، لائح للقارئين محفوظ عن التحريف، وكتاب مكنون: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾[٥].

والكتاب النازل بمحكمه ومفصله كانا في الكتاب الأم، فتولد المحكم من محكم الأم، والمفصل من هذا المحكم، كولد ثان لهذه الأم.

فأم الكتاب يعم ويطم كل علم، فما من غائبة في السماء والأرض ولا رطب ولا يابس، وما من قرآن ولا عمل ولا من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين، لا يعزب عنه علم شيء ولا أي شيء، فهو العلم المطلق بكل شيء.

إذاً - بطبيعة الحال - ليس الكتاب المبين الثاني: النازل ليلة القدر على قلب الرسول ﷺ ليس هو النسخة الثانية عن الكتاب الأم ككل، وإنما هو منه كما هو فيه، وليس الشيء في نفسه وإنما هو فيما يحويه، كما نطق به آياته.

(١) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.
(٣) سورة يس، الآية: ١٢.
(٤) سورة البروج، الآيتان: ٢١، ٢٢.
(٥) سورة الواقعة، الآيتان: ٧٧، ٧٨.

ثم الكتاب المبين الثاني أم للثالث: القرآن المفصل، فإنه آياته وليس الأم بتمامها، اللهم إلا ما هو للناس والعالمين أجمعين، اللهم إلا ما تعنيه رموز القرآن ومفاتيح غيبه الخاص بمن أوحي إليه وأهليه وتأويله، إذاً فالقرآن المفصل هو هو الأم الثاني برموزه المنحصرة بالرسول المنحسرة عمن سوى الرسول ﷺ.

ثم المبين الثالث: هذا القرآن ليس إلا آيات الكتاب المبين: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾(١) ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾(٢) ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

فهذا الكتاب القرآن والقرآن الكتاب ليس إلا آيات للكتاب، والقرآن الأم، النازل في ليلة القدر، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، إلا بيان ما يختص بالرسول من حروفه الرمزية وتأويله، ثم هما: الأم الثاني بولدها، ليسا هما الكتاب المبين الأول بتمامه، حيث يجري علم الغيب كله دون عزوب أو غروب.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ...﴾ دليل أن القرآن المحكم والمفصل واحد لا يختلفان إلا في الإحكام والتفصيل: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٤).

ثم ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ دليل أن أم الكتاب الأولى ظرف للثانية بولدها، فهي تحويهما وتحيط بهما، دون تساوٍ، وإنما أنزل منه ونزّل ما يحتاجه النبي ﷺ والعالمون أجمعون إلى يوم الدين، فهو من العلم الرباني وليس العلم كله، فهو من الغيب وليس الغيب كله.

والكتاب المبين الأوّل هو أولاً مبين لرب العالمين لا عن جهل، ومبين للنبي والعالمين على حدِّهم، ومبين كل شيء علماً واقعاً.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١.
(٢) سورة الحجر، الآية: ١.
(٣) سورة النمل، الآية: ١.
(٤) سورة هود، الآية: ١.

والمبين الثاني يخص النبي ﷺ حيث لا سبيل لمن سواه إلى ما أوحي إليه ليلة القدر إلا ما بينه أو بينه القرآن المبين.

والمبين الثالث من طبعه أنه يبين دون خفاء في قصور دلالي، وعلى من يستبين دقيق النظر وحديد البصر ليبلغ مدى بيانه فـ ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[١].

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾:

الكتاب المبين الأم الثاني فضلاً عن الأول، لم يكن قرآناً: يقرأ في آيات، ولا عربياً: بيّناً يعرب عن حقيقته «للعالمين» ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولا يعني «عربياً» إلا واضحاً لا خفاء فيه، لا أنه باللغة العربية وإن كان بها. إنه عربي في بعدين: باللغة العربية فإنها أعرب اللغات وأظهرها، بلسان عربي في هذه اللغة حيث لا تعقيد فيه ولا ريب يعتريه، وجملة القول في عربيته أنه يعرب عن حقائقه كأوضح ما يمكن في فصاحة التعبير وبلاغته ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تأخذون ما يعرب عنه دون قصور وخفاء فيما يعرب حيث لا يعزب عن دلالة، ولا يغرب عن لمحة إلا وهو بيان له، يعرب كأعرب بيان وأعذب تبيان.

فـ «كم» في لعلكم ليسوا هم العرب فحسب، حيث القرآن شرعة للعالمين وبيان للناس أجمعين، بل هم العالمون أجمع شرط أن يعرفوا هذه اللغة، أو يترجم لهم إلى لغتهم: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢] فرب عربي لا يعلمه ورب أعجمي يعلمه، إن بلغته أم مفهومه أم ماذا.

إنه لسان عربي يعرب، لا لغة عربية قد تعرب وقد تغرب ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣.

عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[١] ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[٢].

إنه لسان عربي كما أنه حكم عربي ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾[٣] دون أن يختص لسانه وحكمه بالإنسان العربي، وإنما هو عبارة تعرب وحكم يعرب دون عوج في حكمه أو خفاء في تعبيره: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٤].

أترى لو نزل القرآن بغير هذه اللغة ما كان يعقل أو يتقى، فإنما يتقى ما يعقل، ويعقل ويقبل الظاهر دلالة، الموافق للعقل والفطرة والمصلحة مدلولاً.

فكم من عبارة عربية لا تعقل فلا تقبل، وكم من أعجمية تعقل فتقبل، ولكنما القرآن جمع بين عربية اللغة وعربية اللسان وعربية البيان وعربية الحقائق التي يتقبلها العقل والفطرة، ويصدقها الواقع، فهو حكم عربي في كافة المجالات. و«لعلّ» هنا في موقف ترجّي العقل عن القرآن، لا أن الله يترجى، وإنما العالمون المكلفون بشرعة القرآن، فمنهم من يعقله ومنهم من لا يعقله، فالقرآن في نفسه بيان لا عوج فيه، فيه رجاء عقلكم أن تأخذوا حقائقه، لا إثبات في عقله مطلق ولا سلب عن عقله مطلق، وإنما هو عوان، يُعقل لمن يعقله ويعقل عنه، ولا يعقل لمن لا يعقله ولا يعقل عنه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٥].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣-١٩٥.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾:

الكتاب هنا كتاب العلم المحيط من تشريع وتكوين، يحوي كتابات التشريع ومطلق التكوين، والقرآن موقفه في أم الكتاب «علي حكيم».

و﴿لَدَيْنَا﴾ هنا تعني: إنه لدينا - في أم الكتاب لدينا، إنه في ميزان الله، في أم الكتاب لدى الله «علي حكيم»، «علي» على سائر الكتب السماوية وهي دونه، كما هو علي عن أن تناله الأفهام قبل نزوله وحتى للرسول ﷺ فكيف بمن دونه!.

﴿حَكِيمٌ﴾ من أن يتدخل فيه الأوهام، حكيم من النسخ والتحريف.

فكما الله علي لا ينال في علوه، وحكيم لا يغتال، كذلك قرآنه المبين، فعلوه وحكمته لزام له لا يزول، وإن كان كلٌّ درجات في مثلثة الحالات «لدى الله» «لدى رسول الله» «لدى خلق الله» ولكنما الأمر الثابت أنه عليٌّ يعلو كل عال، حكيم لا يتطرق إليه أي إدغال، ولا ينفذ إليه غيره في أي مجال على أية حال!.

القرآن هنا «علي» و الله تعالى «علي» في آيات سبع، وأين علي من علي!، حيث القرآن قبس من أم الكتاب لدى الله ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

ثم القرآن هنا ﴿حَكِيمٌ﴾ وفي آيات عدة: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾(١) (٢) و الله حكيم في (٩٣) آية، وأين حكيم من حكيم!

ولا يعني «علي» هنا علياً عليه السلام حيث الضمير في «إنه» راجع إلى «الكتاب المبين» فالكتاب المبين في أم الكتاب لدى الله علي حكيم، وإذا أوّلته إلى ضمير شأن - حيث يتطلب مبتدأً وخبراً - لا تجد إلا خبراً

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٨.

(٢) كما في ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١، ولقمان: ٢] ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١-٢].

موصوفاً ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ بلا مبتدأ! حيث المبتدأ لا يبتدىء بلام التأكيد، ولا يعني رواية «علي حكيم» إلا تطرفاً جاهلاً بعيداً عن أدب اللفظ والمعنى[١] اللهم إلا تأويلاً يعني النسخة الثانية من الحكمة المحمدية تمثلاً في الإمام علي عليه السلام وتداوماً في الأئمة من أهل بيته الطاهرين كما يلوح من الرواية نفسها.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾:

هذا ذكر مبارك أنزل قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، رحمة عالية غالية لعلكم ترشدون، فإن عقلتم فأنتم مهتدون، وإن أسرفتم في الجهالة والتجاهل فحقّ عليكم عذاب الله أن يضرب عنكم الذكر صفحاً، إعراضاً عنكم بنعمته واستعراضاً لكم بنقمته، وإنه لتهديد مخيف أن يلوح لهم بعد ذلك بالإهمال من حسابه ورعايته جزاء إسرافهم القبيح.

إن ربكم يحدثكم في هذا الذكر بلسانكم كما يتفهمه كل إنسان، لسان الناس دون تكلف فـ ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[٢] فهل إذا تحولتم من الناس إلى النسناس ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾؟

فلو أن ضرب الذكر صفحاً كان عنكم المسرفين برفعه أو محوه فما ذنب غير المسرفين؟ أو أن ضربه عنكم فقط أن يجعل بينه وبينكم حجاباً مستوراً، فانقطاع لحجة دائبة عليكم من رب العالمين، فليكن الذكر أمامكم

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٩٢ في كتاب معاني الأخبار بإسناده متصل عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] قال: هو أمير المؤمنين ومعرفته والدليل على أنه أمير المؤمنين قوله عزّ وجلّ : ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ وهو أمير المؤمنين عليه السلام في أم الكتاب في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؟!.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

وبين أيديكم تعيشونه بأسماعكم وأبصاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتتقون شفاءً ورحمة للمؤمنين، أم نكالاً وخساراً للظالمين:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[١].

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾:

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هنا تعني مَن قبل الآخرين المسلمين كما ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٢] ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾[٣] ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾[٤] ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾[٥] ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٦]، وإن كانت تعني أحياناً مَن قبلكم وقبل الأوسطين: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٧] فحين تعني الأولين أولية الرسالة والمرسل إليهم فالآخرون هم المسلمون، لمحة لطيفة إلى أن الرسالات كلها تقدمات وتهيئات لهذه الرسالة الأخيرة السامية، لا شأن لها إلا أوليتها وأنها تعبِّد طريق هذه الأخيرة.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ﴾ رسالة تترى دونما انقطاع ﴿فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٨] سنة دائبة في تواتر الرسالات رغم تواتر التكذيبات دون أن يضرب عنهم الذكر صفحاً إن كانوا مسرفين!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الحجر، الآية: ١٠.
(٣) سورة الواقعة: الآيتان: ١٣، ١٤.
(٤) سورة الواقعة: الآيتان: ٣٩، ٤٠.
(٥) سورة الواقعة: الآيتان: ٤٩، ٥٠.
(٦) سورة الصافات، الآية: ٧١.
(٧) سورة الشعراء، الآية: ٢٦.
(٨) سورة المؤمنون، الآية: ٤٤.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ هؤلاء المناكيد الأوغاد ﴿مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهم أولاء المترفون: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1] ومن ثم المستضعفون، والرسالات الإلهية تحارب المستكبرين وتؤوي المستضعفين:

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أشد منهم بينهم[2] وأشد منكم ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مضياً في واقعه حيث الهلاك الواقع، ومضياً في إنبائه حيث الإنباءات الماضية منذ بزوغ وحي القرآن، ومضياً في إمضائه ككل إنباء لكم، حيث الإنباءات تترى طول نزول القرآن، ومضياً في تحقيقه بينكم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[3] سنن من كان قبلكم حذوا النعل بالنعل والقذة بالقذة.

﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾: حملة على الرسل والرسالات، وحملة على الأفراد والجماعات، هؤلاء الأشداء أهلكوا بالطاغية.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾:

هنالك خطوات ثلاث إلى الله، أولاها أن هناك مخلوقاً أو أن العالم كلّه مخلوق، وثانيتها أن الخالق عزيز عليم، وثالثتها أنه هو الله.

الخطوة الأولى بيّنة مبرهنة نعيشها ليل نهار، ولا أقل من أنفسنا حيث نُخلق تلو بعض ومع بعض، فلا ناكر أن هناك مخلوقاً بين المختلفين في الله من ماديين ومشركين أم من ذا؟.

فهنا يأتي دور الخطوة الثانية «من خلق»؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾[4] فالخالق لهم

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٤.
(٢) فـ«هم» يعنيهما، أشد منهم بينهم وأشد من هؤلاء الموجودين زمن الرسول ﷺ.
(٣) سورة الانشقاق، الآية: ١٩.
(٤) سورة الطور، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

ولما سواهم غيرهم، فهل يعلم الخالق أم يجهل؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١] فاللطافة الدقة والخبرة الحكمة باهرتان في الخلق كله:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ فالعزة: القدرة الغالبة، والعلم المطلق: اللطافة والخبرة، نلمسها كلها في هذا الخلق العظيم ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۞﴾[٢].

فلو أن الحكمة والإتقان في هذا الصنع البارع البديع دليل الجهل والعجز، أم لا يدل على علم وقدرة، فما هي آثار العلم والقدرة أم ليست لهما آثار؟.

إن القدرة الغالبة غير المغلوبة والعلم النافذ هما لزام هذا الخلق العظيم؟ فلولا العزة لم تكن قدرة لخلقٍ فضلاً عن هذا الخلق القويم، ولولا العلم لم تكن حكمة ونظام في هذا الخلق الحكيم، ولولاهما فلا هما فلا خلق فضلاً عن هذا الخلق القويم الحكيم، وآيات العزة والعلم والخبرة واللطف والحكمة نقرؤها ليل نهار في هذا الخلق العظيم.

فسواء أكان هذا السؤال عن المشركين المقرين بالله ذي العرش، أم عن الماديين الناكرين الله، حيث الخلق وإتقانه دليل لا مرد له على خالق أتقنه، فالفطرة تجيب: ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ والعقل يجيب والعلم ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وحتى المجانين يعرفون أن العزة والعلم هما لزام الخلق وأي صنع.

كلّ من له أدنى شعور لا ينسب هذا الخلق - بما فيه هذه العقول البارعة - إلى مادة غير ذات شعور، فلو أن العجز والجهل يأتيان بما لا

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.
(٢) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

يقدر عليه فطاحل العلماء ونوابغ المخترعين، فلنحاول في تحصيل العجز والجهل أم لا نحاول في تحصيل العلم والقدرة، بغية أن نقدر على ما تقدر عليه المادة العاجزة الجاهلة! فليكن الخالق أياً كان أعز وأعلم من كل ما خلق وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

ثم يأتي دور الخطوة الثالثة ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(١) يقوله المشركون المعترفون بالله، وليقله الماديون الناكرون الله.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾:

إن جعل الأرض مهداً بعدما كانت شَموساً محكومة بحراكات مضطربة، وجعل سبلٍ لنا فيها بغية اهتدائنا إلى منافعنا، هما من مظاهر العزة والعلم لخالق السماوات والأرض.

فكما الطفل يربّى في المهد ثم يُمشّى في سبل الحياة، كذلك يتربى الإنسان في مهد الأرض ويمشي في سبلها إلى منتفعات الحياة، سواء أكانت الحياة الأرضية المادية لصالح الجسم، أم حياة معنوية سماوية هي معرفة الله، فالسبل المجعولة لكم فيها ليست هي السبل الأرضية فحسب، بل وسبل الإنسانية كلها بما كوّن فيها أو شرع، فمن شرعة التكوين تهتدون إلى المكوِّن وإلى حياتكم الأرضية، ومن شرعة التشريع تهتدون إلى مشاريع الإنسانية، وهي حجر الأساس في تبنّي الإنسان كإنسان.

فهناك مثلث من السبل المجعولة في الأرض يعيشها كل إنسان وكل

---

(١) كنص الآية نفسها في ٢٩: ٢٥ و٣٨ واضافة ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ [العنكبوت: ٦١] ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا...﴾ [العنكبوت: ٦٣] ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ...﴾ [الزخرف: ٨٧].
فهذه الآيات الست في سورتي الزخرف والعنكبوت.

جيل حسب مستطاعه وعلى ضوء محاولاته الدائبة: سبل المعرفة الإلهية بما أودع في الأرض من بدايع العزة والعلم، وسبل الحياة برّاً وبحراً وجوّاً، وسبل التشاريع الإلهية، عبر الرسالات، والإنسان يعيش هذه السبل ويهتدي بها إلى معارج الكمال.

فالأرض بسبلها تكوينية وتشريعية مهد للطفولة الإنسانية حتى تبلغ بالإنسان إلى رجولات ورجولات، حسب مختلف الإمكانيات والإدراكات.

فالأرض مهد بحراكها الذلول بعد أن كانت شَموساً، ومهد بحراكها المختلفة المولدة للفصول، ومهد بحراكها التطورية في مختلف الحقول، ومهد متمهد لترقية الناشئة إلى آماد وقمم من الكمال الإنساني..

﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ ترى أن «كم» هنا تعني الموجودين زمن الخطاب: أم ومن يتلوهم إلى يوم القيامة؟ أم بني الإنسان أياً كانوا وأيان؟ أم كل عاقل ممن سبقنا من إنسان كما نحن؟.

طبعاً ليس مهاد الأرض جديداً يخصنا، فإنه يعم ويطم كل من يحتاج إلى مهاد الأرض من إنسان أمن ذا، وعلى هامشه سائر النبات والحيوان! فمهاد الأرض ومهدها وذلولها وكل ممهدات الحياة الأرضية هي مجعولة بعزة الله وعلمه لمحاويجها من إنسان وغير إنسان، مهما كانوا هم في درجات.

فالأرض مهد كما هنا وفي طه (٥٣) ومهاد كما في النبأ (٧٨) وذلول كما في الملك (٦٧) وراجفة (٧٩: ٦) وقرار (٤٠: ٦٤) وكفات (٧٧: ٢٥) تسبح كسابحات أخرى في يمِّ الفضاء الملتطم (٢١: ٣٣) أما ذات من دلالات على حركاتها التي هي من مخلّفات عزته تعالى وعلمه بحكمته ورحمته، تعبيرات سبعة عن حركات عدة في مربع من كونها وكيانها: قبل الحياة عليها، وزمنها وعند موتها وفي قيامتها.

ومن سبل الحياة الأرضية في الحقل المادي نزول ماء السماء عليها بقدر:

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾:

إن ماء الأرض كله نازل من السماء بقدر، لا يزيد فيُغرق، ولا يقل فتجف الأرض، وإنما بقدر يقدّره علم الله وينزله بعزته وحكمته، فالأرض قبل نازل السماء كانت ميتاً، ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] ولولا ماء السماء لظلت الأرض ميتاً دونما حياة وإنبات: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾[2] وإنما نبات كل شيء نابت بماء السماء المقدر للأرض: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[3] فللأرض ماء من السماء يخصها ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾[4] وليس ﴿مَاءَكِ﴾ إلا النازل من السماء بقدر! فماء السماء النازل على الأرض بقدر دليل على مدبر عزيز عليم، وإنشائه بلدة ميتاً آية له لإخراج ميت البلاد يوم المعاد: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ رحمة ذات دلالتين لسبل الاهتداء، على المبدأ والمعاد.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

الأزواج كلها حسب القرآن والواقع الكوني هي الخلق كله، فما من خلق إلا وهو زوج ولا زوج إلا وهو مخلوق، فلا فرد حقيقياً إلا الله سبحانه وتعالى عما يشركون.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.
(٤) سورة هود، الآية: ٤٤.

أجل إن الزوجية التركّب وإن من جزءين فيزيائيين أم هندسيين، إنها قاعدة الكون المخلوق وصيغته الشاملة «كل شيء»: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢) فلا تخص الأزواج والزوجان - إذاً - الذكر والأنثى، وشحنتي السلب والإيجاب أم ماذا، مما عرفه الإنسان حتى الآن أم سوف يعرفه، حيث الزوجية ضاربة إلى أعماق الكيان المادي أياً كان، وإن في كل شحنة وأجزائها ما دامت مادة، وزوال الزوجية ككلٍّ هو زوال الكيان المادي فالانعدام المطلق، كما أن الوجود المادي - وكل موجود سوى الله مادي - هو الوجود التركيبي الزوجي مما يعلمون ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾!.

وخلق الأزواج بنفسه دليل على عدم الزوجية في خالقها، كما الزوجية بنفسها دليل حدوثها بعزيز عليم.

﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ تركبونه كالأنعام، أو فيه كالفلك وأضرابها، و«من» هنا تلميحة أن ما تركبون لا يخص الفلك والأنعام: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣) من سفن تحت البحرية أو طائرات وصواريخ أو سيارات أما هيه.

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾: ظهور ما تركبون، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ حيث سخرها لكم بما خلقها، أو رزقكم من عقول بما تصنعون مما تركبون ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾: ضابطين، يصبح لنا قرناً نركبه، أو تقرن أسباب اصطناعه فنصطنعه، إلا بفضل من الله

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.
(٢) سورة يس، الآية: ٣٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٨.

ورحمة ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾: انقلاباً من النكران به إلى الإيمان، ومن الخلق إلى الخالق فراراً: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾(١).

آية الانقلاب تجعله في نطاق الركوب وطبعاً في السفر طال أم قصر، والعبد دائم الانقلاب إلى ربه، ﴿كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾(٢) ولكنما السفر لابتعاده عن الموطن المألوف أم أي مسكن، يتطلب انقلاباً إلى الرب أكثر قضية اضطراب هنالك أكثر، ولتقل في السفر حين تركب ضمن ما تقول: «اللهم أنت الحامل على الظهر والمستعان على الأمر، اللهم بلغنا بلاغاً يبلغ إلى خير، بلاغاً إلى مغفرتك ورضوانك، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا حافظ غيرك»(٣).

إن الأدب الإسلامي هنا وثيق الصلة بتربية الروح الإنساني، إنه ليس قولة فاضية، وإنما فائضة على القلب، نابضة منه، لا مجرد طقوس لفظية عابرة، وإنما استحياء للمشاعر واستجاشة للضمائر، ولكي يرى الإنسان حياته كلها مربوطة بفضل الله ورحمته، فيصبح دائب الانقلاب إلى اللّه، فراراً دون قرار ولا ارتجاع إلى دار الفرار.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾:

رغم أن خالق الأزواج والزوجين ليس من الأزواج والزوجين، حيث الزوجية آية الفقر، ومن المستحيل أن الفقير الذات يخلق الفقير الذات رغم

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة الإنشقاق، الآية: ٦.

(٣) نور الثقلين ٤: ٥٩٣ ح ١٢ القمي عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا استويت على راحلتك واستوى بك محملك فقل: الحمد للّه الذي هدانا للإسلام ومنّ علينا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٣-١٤] والحمد لله رب العالمين اللهم. . .

كل ذلك ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ ولداً تجزئوه انفصالاً عن ذاته المقدسة من ملك أو إنس وجان، أم جزء من الإنسان (روحه) جزء من روحه، وقد يخرصون له بكلامه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[١] رغم أن ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٢] لا من ذاته!

فقد جعلوا المسيح ابن الله بولادة إلهية، والملائكة بنات الله، والجن أبناء الله:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٣].

وذلك الجزء المخروق من ذاته سبحانه لا بد وأن يكون مثل ذاته سبحانه، فكيف أصبح مخلوقاً كما يقولون وهو خالقه؟.. ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ نعمة العقل والوجدان، فيكفر بربه كفراً وكفراناً مبيناً.

وترى الجزء المجعول له من عباده هم فقط الذين ولدهم على زعمهم ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؟ وقد جعلوا!

أم تجزئوا عباده فجزء له وجزء لآلهة أخرى؟ والجزآن عباده كما هم معترفون! وقد جعلوا!

أم تجزئوا الخلق، والتدبير لعباده، فله خلقهم ولآلهة أخرى تدبيرهم؟.. وقد جعلوا!

والآية تتحمل هذه الثلاث لفظياً معنوياً مهما عنت «له» الجزء الذاتي المتجزئ من ذاته كالأول، أو الجزء العبادي ففريق يعبدونه وآخرون يعبدون آلهة أخرى هم من ولده أمّن ذا؟ كالثاني، أو الجزء في كيان العباد خلقاً

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.

وتدبيراً، فجزء الخلق له وجزء التدبير لآلهة أخرى!. كما وأن «من عباده» تعني في الأول بعض العباد وهم الذين ولدهم في زعمهم، وفي الثاني فريق له يعبدونه وفريق لسواه يعبدون سواه، وفي الثالث قسم من كيانهم له وقسم آخر لآخر!.

ولأن الجزء في أصله من الكل، فهو قسم من ذات واحدة أو من ذوات، فالمعنى الثاني يصبح في القوة ثالث الاحتمالات، كما الأول أول حيث الأظهر من الجزء هو من شخص لا أشخاص كالثاني ولكنما الجزء في إطلاق عام يعم الثلاثة.

وبصيغة أخرى و«جعلوا» تشمل جعل الولادة أم البنوة التشريفية أو الاعتقاد في جوانب أخرى من الألوهية لغير الله و﴿لَهُۥ﴾: لذاته - لخالقيته - لتدبيره - أم لهما - ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ من ذواتهم ككل، أم بعضاً كالروح، أم شأن المعبودية، أو الخالقية أو التدبير - فتشمل الآية من جعل لله ولداً بولادة ذاتية بعضاً كالروح أو روح المسيح، أو كلّا كالمسيح عند جماعة، إن الله تنزّل من لاهوت الألوهية إلى رحم مريم فتحول مسيحاً ولم يبق منه شيء، أم بولادة تشريفية، ومن جعل لله شريكاً في عبادة أو خلق أو تدبير، فمن الناس من يقول إنه الخالق المدبر وحده وله شركاء في العبادة، ومنهم من يقول إنه الخالق لأول الخليقة ثم هو الخالق لسائر الخلق مستقلاً أو كوسيلة لله، ومنهم من يقول إنه الخالق والمدبر غيره، ومنهم من يقتسم الخلق والتدبير بينه وبين خلقه ومنهم. فكل هذه الخرافات وأشباهها داخلة في تنديد الآية!.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦﴾:

﴿أَمِ﴾ هنا تعطف إلى محذوف من قبيل المعطوف كـ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ جزءاً له عبداً لنفسه فهو إذاً يعبد نفسه في حين يُعبد؟ أو اتخذ عبداً له مخلوقاً لنفسه

ولداً تشريفاً له؟ وشرافة في عبوديته، ﴿أَمِ﴾ إذا اتخذ لنفسه ولداً مما يخلق، قسم قسمة ضيزى فـ ﴿اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ لنفسه ﴿وَأَصْفَاكُم﴾ واختاركم على نفسه ﴿بِالْبَنِينَ﴾؟.. أفهل إيثاراً لكم عليه وليس الإيثار إلا خصاصة وليست لله خصاصة، ثم ولا إيثار إلّا تفضيلاً ولا تفضيل على الله، وهل يفضّل الله على نفسه - لو صح تفضيله - من يشرك به إهانة ومهانة لساحته؟ ومن ثم لو صح التبنّي فليجعل خلقه جميعاً ولده من بنين وبنات، دون أن يقتسم تلك القسمة الضيزى الجاهلة المجنونة، العاجزة الملعونة.

إن البنات أضعف من البنين حيث الأنثى تنشأ في الحلية فهي في الخصام غير مبين حيث لا تسطع حد الخصام، وهذا واقع من البون بين البنات والبنين.

ثم في زعمهم البنات عار تظل وجوههم مسودة إذا بشروا بالأنثى، وهم على هذين النقصين الواقعي والخيالي يهرفون أن الله اتخذ مما يخلق بنات وأصفاهم بالبنين!.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾:

يسود وجهه من الغضب والاختجال وهو كظيم غيظه لا يظهر حتى يدسها في التراب! ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[1].

وإنما ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ هنا بدلاً عن «الأنثى» كما في سواها؟ لأنهما في سواها بناتهم حيث بهن يبشرون، وهنا لسن بنات الله، وإنما ﴿بِمَا

(١) سورة النحل، الآيات: ٥٧-٥٩.

﴿ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ ضرباً للرحمن باطلاً، مثلاً: آية تمثّل، والولد آية لوالده يمثّله، وهم يمثلون في مثلَهم الرحمن بمظهر الأنوثة.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾:

هنا الواو في ﴿أَوَمَن﴾ تطوي عن ذكر سائر المفارقات بين البنين والبنات إلى ذكر رعونتهن وعدم رجولتهن، وهم يهتمون في الأولاد بالبطولات التي ليست إلا للأبناء.

أترى لو أن الله اتخذ لنفسه مما يخلق ولداً فكيف لم يصطف لنفسه الأفضل: البنين، وهو الخالق للبنات والبنين، أو لم يسوِ بينه وبينهم أن يجعل لنفسه بنين وبنات كما جعل لهم!؟

هنا يذكر من المفارقات بين البنين والبنات إيجابية واحدة: «ينشأ في الحلية» حيث تتربى في الزينة والرعونة والليونة وهي خلاف البطولة ثم سلبية واحدة: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ لا في خصام الصراع بدنياً فإنها أضعف من الذكر، ولا الصراع عقلياً وفي المناظرة، فإن عقليتها في الأغلب أضعف، ولا في أي خصام وعراك يبين وإن بان بين المخاصمين!.

والقوة العقلية والبدنية لقبيل الذكور بالنسبة للإناث في الأغلبية الساحقة مما لا تكاد تنكر، وإن كان في كل ذلك مصلحة جماعية في حقل الزوجية وسائر الحقول، إلا أن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾(١) لنفس المصلحة.

أفمن اللياقة والأدب الإنساني لمن يعترفون بالله الخالق للبنات والبنين أن ينسبوا إلى الله من هم يستاؤون إذا بشروا به، ويتميزون غيظاً يكظمونه، إجلالاً عن التصريح بما يكتمونه؟ فهم - على سنتهم السيئة - يرفضون

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

البنات دساً في التراب ويستحيون البنين، ثم هم أولاء يجعلون لله ما يدسون، دساً لحرمة رب العالمين ودوساً لكرامته، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

ثم وهم في تهتّكهم لساحة الربوبية في هذه النسبة الجاهلة يهتكون الملائكة أيضاً ولأنهم من عمال رب العالمين إذ يجعلونهم بناته:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

وكيف يجعلون الملائكة وهم عباد الرحمن المكرمون إناثاً يهانون؟ وعبوديتهم لله تجعلهم من المكرمين عند خلقه، أم وفي ظنكم في بنوّة تشريفية تشرّفهم بهذه الكرامة، فليجعلوا - إذاً - بنين لا بنات! ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾ حين خلقهم أم بعد حين؟ و﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[1] فكيف بشهادة من خلقوا قبلهم! ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ﴾ الكاذبة هذه إذ كانوا مدعين ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها!

ومن هنا يعلم أن الشهادة بما لا تعلم تحمل مسؤولية كبرى أمام الله، ولا سيما في التي تكذبها العقول، ولا تصدِّق في أيّ من الحقول أن الملائكة بنات الله!

فالملائكة لا بنات لله ولا أبناءه، وهم لا ذكور ولا إناث، خارجون عن القسمين إلى ثالث، فالذكورة بآلتها وحالتها تقتضي إناثاً كما الأنوثة بآلتها وحالتها تقتضي ذكوراً، ولا تناسل بين الملائكة ولا تزاوج حتى تكون فيهم ذكورة وأنوثة!

وكتابة هذه الشهادة الكاذبة قولياً في قولة البنوة الكاذبة، وفعلياً في

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.

عبادة بنات الله الملائكة، واعتقادياً: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ مثلث الشهادة هذه ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها سؤال توبيخ لا استعلام.

ولماذا «ستكتب» والله كاتب الشهادات وكافة الأقوال والأعمال والأحوال في مثلث الزمان دون مستقبله اللامح من «ستكتب»؟

عله مستقبل استمراري أن هذه الكتابة تلحق الشهادة أماهيه، دوماً دون ترك أو فتور، فكتابة الأعمال هي بعد تحققها لزاماً لصاقاً، كما جزاء الأعمال هي بعدهما جزاءً وفاقاً.

إنهم عباد الرحمن حيث خلقهم لا ولده، ولو كانوا من ولده فليكونوا من أبنائه إكراماً لهم إذ هم عباده الخصوص، لا من بناته.

ثم ومن فضيح فعلتهم أنهم يعبدون الملائكة على قولتهم أنهم بنات الله، وكيف يعبدون من يترذلونهم عندهم، ثم هم ينسبون فعلتهم الرذيلة هذه إلى الرحمن؟!

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

كفر مربع لهؤلاء المناكيد الأوغاد: ١ - إثبات الولد لله سبحانه. ٢ - أنه بنت، ٣ - الملائكة بنات الله، ٤ - هم يعبدونهم بمشيئة الله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾!

هؤلاء بعد ثالوث كفرهم يحاولون التهرّب حين يحاصرهم الحجج، وتتهافت بين أيديهم الأسطورة فيحيلون عبادتهم لهم على مشيئة الله، لو شاء الرحمن ألّا نعبدهم ما عبدناهم، أن يمنعنا من عبادتهم تسييراً! وهذه قولة المجبرين، ولكنهم يتقولونها جاهلين ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ لا علم بمرضاة الله ومشيئته في عبادتهم، ولا علم بمشيئة الله أنها لا تختص بالتكوينية، و لله مشيئتان تكوينية وتشريعية، والثانية كائنة في توحيد الله عبر

الرسالات، والأولى لا تمنع الاختيار، وهل يشاء الله ما منعته شرعته وتمنعه العقول أن يشرك به ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: يكذبون بما لا يعلمون ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾[1] خرص عن جهل في ذلك التهتك المائر لساحة الربوبية.

وأية مشية من الرحمن تبرر فعلتهم هذه، لا تثبت إلا بوحي وكتاب أم حجة قاطعة من العقل، ولا حجة لهم في خرصهم إلا سنة الآباء على أمة الشرك:

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ هنا تعطف إلى محذوف على هذا المعطوف كمثله أو هو أدنى، لا حاجة إلى ذكره. كـ «هل تدلهم عقولهم على ما يدعون»؟ «أم أوحي إليهم ما يخرصون»؟ ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾؟ فلا وحي العقل يثبت ما يتقولون، ولا وحي خالق العقل بوسيط أم دون وسيط، فلا حجة لهم فيما يخرصون ﴿بَلْ قَالُوا...﴾.

انحسرت حجتهم عما يصح، وانحصرت فيما لا يصح ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾! ومن الأمة الطريقة والسنة المستمرة التي تقصد وآباءنا القدامى كانوا على هذه السنة وإنا على آثارهم مهتدون إلى الحق.

ولكن إذ تنتقل هذه الحجج البالغة إلى آبائهم، فهل عندهم من إجابة كهذه؟ فتسلسلاً إلى بداية أم غير بداية! أم عندهم إجابات من عقلية أو وحي وكتاب فما هي؟

فمجرد أن الآباء كانوا على أمة، لا يبرر تقليد الأبناء لهم دون دليل،

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ١٠، ١١.

وإنما الإنسان العاقل ابن البرهان أياً كان ومن أيّ كان، مهما كان ابن أبيه في الولادة البدنية.

إن الآباء كالأبناء هم كانوا يوماً أبناء، فلأي مبرّر يقلّدون إذاً، ألكونهم فقط آباء، فهل ولدوا إلّا الأبناء؟ أم ولدوا مع الأبناء حججاً تقنع الأبناء - كذلك!:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾:

ثم هب أن آباءً من هذا القبيل كانوا على أمة الشرك فأنتم على آثارهم مقتدون، فما لكم لا تقتدون بآباء موحدين إبراهيميين وهو الأب الأكبر لكم الأميين، وأمته أمة التوحيد ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾!

المترفون المنعمون في كل قرية كانت حجتهم الأولى والأخيرة ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا...﴾ حلقات موصولة بعضها ببعض، تحلّق حجتهم الداحضة عليهم عبر الفكرة المشركة بالله في الطول التاريخي والعرض الجغرافي.

ومع التنازل عن بطلان هكذا تقليد أعمى، واحتمال أنه حقٌّ أم تأكداً من حقه وهداه، فعلى فرض المستحيل في زعمكم أنّ هناك هدى أهدى من هداكم، فهل تقبلون هدى التوحيد؟:

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾:

﴿قَٰلَ﴾ داعية التوحيد: النذير في كل قرية كلمة واحدة موحّدة ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم...﴾ لو أنكم تفتشون عن هدى ولذلك ترونكم ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ - لَوْ ﴿جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ - لو كانوا على هدى - فهل أنتم تستمرون فيما أنتم عليه؟ ﴿قَالُوٓاْ﴾ كلمة واحدة موحدة في شركهم ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ولو جئتمونا بأهدى مما وجدنا عليه آباؤنا!

ويا لها من حجة بارعة أمام هؤلاء الحماقى أنها على فرض إحالة حجة أهدى من حججهم ﴿أَوَلَوْ﴾ تجتث جذور كافة الحجج عن أعماقهم حيث «قالوا» على افتراض أن تأتيهم حجة أهدى من أمة آبائهم ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾!

والإنسان العاقل حتى وذو جنة وحتى الحيوان لا ينفي أمراً أو يثبته فيثبت عليه إلا ببرهان، وأما أن يثبت على تقليد أعمى ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ رغم توفر البراهين وتواترها بدحضه وإبطاله، فهو أضل سبيلاً من الأنعام، أم ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(١) كأئمة الضلال، أو حمقاً في عمقهم في تقليد أعمى كالمستضعفين المتنازلين عن عقولهم، عن فطرهم وفكرهم في كل حقولهم!

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ في صيغة التعبير يخيّل للبسطاء أنه انتقام كما عندنا، نتيجة الغضب وتهدّر الأعصاب، وليس لله غضب كما لنا ولا أعصاب، فإنما يعني عذبناهم بما كفروا كنتيجة عادلة لكفرهم بما يظهر في ملكوت الواقع، هنا يسيراً، وفي الأخرى كثيراً، وبينهما في البرزخ عوان، ف ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ و«بما» في أخرى تعنى «ما» كما هنا، تعبيران عن حقيقة واحدة ونمط واحد من واقع العذاب، فالعذاب هو العمل بما عُمِل نتيجة الاختيار لعامل العذاب.

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

فهرس الجزء الخامس والعشرون

الموضوع الصفحة

تتمة سورة غافر

سورة غافر، الآيات: ١٣ - ٤٦ .... ٧
سورة غافر، الآيات: ٤٧ - ٦٠ .... ٤٧
سورة غافر، الآيات: ٦١ - ٦٨ .... ٦٧
سورة غافر، الآيات: ٦٩ - ٨٥ .... ٧٣

سورة فصلت

سورة فصلت، الآيات: ١ - ١٢ .... ٨٣
ما هو اليوم؟ ٩٥
فذلكة حول أيام الخلق ١١٧
سورة فصلت، الآيات: ١٣ - ٢٥ .... ١١٨
سورة فصلت، الآيات: ٢٦ - ٣٩ .... ١٣٨

سورة فصلت، الآيات: ٤٠ - ٥٤ .... ١٥٧

سورة الشورى

سورة الشورى، الآيات: ١ - ٨ .... ١٧٩
سورة الشورى، الآيات: ٩ - ١٦ .... ٢٠٠
حجج داحضة ٢٣١
سورة الشورى، الآيات: ١٧ - ٢٨ .... ٢٣٤
سورة الشورى، الآيات: ٢٩ - ٥٣ .... ٢٦٣
التكليم الإلهي ٣١٦
شرعة الرسول قبل الإسلام ٣٢٧

سورة الزخرف

سورة الشورى، الآيات: ١ - ٢٥ .... ٣٣١